مجلة شهرية
تعنى بالتاريخ السوري والعربي وتستعير ذاكرة الصحافة العابرة للأجيال

العربي القديم

The Old Arabian

شعارها:
اللي مالو قديم
مالو جديد

Second Year | Issue 13 July 2024
السنة الثانية | العدد (13) تموز/ يوليو 2024

عدد خاص

أدب المذكرات السياسية

قريبا على صفحات

الشرق الأوسط

جريدة العرب الدولية

كتاب «لاعب اللعبة»

الاعترافات غير الرسمية لمايلز كوبلاند مؤلف «لعبة الامم» وخبير وكالة المخابرات المركزية الامريكية في العمل السياسي.

وقائع واسرار عن احداث ومحطات واشخاص، عناوين مميزة لكتاب يثير عاصفة من المسائل والتساؤلات

ومن الكتاب:

١. البحث عن زعيم له سحر وجاذبية

٢. جمال عبد الناصر والولايات المتحدة والواقعية

٣. تجربة سورية، حسني الزعيم

٤. لبنان عام ١٩٤٧

٥. المخابرات المركزية

٦. محمد حسنين هيكل كيف عرفته؟

٧. بداية النهاية لكل من دلاس وعبد الناصر

٨. كوبلاند في لبنان

٩. الخيانة البريئة لزكريا محيي الدين

١٠. طاعون من الحمقى المفيدين

١١. امريكا في دوامات انفعال الاخلاقيات

ينشر على حلقات

إعلان صحيفة (الشرق الأوسط) عام 1989 عن مسلسل مذكرات خبير CIA المستر مايلز كوبلاند الذي نشرته على حلقات. طالع تعليق الكاتب السوري زهير الشلق عن "المذكرات وكتابة التاريخ" ص (16-18)

فاصلة

ما الذي نصدقه أو لا نصدقه في أدب المذكرات؟!

محمد منصور

عشقت مطالعة المذكرات باكراً... رأيت فيها تاريخاً محكياً عبر سِيَر أشخاص وحياة أفراد.

أحببت نبرتها الذاتية، فقد تعلمت خلال قراءاتي الكثيرة أن أحترم خصوصيات البشر في نصوصهم، وألا أطالبهم بموضوعية مطلقة إزاء أحداث كانوا جزءاً منها، أو من الأجواء التي صنعتها وأنتجتها... ولهذا كانت المذكرات بالنسبة لي وجهة نظر، مادامت التزمت صدق الوقائع العامة، واحترام عقل القارئ، فلم تخترع كما فعل مصطفى طلاس قصصاً مضحكة عن والدة حافظ الأسد التي قاومت كتيبة كاملة من الفرنسيين بمسدس قديم، وردتهم على أعقابهم، في مذكراته "مرآة حياتي" التي كانت مرآة حياة الكذب والتدليس التي عاشها فعلاً.

خارج هذا الكذب الفج تبقى المذكرات وجهة نظر تُحترَم. أختلف فيها كثيراً مع أولئك الذين يضربون لنا مثلاً عن حادث السير الذي وقع للتو، والذي يرويه كل شاهد عيان بتفاصيل مختلفة، ثم يسألون مشككين: كيف نثق بكتب التاريخ التي تتحدث عن وقائع من مئات أو آلاف السنين إذن؟!

بالنسبة لي أنا أثق... مادام الكاتب مشهوداً له بأنه كان ابن المرحلة، أو نقل عن شهود من تلك المرحلة. ومادام نصه متماسكاً، وقدرته على رسم تفاصيل الزمان والمكان بشكل مقنع، سأثق أن حادث السير قد وقع، وإلا لما أجمع أربعة شهود عيان على رواية تفاصيل عنه، ولما وجدت بينهم تقاطعات مشتركة، أما الاختلافات فهي في زاوية الرؤية والفهم والقدرة على الملاحظة والتعبير... وسأثق أن ما نعيشه من أحداث قد نرويها في مذكراتنا بأشكال مختلفة، وقد يأتي من يصوب لنا، أو يضيف لنا تفاصيل غائبة... وقد تغيب بسبب ضعف ذاكرتنا أو بسبب عدم قدرتنا على الإحاطة بالحدث من كل جوانبه، أو الوصول إلى المعلومات كافةً التي تضيء خباياه.

أجمل ما في كتب المذكرات هي النكهة الشخصية في الرؤية والتعبير... إذا أردت أن ترى دمشق المحافظة التي تخوض صراعاً متحفظاً، وربما رافضاً مع دعاة التحديث، فاقرأ مذكرات الشيخ علي الطنطاوي، وتوقف جيداً عند معركته مع مدرسة دوحة الأدب وتعليم رقص السماح للفتيات الدمشقيات، ومع معركة تدريس مادة التربية الدينية في المدارس، وإذا أردت أن ترى سورية التي تتطلع نحو التفكير العلماني والتعامل مع الواقع الاجتماعي والسياسي بروح علمية صارمة، تتمسك بالمبادئ الوطنية وترفض التنازل، مثلما ترفض الشعبوية في تفسير الأحداث وتمجيد الشخصيات، فاقرأ مذكرات عبد الرحمن الشهبندر، وإذا أردت أن ترى دمشق الناهضة المتطلعة إلى اللهو والطرب والفن النظيف والمتوثبة بروحها الشابة، فاقرأ مذكرات فخري البارودي، وإذا أردت أن ترى دمشق الثرية بتراثها والتي لا تخجل من ذكر مثالب وعيوب بعض تقاليدها وعاداتها الاجتماعية، فاقرأ مذكرات المحامي نجاة قصاب حسن "حديث دمشقي"، ثم عرّج على روح المرحلة التاريخية في الجزء الثاني المعنون: "جيل الشجاعة"، واسأل نفسك: أي من هؤلاء هي دمشق الحقيقية؟! ومن هو الأصدق في مذكراته؟ وكيف نثق بكل هذه الصور والنماذج المختلفة التي بدت عليها دمشق في مذكرات كل واحد منهم؟!

إن الجواب باعتقادي أن دمشق ولا واحدة من تلك النماذج... إنها كلها مجتمعة، في كل مذكرات ثمة زاوية رؤية مختلفة، وثمة رؤية شخصية وعوامل تأثر وتأثير تجعل المدينة الواحدة مدناً متعددة... لكن دمشق تبقى هي البطل في مذكرات الطنطاوي، وفي مذكرات نجاة قصاب حسن، وفي مذكرات نصوح بابيل والبارودي وكل هؤلاء. وهذه الرؤية الذاتية هي التي تعطي للمذكرات قيمة وبصمة، وتجعل القارئ والباحث على حد سواء يبحث فيها ويحلل ويتعمق ويستمتع ويستعيد، وقد يتشارك الذاكرة ذاتها قرباً أو بُعداً عنها.

إن هذا العدد الخاص الذي تبدأ فيه (العربي القديم) عامها الثاني، وهي تقدم تطويرات في الشكل والأسلوب والتبويب، يكاد يمثل وثيقة استقرائية تحليلية عن نماذج هامة وشهيرة من أدب المذكرات في التاريخ السوري، وعن إشكالات وعيوب ومثالب طبعت هذا اللون من ألوان الأدب التسجيلي في الحالة السورية، وقد حفل العدد بإسهامات هامة ومميزة لكتاب وكاتبات قدموا جهداً معرفياً ونقدياً يستحق الشكر والثناء بحق... ناهيك عن فصول من مذكرات لكتاب وفنانين خصّوا بها العربي القديم، وهي تُنشر لأول مرة، كي تقدم للقارئ صورة عن حياة معاشة وعن مذكرات وطن يصارع في كل عصر وآن.

رئيس التحرير

العربي القديم
The Old Arabian

مجلة شهرية تعنى بالتاريخ السوري والعربي
وتستعيد ذاكرة الصحافة العابرة للأجيال

الناشر ورئيس التحرير
محمد منصور

التدقيق اللغوي
حسام الدين الفرا

إدارة السوشيال ميديا
فايز النعيمي

المصمم والمستشار الفني
نبيل مراد

* إيميل التحرير: info@alarabialqadeem.com
* إيميل رئيس التحرير: mansoursham@gmail.com
* واتساب التحرير والإعلان: 00905368116000

قواعد النشر

* ترحب المجلة بكل الإسهامات التي تستهدف توثيق الذاكرة التاريخية والشعبية السورية والعربية وفنون الأدب التسجيلي من أدب الرحلات والرسائل والسير الذاتية والسير الغيرية والمذكرات.
* تخصص المجلة حيزاً واسعاً لإعادة نشر المقالات والدراسات المختارة من قديم الصحافة السورية والعربية بما يضيء ويضيف للتاريخ السوري
* تهتم المجلة بنشر المذكرات السياسية للشخصيات العامة، أو تلك التي كانت على صلة بمراكز القرار في كافة مراحل التاريخ السوري المعاصر.
* ترحب المجلة بالمراجعات النقدية للكتب التي تتناول التاريخ السوري.
* يُراعى في المذكرات تدقيق الحوادث تاريخياً وإغناؤها بالهوامش التوضيحية، وفي مراجعات الكتب القراءة النقدية، وتوثيق الاقتباسات بأرقام الصفحات، وذكر رقم الطبعة ومكان وتاريخ النشر.

24

26

28

فاصلة

3 ما الذي نصدقه أو لا نصدقه في أدب المذكرات؟
..... بقلم: رئيس التحرير

لعبة الأيام

8 مقدمة أديب الشيشكلي لمذكرات فتح الله الصقال
9 أديب الشيشكلي إن حكى..... محيي الدين اللاذقاني
11 غادة السمان تكتب: مصطفى طلاس وتجديد فن السيرة
13 غادة السمان تتمَكيَج أمام مرآة مصطفى طلاس..... خضر الآغا

من ذاكرة الصحافة العربية

14 مذكرات محمد كرد علي: مذكرات خالدة
..... وداد سكاكيني
16 المذكرات وكتابة التاريخ
..... زهير الشلق
20 أدب المذكرات والذكريات في التأليف العربي
..... محمد عبد الغني حسن
22 السوريون الانقلابيون يكتبون المذكرات بغزارة
..... نصر الدين البحرة

خاص بـ "العربي القديم"

24 الاستئناس بالمذكرات السياسية
..... فواز حداد
26 عن مذكرات أبي خليل القباني المفقودة
..... تيسير خلف
28 مذكرات خالد العظيم بين التلفيق والتزوير
..... عمرو الملاح

30 مع الطنطاوي في ذكرياته..... د. فطيم دناور
33 أكبر أخطاء أبي..... جهاد أكرم الحوراني
35 مذكرات أكرم الحوراني: أدان الجميع وبرأ نفسه
..... سعد فنصة
40 حكاية أمين أبو عساف كما تتجلى في مذكراته
..... إيمان أبو عساف
42 بوعلي ياسين في مذكراته عين الزهور: تحولات الساحل السوري
..... د. أحمد عسيلي
44 المذكرات في العهد الأسدي
..... غسان المفلح
46 المذكرات المتلفزة: أمين الحافظ شاهدا على عصر لم يصنعه
..... مصعب الجندي
48 أدب المذكرات والسير الذاتية بعد الثورة السورية
..... د. محمد طه العثمان
50 الإخوان المسلمون في مذكرات أيمن شربجي
..... رواء علي
56 كيف شوه فاروق اسليم مذكرات الشيخ يوسف السعدون
..... مهنا بلال الرشيد

فصول من مذكرات

62 نشأة وصراع الأحزاب في السلمية..... عيسى الماغوط
66 هزيمة حزيران..... مأمون البني
72 اعتقال على الهامش..... حسيبة عبد الرحمن

الأخيرة

80 هناك أنا لست هنا أيها العربي القديم
..... إيمان الجابر

أبواب ثابتة | من قرن لقرن 6 ذاكرة الكاريكاتير 19 صدر قديماً 78

من كتّاب العدد

زهير الشلق (1918-1994)

كاتب ومؤرخ ومحام سوري من مواليد دمشق. درس الحقوق في الجامعة السورية في ثلاثينات القرن العشرين وبدأ بممارسة مهنة المحاماة في الأربعينات، ومن أشهر القضايا التي ترافع عنها في بداياته قضية رفعها حسني الزعيم لتصحيح عمره عام 1947.

بعد انقلاب الثامن من آذار عام 1963 غادر زهير الشلق دمشق وأقام في بيروت معارضاً للنظام البعثي وكتب سلسلة مقالات هاجم فيها البعث وعبد الناصر في صحيفة (الجزيرة) السعودية.

أصدر أول كتبه عام 1966 (في قفص الاتهام: الشيوعية، الناصرية، البعث)، وفي عام 1969 كتب في صحيفة (الحياة) مقالاً حمل فيه على الحكم البعثي ودوره في هزيمة حزيران، وسخر من وزير الدفاع حافظ الأسد بالقول: "أسد عليّ وفي الحروب دجاجة" فاختطفته المخابرات السورية من لبنان، وأودع في سجن المزة بعد أن حكمت عليه محكمة عسكرية بالسجن لمدة خمس سنوات، قضاها عشراً وخرج عام 1978 وأعطي مهلة ثلاث ساعات للخروج من سوريا فتوجه إلى فرنسا وأقام فيها حتى وفاته، وواظب لسنوات على كتابة زاوية أسبوعية في صحيفة (الشرق الأوسط) كل يوم إثنين.

أعادت (العربي القديم) في عددها التاسع، نشر مقاله (سوريا في الركب الشيوعي) كما نشرت في العدد ذاته تقريراً حول اختفائه في بيروت بعنوان: "أنباء متضاربة عن مصير الكاتب زهير الشلق).

للكاتب مؤلفات عديدة في التاريخ السوري أهمها:
(من أوراق الانتداب) بيروت عام 1985

أملاك الأتراك في سورية

جريدة [الجزيرة] الدمشقية 1935/9/30

قال مُكاتِبُنا الخاص في حلب:

أرسل قنصل تركيا في بيروت كتاباً إلى وزارة الخارجية يتعلق بمسألة أملاك الأتراك في سورية ولبنان، هذه ترجمته: " طيّر التقرير الذي قدمتُه للمفوضية العليا، بشأن تسليم أملاك مواطنيَّ الأتراك التي هي الآن بيد غاصبيها (كذا) وقبول مراجعاتهم من أجل تسجيلها، وبتسهيل المعاملات اللازمة بذلك وسرعة إنجازها. لقد انتهت المحادثات إلى الاتفاق على أن الذين سجلوا أملاكهم واتّفق على إعادتها إليهم، يجب أن تعاد إليهم أملاكهم، وأن يكون التسجيل مبنياً على صور قيود الطابو التي يملكونها، والتي تؤيد حقوقهم في الصرف، على أن تكون مصدّقة من السلطات التركية، وكذلك فإن التحقيق عن الأشخاص الوارثين يجب أن تكون مبنية على إعلام الوَرثة الذي يعطى من السلطات التركية أيضا، وتعاد الأملاك المملوكة بإبراز الوثائق الخاصة بذلك. أما الأملاك التي لها صلة بالخزينة وبالشخصيات المعنوية، فإذا وجدت مسجلة على أسماء غيرهم، لا يعترض على هذا التسجيل، وتعاد الأملاك إلى أصحابها الأصليين، وقد اتفقنا على أن لا يدفع مواطنونا الضرائب عن أملاكهم في سورية التي ستعاد إليهم، كما اتفقنا على مثل هذه المعاملة بشأن أملاك السوريين في تركيا، على أن يلغى هذال الاتفاق حين تعاد الأملاك إلى أصحابها.

ويمكن للمواطنين الذين لم يسجلوا أملاكهم، والذين لا يتصرفون بها مطلقاً، مراجعة المأمورين المحليين، لملاحقة قضايا أملاكهم ضمن دائرة هذه الاتفاقات التي أشرت إليها، وهكذا تكون حقوق مواطنينا قد تأمنت بصورة صريحة... على إنه إذا وقع ما يشتكى منه فيمكن الاتفاق على إزالته، إذا ثبت صحة الشكوى واستنادها إلى وثائق قانونية.

اسمهان في ايام العز على مقدمة سيارتها - كانت اناقتها تلك مضرب الامثال . التقطت الصورة في الغوطة في دمشق

صورة لأسمهان نشرت في مجلة (المصوّر) المصرية بتاريخ 7نيسان1961 لمناسبة نشر قصة حياتها التي كتبها فوميل لبيب

مذكرات خالد العظم تفتتح الدار المتحدة للنشر

جريدة [النهار] البنانية 1972/4/16

دار جديدة للنشر بدأت الشهر الماضي في بيروت، هي "الدار المتحدة للنشر" التي أسسها يوسف الخال مع عمر المدني (سفير الأردن سابقا في بيروت) الذي يعتبر لبنان وطنه الثاني.

وتفتح الدار منشوراتها بمذكرات خالد العظم، التي حصل المدني عليها من العظم نفسه قبل وفاته، في ثلاثة مجلدات ضخمة (1800) صفحة، ويروي فيها كاتبها كشاهد عيان، الأحداث العصيبة التي عاشها في الخمسين سنة الأخيرة من حياة سوريا، منذ دخول الملك فيصل الأول إليها حتى أواخر الستينات.

كذلك تعتزم الدار إعادة طبع 11 سنة من مجموعة مجلة "شعر" في 11 جزءاً.

وليوسف الخال مع النشر تاريخ، فهي مهنته منذ عام 1946 عندما كان أستاذاً للأدب العربي في الجامعة الأميركية، حيث أنشأ "دار الكتاب" مع فؤاد بدر، وتولت إصدار "صوت المرأة" المجلة النسائية الثانية في العالم العربي آنذاك، بعد "المرأة الجديدة" إلى جانب الكتب والمطبوعات الدورية. ثم أسس بعد عودته من أمريكا "دار مجلة شعر" التي تولت إصدار مجلة"شعر"

خالد العظم

ومطبوعاتها التي زادت على 80 كتابا بين شعر وقصة ونقد وترجمات طوال عشر سنوات. وعمل عام 1967 في "دار النهار للنشر" التي أصدرت سلسلة فريدة هي "النفائس" وتضمنت: (نشيد الأناشيد) تحقيق أنسي الحاج، (النبي) تحقيق يوسف الخال، (الموشحات الأندلسية) تحقيق ميشال عاصي، (مقامات الحريري) تحقيق الرسام شفيق عبود، (يسوع المسيح بالأنجيل والأيقونة) تحقيق غسان تويني ويوسف الخال مع المطبعة الكاثوليكية.

ويتضمن برنامج الدار الجديدة، نشرة شهرية تحتوي على فهرس الكتب الصادرة في العربية بالعالم العربي، مع نقد وتعليق وتعريف بأهمها، بالإضافة إلى أخبار النشر والتأليف في العالم، لتكون صلة الوصل بين المؤلف والقارئ ودور النشر. وستتبنى الدار من حيث معاملة المؤلف، كل القوانين التي تكفل ضمان حقوقه، وهي المتبعة في دور النشر الغربية.

الحياة بعد شهر على انقلاب البعث في سورية:

اعتقال وزير أوقاف خالف الأوامر العرفية... مشاجرة مع "انفصاليين" في قرية برزة... وارتفاع سعر الدولار إلى أربع ليرات وعشرة قروش

حسني الصواف

صلاح الدين البيطار

يوسف مزاحم

دمشق – واع: 1963/4/10

* أفرجت سلطات الأمن في سورية، عن السيد يوسف مزاحم وزير الأوقاف في عهد الوحدة مع مصر و30 شخصا آخرين اعتقلوا معه مساء السبت الماضي في أحد منازل حي الميدان الدمشقي، مخالفين بذلك أمراً عرفياً يحظر التجمعات العامة لأكثر من خمسة أشخاص.

* ذكر مصدر مأذون في قيادة قوى الأمن الداخلي هنا، أنه جرى اعتقال عدد من الأشخاص يوم أمس الأول، في قرية برزة القريبة من دمشق، أثناء مشاجرة وقعت بين فريقين من أهل القرية. وقال المصدر إن المشاجرة وقعت عندما حاول بعض من وصفهم بـ"الانفصاليين" منع فريق من الأهالي من نصب معالم الزينة احتفالا بمرور شهر على ثورة الثامن من آذار.

* سجلت العملات الأجنبية ارتفاعاً في الأسواق الحرة، فبلغ سعر الدولار 410 قروش، مقابلا 380 قرشا في الشهر الماضي، [أي قبل وقوع انقلاب البعث] والجنيه الاسترليني 1,140 قرشاً مقابل 1,70 قرشاً، والليرة اللبنانية 130 قرشاً مقابل 115 قرشاً. وصرح السيد حسني الصواف حاكم مصرف سورية المركزي، بأن هذا الارتفاع ناتج عن تصرف شخصي يقوم به بعض المواطنين بشرائهم العملات الأجنبية، وأكد السيد الصواف إثر مقابلته للسيد صلاح الدين البيطار رئيس الوزراء، والسيد عبد الكريم زهور وزير الاقتصاد أن الوضع المالي في سورية سليم، ولا يوجد أدني خوف عليه.

وقال إن المصرف المركزي يغطي 85 بالمئة من أصل الطلبات التي تقدم إليه للحصول على القطع الأجنبي لعمليات الاستيراد والتصدير الضرورية، كما أنه يمنح القطع الأجنبي للسوريين الذين يغادرون البلاد بقصد السياحة.

مذكرات البرازي

تفضح مؤامرة بيع فلسطين

بيروت – لمراسل الجزيره الخاص – علمت ان احدي الصحف المحلية الكبرى قد تمكنت من شراء مذكرات المرحوم الدكتور محسن البرازي رئيس وزارة المرحوم حسني الزعيم ورفيقه في تحمل التبعات، والمفهوم ان هذه المذكرات تحتوى على معلومات خطيرة عن المشكلة الفلسطينية وموقف الحكومات العربية منها وهي تميط اللثام عن المؤامرة الاستعمارية على فلسطين العربية ومساهمة بعض رؤساء الحكومات العربية فيها. والمعتقد انه لن تسمح السلطات اللبنانية بنشر هذه المذكرات لانها تمس شخصيات رفيعة المقام.

جريدة (الجزيرة) العدد (1770) 1952/1/28

إذاعة القاهرة تسمح ببث أغنية نجاة ونزار قباني مجدداً

جريدة [فلسطين] المقدسية 1963/4/10

عادت إذاعة القاهرة ابتداء من ليلة أمس إلى إذاعة قصيدة (العودة) للشاعر السوري نزار قباني، التي تؤديها المطربة نجاة الصغيرة من ألحان الموسيقار محمد عبد الوهاب، والتي تعرف أيضا باسم "أيظن" وكانت إذاعة القاهرة قد أوقفت إذاعة القصيدة خلال فترة الانفصال، لأن كلماتها جرى إسقاطها بشكل رمزي على الحالة السياسية بين مصر وسورية التي أوجدها

نجاة ونزار

الانفصال... ومطلعها:

أيظن أني لعبة بيديه..أنا لا أفكّر بالرجوع إليه
اليوم عاد وكأن شيئا لم يكن وبراءة الأطفال في عينيه

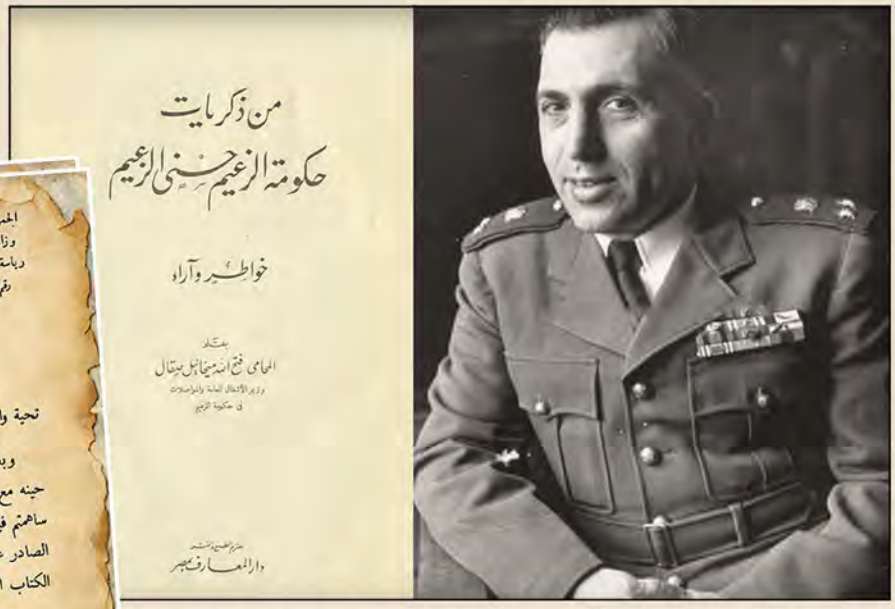

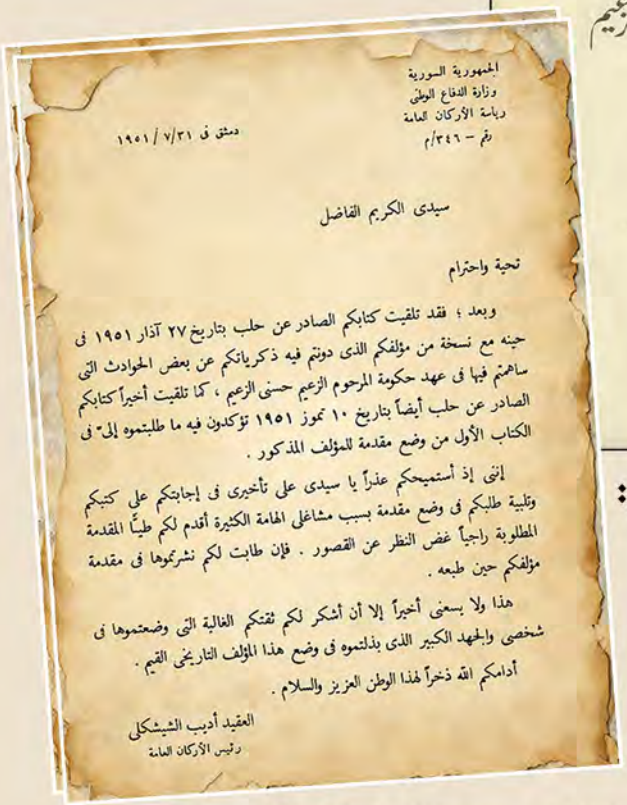
الجمهورية السورية
وزارة الدفاع الوطني
رياسة الأركان العامة
رقم – ٣٤٦/م

دمشق في ٣١/٧/١٩٥١

سيدي الكريم الفاضل

تحية واحترام

وبعد ؛ فقد تلقيت كتابكم الصادر عن حلب بتاريخ ٢٧ آذار ١٩٥١ في حينه مع نسخة من مؤلفكم الذي دونتم فيه ذكرياتكم عن بعض الحوادث التي ساهمتم فيها في عهد حكومة المرحوم الزعيم حسني الزعيم ، كما تلقيت أخيراً كتابكم الصادر عن حلب أيضاً بتاريخ ١٠ تموز ١٩٥١ تؤكدون فيه ما طلبتموه إليّ في الكتاب الأول من وضع مقدمة للمؤلف المذكور .

إنني إذ أستميحكم عذراً يا سيدي على تأخيري في إجابتكم على كتبكم وتلبية طلبكم في وضع مقدمة بسبب مشاغلي الهامة الكثيرة أقدم لكم طيّاً المقدمة المطلوبة راجياً غض النظر عن القصور . فإن طابت لكم نشرتموها في مقدمة مؤلفكم حين طبعه .

هذا ولا يسعني أخيراً إلا أن أشكر لكم ثقتكم الغالية التي وضعتموها في شخصي وبالجهد الكبير الذي بذلتموه في وضع هذا المؤلف التاريخي القيم .

أدامكم الله ذخراً لهذا الوطن العزيز والسلام .

العقيد أديب الشيشكلي
رئيس الأركان العامة

اعترف بثقل المهمة وبأن الخُلُق العسكري لا يُحسِن التلطف والترضي:

مقدمة أديب الشيشكلي لمذكرات فتح الله الصقّال

بعث إلي معالي الأستاذ فتح الله صقال بذكرياته عن الأعمال التي اضطلع بها ناهضاً ماضياً نشيطاً في عهد حكومة المرحوم حسني الزعيم وقد اختير فيها وزيراً للأشغال. وأشفعها بكتاب من عنده يقول فيه إنه حريص على أن أقدم هذه الذكريات بكلمة مني.

ولعل الأستاذ يعلم أني لا أستطيع القيام بهذا العبء الثقيل لأني لم أمارس صناعة الأدب، وإعداد المقدمات لتُفتتح بها الكتب والذكريات.

وقد أكون راضياً عن ذلك العهد معجباً به، أو متنكراً له ساخطاً عليه، ويسوؤني أن يتأذّى صاحب الذكريات إذا لم يجد لخواطره الصدى الذي يرجوه فيما أتحدث به، خاصة والخُلق العسكري لا يُحسن التلطف والترّضي... وناهيكم بما يتبع مقدمتي من جدل طويل وتفسير متضارب.

على أن الصلة المتينة التي كانت بيني وبين المرحوم الزعيم حسني الزعيم، وإعدادي معه الانقلاب الذي قام به، حببّا إليّ هذا التكليف الذي أثار في نفسي خواطر كثيرة دفعتني للكتابة. وأخرى لا بد لي منها، هو أني لا أطمع في مقدمتي هذه أن أصور للقارئ الذي كانت تعانيه البلاد في محاسنه ومساوئه قبل وقوع الانقلاب، لأن ذلك يستدعي البحث المفصّل والدرس العميق، وأنا لست هنا المؤرخ المجرّب ليظفر الناس مني بما يحبون من التمحيص والاستقصاء.

إلا أن الحق الذي لا شك فيه، والذي أستطيع أن أصدر حكمي عليه عن شعور صادق، هو أن شعبنا على اختلاف نزعاته وتباين أحزابه وهيئاته، كان بعد الجلاء حريصاً كل الحرص على إنهاض وطنه وإعزازه ودفعه مراحل ومراحل في طريق المجد السريع... ولكن الواقع كان يخيّب في كل يوم أمله... ويكّذب رجاءه؛ فلم يجد في استقلاله الغالي مضطربا للعزائم ولا متنفساً للآمال.

ثم كانت محنة فلسطين، أندلس القرن العشرين، فزاد القلق واشتد اليأس وعم الحزن، واعتقد الشعب أن الذين يسوسونه غير قادرين على تعجّل الإصلاح، والاستعداد للخطر الداهم، وتحقيق ما تصبو إليه أمة ناهضة. فأخذ يتلمس الطريق الذي يستعين به على تبديل خوفه أمناً، وضيقه سعة، وعنائه راحة، ويأسه أملاً وبلسماً. وقد لمسنا ذلك نحن طائفة من العسكريين ففكرنا طويلا، ووجدنا بعد الدراسة العميقة أنه بغير انقلاب لا يصلح الأمر، وكم كنا نود ان نحاذر هذا المركب الشائك، ولكن المريض كانت قد أنهكته العلة، وليس في مقدور أحد .

غير الجيش إيجاد المخرج والتماس الشفاء للنهوض المنشود بالبلاد وكان ما كان، وولينا علينا المرحوم الزعيم رئيس الأركان العامة آنذاك، وأولياه

ثقتنا. والناس جميعاً يذكرون أنه سلك في حكمه طريق الرشاد، واختط سياسة حازمة عادلة نشرت الأمن والاستقرار. وأعطى البلاد بعد قليل وجهاً خارجياً ثابتاً انتظم معه للأداة الحكومية جانباها الإداري والسياسي. فتقاصرت شفاعة الشفعاء وتقلصت حظوة المختارين وزعماء الأحياء، ووقعت في النفس مهابة الحكم، وجاد أثرياء الحرب بأموالهم وأخرج من أخرج من الموظفين وكانوا أكثرهم لا يتناهون عن منكر، ولم تعد الوظيفة مأوى للعجزة الذين لا يحسنون إنتاجاً ولا يقدرون على الاضطلاع بعمل من أعمال الدولة.

فاستقامت الأمور وشهد بذلك خصوم المرحوم من السياسيين.ولكن المنصب الجديد، ما لبث أن بدّل أخلاقه وأفسد برنامجه، فطمع أن يسخّر قوى الدولة لطماح نفسه ونفاذ حكمه، فأبعد عنه المخلصين للوطن من أعوانه... وعندما عاجله القدر المحتوم، تغمدّه الله برحمته وتجاوز عن خطيئاته.

وأبعد ما يكون عني، أن أكون فيما كتبت قصدت مشايعة لون من ألوان الحكم، أو مهاجمة شخص، أو نقد عهد. وإنه ليسوؤني أن تُفهم آرائي على هذا النحو. وكل ما قتله لا يعدو المشاعر الشخصية والانطباعات الخاصة، ولست أدري أحق هذا أم باطل، وإنما الذي لا يقبل الشك أني في تصوري قد استمسكتُ جهدي بالنزاهة، وسموت قدرتي على التحيز.

وأغتنمها فرصة لأشكر لمعالي الأستاذ الصقال جهده المبارك ووفاءه الكبير، والسلام.

العقيد أديب الشيشكلي
دمشق في 1951/7/31

لعبة الأيام

الشيشكلي إن حكى

د. محيي الدين اللاذقاني

إذا كان هناك أستاذ حقيقي للمقبور بالقرداحة في طريقة إدارة دفة الحكم الانقلابي في بلد متعدد الطوائف، والأعراق والشخصيات النرجسية، فهو العقيد أديب الشيشكلي، فالمقبور حين عيّن أحمد الخطيب رئيساً للدولة، ريثما ينظم الاستيلاء عليها بالكامل، كان يقلد حرفياً سلفه الشيشكلي، حين أمسك بمقاليد الأمور كلها، وعيّن فوزي السلو رئيساً للدولة، لكن لعبته -آنذاك- لم تستمر طويلاً، كما استمرت مع المقبور؛ لأن رجالات السياسة في عهده، لم يكونوا يبيعون وطنيتهم ومسؤوليتهم بمنصب، أو رشوة فلوس، كما صار عليه الحال في زمن الزعبي، وطلاس، وخدام، وغيرهم من خدم العصابة الأسدية الذين ساعدوا سفاحها، ونغله في العمالة والفساد حتى دمروها.

وقد يكون الشيشكلي معلّماً في السياسة كمواطنه، وابن مدينته أكرم الحوراني، لكنه لم يكن على حد علمي كاتباً حاذقاً، يتجرأ أن يكتب مقدمة لكتاب عن حكومة رجل كان صديقه، ثم انقلب عليه وشارك في إعدامه، لكنه والحق يُقال فعل ذلك بإتقان، ولغة سليمة وحرفية – بل وحُسن تهرب - وهو يقدم لكتاب فتح الله الصقّال عن ذكريات حكومة حسني الزعيم، وكان من الذكاء، بحيث اختصر، ولم يتكلم عن المثالب المعروفة، واكتفى بالقول إن الزعيم كان وطنياً مخلصاً لبلده، لكن غيّره المنصب، وأفسدته السلطة "ولكن المنصب الجديد ما لبث أن بدّل أخلاقه، وأفسد برنامجه، فطمع أن يُسخّر قوى الدولة لطماح نفسه، ونفاذ حكمه..".

وقبل هذه المقدمة القصيرة، لم نكن نعرف عن بلاغته غير خطاب استقالته من رئاسة الجمهورية، الذي يجب أن يحفظه كل سوري عن ظهر قلب؛ لأن موقفه في وجه الأزمات الداخلية كان على النقيض من موقف السفاح ونغله: "رغبة مني في تجنّب سفك دماء الشعب الذي أحب، والجيش الذي ضحيت بكل غالٍ من أجله، والأمة العربية التي حاولت خدمتها بإخلاص وصدق، أتقدّم باستقالتي من رئاسة الجمهورية إلى الشعب السوري المحبوب.." ولم يكن كاتب ذكريات حكومة حسني الزعيم أقل وطنية من الرئيس، الذي رفض سفك دماء شعبه، وجنّبه حرباً أهلية، فالكاتب فتح الله الصقّال، هو ذاته المحامي الذي أنقذ إبراهيم هنانو من حبل المشنقة، حين حاكمه الفرنسيون بسبع تهم، بينها القتل العمد لمختار بلدة "إسقاط" الإدلبية، التي سمّت نفسها مشكورة بعد الثورة "إسقاط النظام".

ولمن لم يسمع بتلك القصة من الجيل الجديد، فمختار تلك القرية الصغيرة، هو الذي وشى بإبراهيم هنانو ورفاقه

لعبة الأيام

الشيشكلي إن حكى

الثوّار للحامية الفرنسية في حارم، فلما داهمتهم وقاوموها، وقتلوا رئيس الحامية وبعض جنوده، وجدوا رسالة المختار الواشي في جيب رئيس الحامية الفرنسية، فاقتصّوا منه فوراً بمحكمة ميدانية وأعدموه، وهذا ما قصّر به أحفادهم ثوار الثورة السورية، الذين تكاثر الوشاة والضفادع بينهم، وكان يجب حسم أمرهم مع المتسلقين والانتهازيين من البدايات، قبل أن تستفحل الظاهرة.

وقد قال يومها الصقال الحلبي، الذي ما يزال بيته قائماً في حلب، عند مدخل حي السبيل، بجانب الفرنسيسكان لقضاة هنانو الفرنسيين، وكلهم من العسكريين: إن الوطنية لا تقتصر عليكم، فما قام به هنانو ورفاقه هو الدفاع عن بلدهم في وجه المحتلين الأجانب، وهو عين ما قام به قومكم من الفلاحين الفرنسيين، حين احتل الألمان جزءاً من فرنسا، أثناء الحرب العالمية الأولى.

وعودة إلى المذكرات التي قدّم لها الشيشكلي، وهي بيت القصيد، يمكن القول إن حسني الزعيم حرامي غسيل، عبر بالسلطة لشهور قليلة، فمواقفه السياسية لم تكن فوق الشبهات، وعمالته توضّحت من أول اتفاقيتين، وقعهما بعد انقلابه، وهي اتفاقية الهدنة مع إسرائيل التي رفضت توقيعها الحكومات السابقة، واتفاقية خطوط التابلاين مع شركة أرامكو النفطية، وكان معروفاً أن السعودية هي التي تدعمه، وأما خلفه سامي الحناوي، فقد كان "مستجد سياسة"، تلاعبت به زوجته، وشقيقتها زوجة عديله، وساعده الأيمن أسعد طلس.

أمّا الشيشكلي، فكان كفتح الله الصقال من طينة أكثر وطنية، لكنها تحمل داخلها قناعة بأن ما تفعله هو لخدمة الوطن، فالشيشكلي لم يقم في الواقع بانقلاب واحد، بل بثلاثة انقلابات متتالية؛ لأنه كان شريكاً لحسني الزعيم بانقلابه، وكان مساعداً للحناوي في انقلابه على الزعيم، قبل أن يقوم بالانقلاب الثالث لحسابه الخاص، بمساعدة أكرم الحوراني المهندس السياسي للانقلابات العسكرية، وفي كل هذه الانقلابات، كان هو ومن حوله يحرصون على القول بأن ما يقومون به هو خدمة للوطن، لكن معظمهم كان يُصاب بمرض حسني الزعيم الذي شرحه، وبيّن أسبابه الشيشكلي في مقدمته لكتاب الصقال.

كان الشيشكلي كفتح الله الصقال من طينة أكثر وطنية لكنها تحمل داخلها قناعة بأن ما تفعله هو لخدمة الوطن، فالشيشكلي لم يقم بانقلاب واحد، بل بثلاثة انقلابات متتالية وكان هو ومن حوله يحرصون على القول بأن ما يقومون به هو خدمة للوطن

لقد كان للشيشكلي شقيق في الحزب القومي السوري الاجتماعي؛ لذا ينسبون له بعض أخطاء ذلك الحزب، لكنه كان أقرب للعروبيين ومحسوباً على التيار القومي، الذي كان يقاوم بشراسة مؤامرات حلف بغداد، وما أزمة السويداء التي أفسدت فترة حكمه، وقادت للانقلاب عليه إلا من صنع ذلك الحلف، فقد أدخل الهاشميون من الأردن، بمساعدة نوري السعيد في العراق أسلحة إلى محافظة السويداء للانقلاب عليه، وتوقيع معاهدة اتفاق اتحاد فيدرالي بين العراق وسوريا، فلما انكشفت الخطة، وصودرت بعض مخازن الأسلحة بالمحافظة القريبة من دمشق، قام الشيشكلي بقصف السويداء بالطيران، فانقلب عليه الجميع، واضطر للاستقالة، وخرج من البلد تحت جنح الليل، مع أن القوة العسكرية كانت بيده، وكان قادراً على إفشال انقلاب مصطفى حمدون، كما يقول الضباط من أنصاره.

ومع أن انقلاب حمدون حدث في حلب، فإن أزمة السويداء هي التي أخرجت أديب الشيشكلي من الحكم مستقيلاً، تحت ضغط الشارع السياسي، ليموت بعد عشر سنوات في البرازيل برصاصة من نايف غزالة أحد أبنائها، ولعل التاريخ يعيد نفسه، ويكون حراك السويداء الحالي هو الذي سيخرج بشار الكيماوي من المعادلة السياسية السورية، بعد أن أدى واجبه كاملاً ليرضي مشغليه، ويدمّر على طريقة إجرام أبيه مستقبل ثلاثة أجيال من السوريين الذين لن تقوم لهم قائمة، ما لم يتخلصوا من وريث آخر الانقلابيين في التاريخ السوري الحديث.

د. محيي الدين اللاذقاني

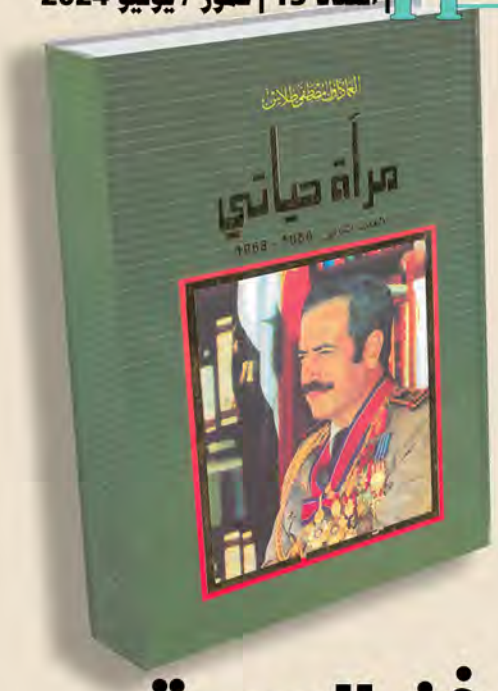

كفاح عربي
غادة السمان
مصطفى طلاس: تجد يد فن السيرة

غادة السمان تكتب قبل 27 عاماً:

مصطفى طلاس تجديد فن السيرة

-1-

* شعرت أنني سيد هذا الكوكب الأرضي مادام قلب لمياء يخفق بحبي. كنت أتصور نفسي نجماً من النجوم يسير حالما عبر إحدى المجرات منطلقا إلى اللانهاية... كان في جسدها "كشلح" زنبق، وفي نفسها كباقة بنفسج، وفي جميعها مؤهلة لعناق قوس قزح... وتمر فأتبعها كالظل شارداً عنها ومنشغلاً فيها، كالطفل تماماً لا يفارق، ولكن ولا أخف!

* استقبلتني بقميص نومها الأحمر الناري. ورغم أنني من برج الثور وإن اللون الأحمر يطير صوابي، إلا أنني تماسكتُ ولم أفعل شيئا سوى أن ضغطت على يدها ساعة الوداع... "وما كل من يهوى يَعف إذا خلا".

* عندما استدارت لتنعطف صاعدة، تابعتها بنظراتي التي لا تخطئ، فوجدت الله سبحانه وتعالى قد أكمل صنعته في استدارة الأرداف، لكأنما خلقها مباشرة بعد سفر التكوين... أما الشعر الغجري فيأخذك مرغماً إلى عوالم أخرى لا يحلم بها أنس ولا جان".

-2-

تلك السطور التي تتوهج شعراً، لم يكتبها روائي محترف، أو شاعر متفرغ لأبجديته، بل سطّرها وزير دفاع عربي هو العماد أول مصطفى طلاس في مذكراته "مرآة حياتي" التي تكرم بإهدائي إياها، وقد اخترتها لكم في معرض القول بأن المذكرات على درجة عالية من الجمال الأدبي والحس الشعري. ستتساءلون: ما الصلة بين "وزارة الدفاع" و"وزارة الشعر"؟

الصلة حميمية وقديمة، والعماد أبو فراس طلاس يُحيي في مذكراته تراثاً عربياً عريقاً، هو اقتران الحماسة والقتال بالشعر عندنا منذ قديم تاريخنا. وهذه الصلة بين وزارة الحربية ووزارة الأبجدية غالية على قلب العماد منذ بداياته، والذين اطلعوا على كتابه "شاعر وقصيدة – مختارات شعرية 1980" سيلحظون أن مصطفى طلاس اختار لغلاف كتابه الاستشهاد ببيتين للشاعر عنترة العبسي بالذات يقول فيهما:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني
وبيض الهند تقطر من دمي
فوددتُ تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المتبسّم

وهكذا فاقتران القتال بالشعر (وبالثغور الجميلة) هو من بعض تراثنا. ويشعر أبو فراس بالتصاق روحي بأبي فراس الحمداني، يرجع إلى زمن الفتوة، ويروي في مذكراته أنه كان في العاشرة ونيّف حين رافق والده في مهرجان ضد الانتداب قائلاً عن نفسه: " وكان شعر الفتى العبسي الصغير يقف كلما أطلق الخطيب سهماً فيه كلمة عن بني عبس، أو سل سيفاً فيه عنترة، وشعرتُ فعلا بأن أمجاد أبي الفوارس هي أمانة في أعناق أهلنا في الرستن، أو أن أكتافنا هي المسؤولة عن نقل المفاخر كي نجسدها في الحاضر.

-3-

حظيت هذه المذكرات بالكثير من الاهتمام النقدي السياسي على حساب قيمتها الأدبية. وأنا حين أتحدث عن المذكرات بمنظار أدبي وإنساني، لا أحاول أن أغمطها قيمتها السياسية التاريخية

لكنني أترك ذلك لأهل السياسة ولرضاهم بما جاء فيها، وخلافهم مع العماد ومناقشتهم له. ومن طرفي أحب التنويه بلغتها الأدبية الشعرية الراقية المنسجمة مع عشق أبي فراس الرستني للغة العربية، وهو القائل: "الذين لا تهتز قلوبهم وأعطافهم أمام سحر البيان وروعة الجمال وإبداع العقل فليعذروني" وذلك في معرض تقديمه لكتابه "شاعر وقصيدة" حين تمنى أن يكون قد منح القارئ قطرة صافية من بحر لغتنا العصماء ونفحة شذية من نفحات شعرها المبين".

وبالرغم من الجمال الإبداعي البياني لـ "مرآة حياتي" تظل مزيتها الأولى -بنظري- في تجديدها لفن كتابة المذكرات السياسية العربية، حيث يدمر طلاس "طابو" تزوير الحقيقة البشرية بجرأة عفوية شهية. إذن القيمة الفنية لمذكرات طلاس تكمن أولا في حقل تطوير كتابة المذكرات العربية عامة والسياسية خاصة، بصدقه وشجاعته وابتعاده عن الزيف والمواعظ، فسيرته أقرب إلى نص أدبي مشوق حقاً، منها إلى أمثولة ومحاضرة مضجرة.

وهكذا تمتاز هذه المذكرات بالصدق الفني والجمال اللغوي والإشارات التراثية والطرائف، والحكايا الشعبية والأساطير المحلية والنوادر، وتزخر باللمسات الإنسانية وتتوهج بروح الدعابة وخفة الظل والظرف، والاستشهادات الشعرية إلى جانب "شيطنة" شاعر بريء كطفل يتحدث بعفوية حتى عن نساء الفناء الخلفي للقلب.

على النقيض من كاتب المذكرات السياسية العربية المعتاد، الذي يرتدي غالباً مجموعة لابأس بها من الأقنعة، وفي مقدمتها قناع الرجل الذي لا يخدش

بالرغم من الجمال الإبداعي البياني لـ "مرآة حياتي" تظل مزيتها الأولى -بنظري- في تجديدها لفن كتابة المذكرات السياسية العربية، حيث يدمر طلاس "طابو" تزوير الحقيقة البشرية بجرأة عفوية (!!!)

كريستال قلبه مرور هدب جارح لعين جميلة، كما لو أن الاعتراف بهذا الجزء الجميل الحميم من الحياة يسيء إلى المكانة السياسية لصاحبه.

والحق يقال أنني لست وحدي من أضحى يضيق بالرياء الاجتماعي، بل إن الناس كلهم في زماننا تعبوا من الزيف الذي يكلل هامة معظم المذكرات السياسية المحنطة، التي ترى عبرها المؤلف مومياء ملفوفة بخرق "الأصول" التقليدية، بدلا من إنسان حي يعمل ويكافح ويناضل، وله قلب يرتعش أيضاً (ياللهول)!

وقد نشرت صحيفة (الشرق الأوسط) مؤخراً مذكرات كاتب عربي كبير، فبعث أحد القراء برسالة يبدي فيها إعجابه بالمذكرات، واستياءه المدهوش لأن هذا الأديب لم يذكر أنثى في مذكراته – كما لو كانت رجساً من عمل الشيطان – وهذا الاعتراض العفوي هو لسان حال ملايين العرب الذي يعيشون على مشارف القرن الواحد والعشرين، ويعرفون ان الأطفال لا ينبتون داخل "الملفوفة" ولكن ما حيلتنا مع زمان صار فيه السياسيون يكتبون بجرأة تفوق جرأة الأدباء، والدليل في الدكتور غازي القصيبي وروايته (العصفورية) والعماد مصطفى طلاس ومذكراته وسواهما.

-4-

بكثير من الرهافة تحدث العماد طلاس عن نساء عمره، فنجده حفيداً وفياً للشعراء العرب الذين كانوا يشببون بحسناوات القبيلة، لكن أبو فراس الرستني أعف لساناً وأكثر ستراً للمثالب. وهكذا فإنه لم يجرد نفسه في مذكراته من إنسانيته، لكنه أيضاً لم يسء إلى أحد، وقام بصدقه وجرأته بنقلة أدبية نوعية في فن كتابة المذكرات عامة، والسياسي "الملتزم" منها بالذات، فثمة نظرة عربية (نضالية) هزلية شائعة، تتوهم أن كشف حكاية حب لبطل ما إساءة له، وأنه لا مكان في القلب الثوري للحب. والإساءة الحقيقية هي في هذه النظرة بالذات لأنها تسيء في نظري إلى فكرة النضال و"تسطحها" فالمناضل إنسان يفيض حباً نحو الكون المثالي والجمالي، ولم يزرع له أحد قلباً من الحجر، والصورة اللا إنسانية التي تقدمها لنا الأدبيات "الوطنجيات" لشخصية المناضل جعلته بعيدا عن المصداقية، وخارج مرمى الود والتعاطف، ومضجراً لا ينطق إلا بالمحاضرات الطنانة، والرطانات الطبلية والكليشيهات المعلّبة، كأنها تمثال برونزي عليك تقديسه، في وثنية أدبية بغيضة وجاهلية جبانة.

والعماد يتحدى بصدقه لعبة الأقنعة، ويربح رهان "أنسنة المناضل" وفي كتابه صورة حية محببة لجانب إنساني يغيب عادة عن كتب المذكرات السياسية المتبجحة والمتجهمة مثل جلسة "إخدان الخاطر"! والفترة التي تغطيها المذكرات (1948- 1968) في جزئيها، على طول وعرض 1642 صفحة من القطع الكبير، زاخرة بالعيون والقامات

والحسناوات... ربما لضرورة الشعر أيضاً.

فالقارئ يشعر معظم الوقت أن حباً كبيراً وهاجساً واحداً يحتل حياة المؤلف، تجسده رفيقة عمره لمياء الجابري، التي تبدو معه على غلاف الكتاب في صورة تتوهج فيها جمالا وسحراً وبراءة.

فجمال الصورة لدى النساء يجذب الشاعر في أبي فراس الرستني، لكن ما كان يهزه في العمق هو الجمال المقترن بجمال الروح وجمال الفكر، كما لدى زوجته لمياء التي يلقبها بـ"ربة الوجه الصبوح والعيون التي تذيب القلوب".

وقلائل اليوم يعرفون أن لمياء الجابري هي من أوائل الكتاب العرب الذين التفتوا إلى أهمية أدب المقاومة في الأرض المحتلة عامة، وشعر محمود درويش خاصة. ولعلها أول من اهتم بإصدار كتاب يذكرنا بذلك، ويخص درويش بالرعاية حين لم نكن بعد قد سمعنا به. وسبقت بذلك سواها كما سبقت الشعراء في تلخيص ماهية الحب في عبارة سطرتها للعماد أيام خطبتهما على الوجه الثاني لصورتها وتقول فيها: أنا لمياء... أنا كل شيء أو لا شيء.

وبعد، مذكرات العماد طلاس نص أدبي جميل يبين كيفية كتابة 1642 صفحة في جزئين يسأل القارئ بعد مطالعتهما: متى يصدر الجزء الثالث؟

1997/1/27

مجلة (الحوادث) العدد (2102) 1997/2/20

لعبة الأيام

غادة السمان تتمكيج أمام مرآة مصطفى طلاس

خضر الآغا

قد تكون الكاتبة السورية الشهيرة غادة السمان تفوقت، بالفعل، على كبار مدّاحي السلاطين في تاريخ العرب، حين ربطت بين ظاهرة الشاعر-الفارس العربي، مثل عنترة بن شداد وأبي فراس الحمْداني من جانب، والعماد أول مصطفى طلاس (وزير الدفاع السوري 1972 – 2004) من جانب آخر! فقد اعتبرت في مقالها المنشور في مجلة الحوادث عام 1997، أن الصلة بين "وزارة الدفاع"، و"وزارة الشِعر" حميمة وقديمة، وأن "أبا فراس طلاس يشعر بالتصاق روحي بأبي فراس الحمداني منذ زمن الفتوة" (كذا!)! ذلك أن "اقتران القتال بالشعر هو من بعض تراثنا"، كما قالت.

نحن نعرف أن عنترة كان فارساً عظيماً، والتاريخ يشهد على صولاته وجولاته في ميادين القتال، وأنه في غمرة ذلك، قال شِعراً لم نزل نتذكره، ونقرؤه، ونُعجب به، وكذلك الأمر، بما يتعلق بأبي فراس الحمداني الذي سُجن، وهو يقاتل، وقال في سجنه شِعراً، لا يمكن للذاكرة العربية أن تنساه! فأن يرتبط الأدب بالفروسية معهما ومع أمثالهما، فذلك من بداهات الأمور، أمّا أن يرتبط ذلك بمصطفى طلاس؟ نحن كسوريين وكغير سوريين أيضاً، نعرف كما نعرف أسماءنا، أنه لم يستّل سيفاً، ولم يُشهر مسدساً قط، إلا في وجه خصوم حافظ الأسد، وخصوم الحركة التصحيحية، وخصوم النظام السوري، فقد قال في إحدى مقابلاته: إنه "حافظ على نظام الأسد طوال أربعين عاماً"، واعترف أنهم "وصلوا إلى السلطة بالبندقية، ومن يرد انتزاعها منهم، عليه أن يمتلك بندقية أكبر!"، فما الشيء الذي حدا بغادة السمان أن تربط بينه، وبين عنترة وأبي فراس الحمداني، وذلك النسق من الشعراء- الفرسان؟ لا يمكن تفسير ذلك، إلا بوصولها إلى حالة عليا من التزلف والتقرب من السلطة والنفاق! ذلك أن مذكرات "مرآة حياتي" هي حرفياً مذكرات السلطة، ومذكرات حافظ الأسد في حفاظه عليها بالجبروت والقتل. هي مذكرات تزييف التاريخ والحاضر علنياً، وعلى عينك يا تاجر! وأظن أن السمّان تعرف ذلك جيداً، ذلك أن هذا النوع من المعرفة لا يحتاج إلى بحوث واستقصاءات، بل هو واضح في يوميات السوريين، منذ حكم البعث ومنذ انقلاب الحركة التصحيحية، إلا أن "طبع النفاق" لدى السمّان أعلى من "طبع الحقيقة" بكثير.

الأنكى من ذلك كله، أنها تقول إن المزية الأولى لـ "مرآة حياتي"، هي "في تجديدها لفن كتابة المذكرات السياسية العربية، حيث "يدمّر طلاس تابو تزوير الحقيقة البشرية بجرأة عفوية شهية"، و"بابتعاده عن الزيف"! وإنها "تمتاز بالصدق الفني والجمال اللغوي... وتزخر باللمسات الإنسانية..."!

والحقيقة، إن مثل تلك الصفات، لا يمكن أن تُطلق حتى على الجاحظ والتوحيدي وآباء الكتابة العربية، إلا بمزيد من الأدلة والحذر، فأخلاقيات المعرفة، وقبل ذلك أخلاقيات الإنسان، تتعارض مع مثل هذا الكذب الصريح والتزلف اللامحدود.

تورد السمان جملة للعماد أول حول علاقته بالنساء، إذ يقول: "استقبلتني بقميص نومها الأحمر الناري، ورغم أنني من برج الثور، وأن اللون الأحمر يطيّر صوابي، إلا أنني تماسكت ولم أفعل سوى أن ضغطت على يدها ساعة الوداع"، وتعتبرها مثالاً على أخلاق الفارس، حيث "ما كّل من يهوى يعفّ إذا خلا...". وفي الحقيقة، فإنني أعتقد أن كل شخص في هذه الدنيا، سمع الحادثة ذاتها من أكثر من شخص، وقد سمعتها شخصياً من أكثر من ثلاثة شعراء، واثنين من معارف أبي أيام الشباب، حيث إن امرأة ساحرة الجمال أدخلت الواحد منهم إلى غرفة نومها بقميص نومها الأحمر الشفاف، ودعته إلى السرير، إلا أنه العفّة صرخت، فغادر ولم يفعل سوى أن "ضغط على يدها مودّعاً"!

أروع الحوادث التي عرضت له في وطنه وغربته:

مذكرات محمد كرد علي: مذكرات خالدة

بقلم: وداد سكاكيني

أدب المذكرات عريق في ثقافة الأمم، فلقد عرفته الإنسانية المتأدبة منذ القديم. وما آثار "نيت ليف" و"تاسيت" ولا خواطر "كسينوفان" و"أريستوفان" إلا مذكرات فيها كثير مما عاين هؤلاء المفكرون وما تمرسوا به من شؤون وشجون. وكتب من بعدهم أناس في دنيا الأدب العتيق أخباراً ورسائل وصفوا فيها صورا من حياتهم ومنازعهم وألوانا من معايشهم وفنونهم، لكن أحداً منهم لم يفرد للمذكرات كتاباً خاصاً، وحين هب الأدب الغربي في أرجاء أوروبا أخذ فريق من الكتاب والمفكرين يعبرون عن آرائهم وخواطرهم بأسلوب المذكرات، وقد بدت آثارهم النفيسة وميولهم الذاتية في صور اعترافات، والاعترافات أشد لصوقا بصاحبها وتبيانا من المذكرات.

حين قرأت اعترافات فتى العصر لألفريد ده موسيه، قلت كم يحلو التأدب بهذه الفِكَر الناقمة على مفاسد الحياة، والتي تبصر الناشئة بمزالق الشباب، فلما نقلها إلى العربية الخطيب الأديب المأسوف عليه "فليكس فارس"، أهدى إلى نسخة منها فقرأتها وأنا أقول: والحضارة المتهورة، هل يطلع أديب في لغتنا فيكتب لنا قصة حياته على هذا النحو الصادق في تمحيص الفلسفة الضارة والحضارة المتهورة؟ وراح فكري وراء كتاب "الأيام" الذي قصّ فيه الدكتور طه حسين ذكريات طفولته وصباه بين الريف والأزهر، فكانت هذه القصة الرائعة تأخذ مكانها في منتصف الطريق بين المذكرات والاعترافات، وكذلك "يوميات نائب في الأرياف" للأستاذ توفيق الحكيم، فقد صوّر فيها على السجية والحقيقة حياة القرية في مصر، فكان أصدق آثاره وأحسنها، ولعل الأدب في دنيا المسيحيين قد تناول هذا اللون من الشعور الديني فانتقل فيه الاعتراف من حجرة الكنيسة الضيقة إلى آفاق الحياة الواسعة، وياالروعة حدثٍ في أدب الغرب الحديث، جاء به آندريه جيد في اعترافاته

وذكرياته التي باتت أروع أدب إنساني موروث عن الحضارة الفكرية الغربية.وقد شاع هذا اللون من الأدب في آثار الأمم المعاصرة حتى رأينا كثيراً من المذكرات في الأدب وفي السياسة، لرجال ونساء.

وإذا انتقلت إلى أدب المذكرات عند العرب، وجدت أدبنا لم يكن خلواً منها، فإن طائفة من الرواة الأدباء القدامى، كانوا يعرفون بالإخباريين، وهل كان أدبهم في جملته إلا مذكرات عما عالجوا وعاينوا في حياتهم، وهذا أبو عثمان الجاحظ حشر في كتبه كثيرا من الذكريات في كل ما عرض له ورآه، فهو حينا يصور مزاجه في الصحة والمرض، وآونة يعبر عن خواطره وأطواره فيما اتفق له مع العلماء والكبراء، ولكم قص علينا كيف كان يأكل وماذا أكل وأين سهر وبات؛ لقد عاش أوائلنا في أدبهم في حياة خافقة بأرواحهم متألقة بمواهبهم، وما فاتهم أن يقيدوا في دفاترهم جوانب من حوادثهم اليومية، ونوادر لفريق ممن عاشروهم

ومارسوهم.

ولئن سبقت مصر في نهضتها الأدبية الحديثة إلى أدب المذكرات، فشاع في آثار أعلامها، فإن علامة الشام وباعث نهضتها الفكرية الأستاذ محمد كرد علي، شاء أن يسد هذا النقص في أدبنا الجديد، بل أن ظهور مذكراته في فترة طغت فيها المادة وضاع صوت الأدب ليعد حدثاً رائعاً، وما هذه المذكرات إلا سجل كبير لحياة حافلة بالأحداث الجسام، مرت بالمراحل والعهود التي ألمت ببلاد الشام. وفي المذكرات صور لطائفة ممن عرفهم المؤلف في الشرق والغرب، وفي دنيا السياسة والصحافة، وفيها موضوعات منوعة عالجها وقيدها كما قال في روح مذكراته "ليشاركه أبناء هذا الجيل والذي يعده في الإنكار على من أضجروه بقصورهم وآلموه بغرورهم" وكان قصده منها "التحذير من دجل الدجالين والتنبيه على أحابيل المبطلين، والعمل على مكافحة الظالمين، ليعرف أن كل جيل لا يخلو من دعاة يحلو لهم الجهر بالحق مهما جشّمهم، ومن أفضل الطرق إليه ضرب السفهاء في وجوههم بعيونهم".

لقد جمع الأستاذ كرد علي في مذكراته سيرة حياته منذ كان يدلف إلى الكتّاب إلى يومه هذا، وفي خلال ذلك أروع الحوادث التي عرضت له في وطنه وغربته، في حياته العلمية والسياسية. ولعل نبوغه المبكر وامتداد صيته إلى مصر، قد ملأ عمره بهذه الصفحات الغراء من الذكرى البعيدة والقريبة. وأول ما طلع علينا من هذه المذكرات لقب مؤلفها وهو "كرد علي" فقد حيّره هذا اللقب وحير الناس في أمره، غير أنه أفضى بعنصره ولقبه إلى قارئه فقال: "جاء جدي من مدينة السليمانية من بلاد الأكراد، شمال العراق، وسكن دمشق قبل نحو مائة وخمسين سنة، وأمي شركسية من قفقاسيا، فأنا على رغم أنف من آمن وكفر من جنس آري لا يقبل النزاع، وليس للغربي ولا للشرقي ما يقول في دمي" إلى أن يقول: " ولما بدأت أكتب في الصحف كان أقصى همي أن أعود إلى اسمي الأول وإلى لقب بيتنا القديم، فأصبحت محمد كرد علي، واغتبطت أن حافظت عليه طول عمري وبه اشتهرت".

كان يصحب أمه إلى أسرة بزقاق النارنجة في حي القيمرية بدمشق، فيقع نظره لأول مرة على رفوف مصفوف عليها المجلدات، فيشهق متعجباً ويقول لأمه: أنا أحب أن أتعلم هذه الصنعة!

يصف صاحب المذكرات أعذب الذكريات عن أثر الغوطة في حياته وثقافته، منذ كان يذهب إلى مزرعة أبيه في جسرين، ويمتزج بالفلاحين

وهنا لابد لي أن أرى لنسب الأستاذ كرد علي إلى العنصر الآري أثراً في نبوغه وإبداعه، وهو رأي أرسله على نحو ما أرسل سليمان البستاني سنة 1904 والأستاذ العقاد من بعده بأن تفوق ابن الرومي في الشعر وتجديده فيه كان من هذه الآرية المبدعة.

ثم يمضي الأستاذ كرد علي بقارئ مذكراته إلى ذكريات طفولته، فيا له شيخاً باعد العمر بينه وبين تلك الطفولة الذكية التي كان يصحب فيها أمه إلى أسرة بزقاق النارنجة في حي القيمرية بدمشق، فيقع نظره لأول مرة على رفوف مصفوف عليها المجلدات، فيشهق متعجباً ويسأل والدته عنها فتجيبه بأنها كتب يقرأ فيها العلماء، ويعجب الصغير هذا المنظر الطريف فيقول لأمه: أنا أحب أن أتعلم هذه الصنعة!

وشاء القدر أن يربط بعد حين برابطة العلم والأدب بين هذا الفتى النجيب وبين أكبر عالم سوري في زمانه هو الشيخ طاهر الجزائري، الذي ملأ الأستاذ كرد علي قلبه وفاء له، فوفاه حقه من الثناء والإعجاب في كثير من صفحات الكتاب، وما كان أجدره بأن يؤلف للعالم الإسلامي كتاباً عن شيخه الجزائري الذي يعد في الديار الشامية كالشيخ محمد عبده في الديار المصرية.

ويصف بعد ذلك صاحب المذكرات أعذب الذكريات عن صغره العجيب، وأثر الغوطة في حياته وثقافته، منذ كان يذهب إلى مزرعة أبيه في جسرين، ويمتزج بالفلاحين فلا يتأفف منهم ولا يتجنى عليهم، لقد نزل دوح جسرين فحنا عليه صغيرا وكبيراً، وكان هو – مد الله في حياته – وفياً للغوطة على العمر، ففي أفيائها ورياضها دوّن الأستاذ كرد علي كثيراً من ذكرياته، ولو أن هذه المذكرات جاءت بترتيب زمني وتتابع منطقي لكانت أوفى بمعناها.

وإذا كانت تآليف الأستاذ كرد علي في جبين الحياة الشامية درة لا تقدر بثمن؛ فإن مذكراته الخطيرة أروعها وأبقاها على الزمان، فإلى صاحب هذه المذكرات التي جاءت بدعاً من مؤلفات العرب في هذا العصر، بما فيها من حرية وبيان وعنافة وطرافة. إليه تحياتي على الرغم مما جار فيه على بنات جنسي مجاراةً لأعداء المرأة وظالميها، الذين ينفون عنها كل موهبة ويجردونها حتى من خصائص الطبيعة.

مجلة (المجمع العلمي العربي) يناير/كانون الثاني 1949

المذكرات وكتابة التاريخ

بقلم: زهير الشلق

كتابة المذكرات ما كانت معروفة عند المسؤولين العرب، أو عند الذين كانوا مسؤولين، وحتى أنها ما كانت معروفة عند زعماء العالم في أوروبا.

في فرنسا وفي بريطانيا وغيرها من الدول المتقدمة، كان الشاب الذي ينتمي لوزارة الخارجية في السلك الدبلوماسي يجد نفسي أمام نصيحة بقراءة مذكرات البرنس دو بولو.

وكاتب هذه المذكرات كان مستشار ألمانيا حتى عام 1913. وقد حكم ألمانيا ردحاً طويلا من الزمان منذ وفاة بسمارك. ويعتبر المؤرخون أن مذكرات هذا المستشار هي الرائدة في تاريخ كتابة المذكرات، وهي غنية بالأحداث التي انتهى بها القرن التاسع عشر، وابتدأ بها القرن العشرون (نشرت بالفرنسية عام 1930).

وكان لابد من انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى رأى العالم سيل المذكرات التي نشرها أولئك الذين ساهموا في صنع هذه الحرب. ونشير إلى مذكرات المستر تشرشل والفيلد مارشال مونتغومري والجنرال ديغول، في جملة المذكرات التي ترجمت إلى العربية... ولكنها ترجمت دون الوثائق التي ألحقت بالمذكرات. أما الذكريات التي تنشر على طريقة السرد دون نشر الوثائق المتعلقة بالأحداث، أو ما كان يسمّى بالسيرة الذاتية لبعض الزعماء أو المشاهير في السياسة والأدب والفن، فأمرها قديم.

المذكرات أو اليوميات التي كتبها صانعو الأحداث السياسية والحربية، تتعلق بتاريخ البلد الذي يكتب عنه الزعيم أو القائد، وأما الذكريات والسيرة الذاتية فهي شهادة عن العصر من التقاليد أو أحوال المجتمع، أو عن الأدب والفن، أو طرق الفشل والنجاح.

جميع هذه الكتابات من مذكرات ويوميات وذكريات بما في ذلك السير الشخصية، يعتبرها المؤرخون من المراجع التي يسندون إليها عند كتابة التاريخ لفترة ما من سيرة البلد، أو عند كتابة تاريخ الأشخاص، ومن هنا فإن هذه الكتابات تعتبر شهادة من الكاتب على ما صدر منه من تصرف بالقول أو الفعل، أو عما رآه من حوله أو عن أحوال العصر في المجالات المختلفة. ومن حيث أنها تعتبر في حقيقتها شهادة، لذلك يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار بأن الشهادة شرعاً وقانوناً تتضمن معنى القسم.

وبالعبارة الصريحة يفترض بمن يكتب مذكرات أو يوميات أو سيرة ذاتية، أن يشهد الله على أن ما يقوله هو الحقيقة كما يراها ويتصورها.

ومن هنا أيضاً، فإن مثل هذه الكتابات، سواء نشرت في الصحف أو اشتمل عليها كتاب، تأخذ نصيبها من التجريح أو التزكية، بحسب شهادة المجتمع بتقوى الكاتب... وهذا أولا. ومن وجه آخر، فإن طريقة فهم الأحداث تختلف عند الناس. مثال ذلك: السيارة التي ترتكب حادثاً، ويؤتى براكبيها إلى المحكمة ليدلي كل واحد بشهادته.... في غالب الأحيان يدلي كل واحد بشهادته بطريقة مختلفة، وكل واحد منهم صادق فيما يقول... ذلك أن كل واحد قد رأى الحادثة من زاوية مختلفة. واحد كان نظره على المدهوس وحركته في الطريق، والآخر كان نظره مركزا على السائق، وآخر كان ينظر إلى الواجهات في

في المحال التجارية على جانبي الطريق. ذكر هذه الحادثة الفيلسوف الساخر جورج برناردشو وعلق عليها بقوله: "إذا كنا نرى هذه الحادثة كل يوم... فعلينا أن نفهم كيف كتب التاريخ". وهناك أمر مهم... الذاكرة. هناك الذاكرة القوية والذاكرة العادية، وهناك الذاكرة الصورية والذاكرة السمعية. وحتى عندما يعتمد كاتب المذكرات على الوثائق، فلا بد من الاستعانة بالذاكرة. والوثائق هي محاضر الاجتماعات أو الرسائل الصادرة أو الواردة، وطبعا مما كان في وقته سرياً لا تشتمل عليه النشرات الرسمية التي تصدر عن الدولة. والذاكرة معرضة للضعف سواء من حيث الأسماء أو الأمكنة، وقد تكون قوية بالأمكنة وضعيفة في استيعاب الحوار، تبعا لكون الذاكرة صورية أو سمعية. وكل ذلك مشروط بأن يكون عمر الأحداث السياسية التي يكتب عنها صاحب المذكرات هو أكثر من ثلاثين عاماً، وهذه هي المدة المتعارف عليها للمحافظة على سرية الوثائق العادية. وبعدها تودع الوثائق في مكان معين رهن اطلاع الناس عليها، مع إعطائهم الحق بنشر أو تصوير ما يريدون منها.

-2-

في الاستراحة الماضية بدأت الكتابة عن المذكرات... وكان القصد من الكتابة هو البحث في قيمة المذكرات والكتابات الأخرى التي تدخل في هذا الباب، كاليوميات والذكريات والسير الذاتية أو ما هو بحكم المذكرات. كل ذلك من حيث أنها سند لكتابة التاريخ.

الذاكرة معرضة للضعف سواء من حيث الأسماء أو الأمكنة، وقد تكون قوية بالأمكنة وضعيفة في استيعاب الحوار تبعا لكون الذاكرة صورية أو سمعية.

إذا كان القصد أن تكتسب المذكرات مرتبة التصديق فيجب مقارنة ما جاء فيها بالوثائق المتعلقة بها التي ترفع السرية عنها!

وقد بينت أهمية وجوب الانتظار من أجل كتابتها مدة لا تقل عن ثلاثين عاماً تلي تاريخ الفترة التي يكتب عنها، إذا كان القصد هو أن تكتسب المذكرات مرتبة التصديق، وذلك لمقارنة ما جاء فيها بالوثائق المتعلقة بها، والتي تكون قد رفعت عنها صفة السرية.

طبعا يبقى القصد هو المذكرات السياسية، وأما المذكرات التي لا تراعي هذا الواقع، فلا يمكن الركون إليها كسند صحيح لكتابة التاريخ. إن الكتاب الذي تنشره "الشرق الأوسط" للمستر مايلز كوبلند "لاعب اللعبة" هو الذي جعلني أحمل الاستراحة هذا الموضوع.

هنا أحب أن أسجّل بأن كثيرا من الكتابات تأخذ حكم المذكرات حتى لو صدرت عن غير صاحب المذكرات، كأن تصدر عن المقربين من الواقفين على قمة المسؤولية، أو من قبل المشاركين في المسؤولية، وتأخذ هذه الكتابات - عادة - درجة عالية من قوة التصديق. إن أكثر الذين كتبوا عن تاريخ الفترة التي يتكلم عنها مؤلف كتاب "لاعب اللعبة" والتي هي في الواقع مذكرات شخصية تستند إلى وثائق هيئة أمريكية متخصصة... وإننا ما نزال نقرأ حتى الآن.

ومثل ذلك أحد المقربين من صاحب سلطان، كان يصارح الشعب العربي في مقالات أسبوعية، تتضمن معلومات وآراء وقراءات في الأفق العربي البعيد... وكانت تمر أيام أو أسابيع، فإذا بالقارئ يرى بأن هذه المصارحات كانت في الواقع، كتابة لتاريخ الأيام القادمة... ومن هنا فإن ما يقوله هذا الكاتب يكتسب قوة تصديقية لا حدود لها.

ومثل ذلك المذكرات التي ينشرها المشاركون في السلطة والمسؤولية، وغالبا ما يكونون من الوزراء الذين اصطلح على وصفهم بالفنيين... وهناك السفراء المعتمدون، والذين يفترض فيهم أن يكونوا مطلعين على الأسرار. هذه الكتابات اعتبرها الناس شهادات صحيحة موثوق بها...

... لأن الذين كتبوها كانوا قد أثبتوا صدقهم في استشفاف تاريخ المستقبل، أو لأنهم كانوا مسؤولين وأصحاب سلطة، ثم جاء الدارسون المختصون بكتابة التاريخ وكتبوا ونشروا، وأخذت دراساتهم بدورها مكانا في المكتبات العربية.

وهناك أطروحات أعدها دارسون جديون تحت إشراف أساتذة مشاهير، ودافعوا عن صدق محتواها أمام أساتذة محكمين، وحصل الواحد منهم لقب دكتور في العلوم السياسية أو التاريخية وما إلى ذلك، وأخذت الأطروحة وقد تكون تحمل درجة الامتياز، مكانا محترماً في مكتبات الجامعات وأصبحت بدورها مرجعاً محترماً.

والمستر مايلز كوبلاند، لاعب اللعبة، يقول كلاماً جديداً عن فترة مر عليها أكثر من ثلاثين عاماً... وواضح بأنه فوق علم السفراء المعتمدين من الدولة التي يعمل لحسابها أو حساب إحدى دوائرها، وواضح بأنه يستند إلى وثائق، ويقول بأنه لديه الصور الفوتوغرافية للاجتماعات، ويتحدى من يكذب، ويتحدى بعض الناس بالاسم.

هذا الكلام الجديد، يثير كثيرا من الشك حول التاريخ المكتوب، والذي يعتبره الشعب العربي ولا سيما في أجياله الشابة، حقيقة لا تخضع للمناقشة. يضاف إلى ذلك أن المسؤولين كانوا مشاركين في مسؤولية القرار خلال الفترة التي يكتب عنها المستر كوبلاند، كانوا قد عادوا للاعتراف بأن القرارات التي شاركوا في اتخاذها كانت حكيمة.

المستر مايلز كوبلاند، لاعب اللعبة، يقول كلاماً جديداً... وواضح بأنه فوق علم السفراء المعتمدين من الدولة التي يعمل لحسابها

* إعلان عن صدور الترجمة العربية لمذكرات الرئيس الفرنسي شارل ديغول نشر عام 1972 *

كل ذلك كان تحت عنوان "ممارسة النقد الذاتي". هؤلاء قرروا أن تعاد كتابة التاريخ لتلك الفترة ذاتها، من قبل أن يأتي كوبلاند بالجديد... وقد تم تأليف لجنة للإشراف على إعادة كتابة التاريخ، ولاشك أن هذا العمل هو عمل وطني جدي، ينفع الأجيال القادمة ويقيها الكثير من المزالق.

في أخطاء النضال العربي خلال الحرب العالمية الأولى، وقع بعض المناضلين بخطأ بسبب الجو الذي كانوا يعيشون فيه... قالوا بأن نطالب بالتحرر من نير التحكم العثماني أو الاستعمار العثماني، وأننا نريد أن تصبح البلاد العربية مستقلة. أخذ الخلفاء هذا الشعار على علاته. قالوا نفرض عليكم الانتداب كمرحلة في طريق الوصول إلى الاستقلال، ولو كان المناضلون قد رفعوا الشعور الحقيقي وهو أننا ولايات عربية داخل الإمبراطورية العثمانية المستقلة، وأننا نريد أن نعلن الانفصال عن الإمبراطورية، لأن الحزب الحاكم قد تبنى نظرية عنصرية تقول بتفوق العنصر التركي... فهل كان الحلفاء اعتبروا العربية المنسلخة عن الإمبراطورية كبلاد خاضعة للاستعمار، وأن الانتداب هو وضع متقدم؟ هذا مع العلم بأن الذين ساهموا في مؤتمر باريس عام 1913 ما وقعوا بهذا الخطأ... قالوا في مؤتمرهم: نحن ولايات عربية داخل الإمبراطورية... إن الذين نقلوا عن أخبار المؤتمر قد استعجلوا!

جريدة (الشرق الأوسط) 8/28 و9/4/ 1989

ذاكرة الكاريكاتير

كاريكاتير نشرته مجلة (الحوادث) اللبنانية بتاريخ 17 أيار/مايو 1963 بعد شهرين فقط من استيلاء البعث على السلطة في سوريا بانقلاب الثامن من آذار

أدب المذكرات والذكريات

بقلم: الأستاذ محمد عبد الغني حسن

يعلم المتصلون منا باللغات الأجنبية أن هناك كتباً كثيرة تحتويها المكتبة غير العربية تحمل في عناوينها اسماء : «المذكرات» و «الذكريات» و «اليوميات» . وهل نستطيع أن ننسى في هذا المجال كتباً مثل «مذكرات اللورد جراي» السياسي البريطاني المعروف ، و «مذكرات هندنبرج» رئيس أركان حرب الجيوش الألمانية الذي أصبح في سنة ١٩٢٥ رئيساً لجمهورية ألمانيا ، و «مذكرات اللورد سيسيل» السياسي البريطاني المشهور ، و «مذكرات سفير أمريكا في الاستانة» الذي قام بترجمته الى العربية الأستاذ فؤاد صروف ، و «مذكرات مصطفى كمال اتاتورك» الذي ترجم عن التركية . وغيرها مما لا يدركه الحصر ..

واطلاق كلمة «مذكرات» على ما يدونه المرء من الحوادث الشخصية والأحداث التي تمر به ، والتي قد يكون — في الأغلب — طرفاً بها ومشاركاً فيها — هو استعمال حديث في الانتاج الفكري عند العرب لم يعرفوه في القديم. وقد نقله المؤلفون والكتاب العرب في زماننا هذا عن الفرنجة الذين أسرفوا في اطلاقه على ما يدونون من أحداث مرت بهم ، وقد بالغ بعض المستشرقين فأطلقوا لفظ «مذكرات» على كتب لم يطلق قدماء المصنفين العرب عليها هذا الاسم . فمثلا نجد المستشرق الفرنسي أ. ل. بروفنسال ينشر في سنة ١٩٥٥ كتاب الأمير عبد الله ، أخو ملوك بني زيري بغرناطة في الأندلس ، المسمى في أصله المخطوط كتاب «التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة» ، فيسميه باسم «مذكرات الأمير عبد الله» لأن مؤلفه الأمير الأندلسي كتبه على هيئة مذكرات شخصية مرتبطة بظروف عزله ونفيه . وبالطبع لم يكن لهذا المستشرق الأستاذ بجامعة السوربون حق تغيير العنوان لكتاب يحمل عنواناً آخر ، إلا أن غرامه بكلمة (مذكرات) جعله ينحو هذا النحو .

وقد جنح بعض الكتاب والأدباء اليوم الى استعمال كلمة «ذكريات» بدلا من كلمة «مذكرات» ولعل ذلك ابعاد للذكريات عن انها دونت ساعة حدوثها أولا بأول كما يتسرب الى الظن . وهو تفريق دقيق واع بين اللفظتين . فالمفهوم من «المذكرات» أنها تدون وقت حدوث الأحداث ساعة بساعة أو يوماً بيوم ، أو شهراً بشهر . على حين أن «الذكريات» هي حصيلة ما انطبع في الذاكرة ، واخترق في الحافظة بعد مرور فترة طويلة من الزمان عليها . فقد تكتب «الذكريات» في شيخوخة العمر مع أنها أحاديث عن طفولة العمر ومن هنا نجد أن بعض أدبائنا اليوم يستعمل كلمة «ذكريات» بدلا من «مذكرات» . كما يفعل الآن الأستاذ فتحي رضوان في «ذكرياته» التي ينشرها في مجلة الثقافة المصرية تحت عنوان «ذكريات الصبا» وكما يفعل الناقد الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي فيما ينشره اليوم بعنوان «ذكريات أديب» وكما يفعل الأستاذ عباس خضر فيما يكتبه وينشره تحت عنوان «ذكرياتي الأدبية» .

ويبدو أن كلمة «يوميات» وهي ترجمة أيضاً عن الآداب الأجنبية قد لقيت بعض القبول عند بعض أدبائنا المعاصرين ، فقد لجأ اليها توفيق الحكيم في كتابه المشهور : «يوميات نائب في الأرياف» . كما لجأ اليها عباس محمود العقاد فيما كان ينشره من لمحات وتعليقات وخواطر في بعض الصحف تحت عنوان «يوميات» وقد صدرت أخيراً هذه اليوميات في ثلاثة أجزاء .

واذا كانت يوميات توفيق الحكيم تعني الحدوث في زمن معين ، فان يوميات العقاد ليس لها من الزمن إلا أنها نشرت في أيام متقاربة أو متباعدة ، أما موضوعات هذه اليوميات فهي أشتات لا شأن لها بعنصر الزمن وتدوين احداث فيه على الاطلاق .

وقد تكون بعض التراجم الشخصية والسير الذاتية في الأدب العربي نوعاً من «المذكرات» أو «الذكريات» بمفهومها الأجنبي الحديث ، ولو أن أصحابها القدامى والمحدثين لم يطلقوا عليها اسم «مذكرات» إلا بعد كتاب «الاعتبار» للأمير العربي الفارس «أسامة بن منقذ» المتوفي سنة ٥٨٤، وهي تعدّ نمطاً فريداً من كتب المذكرات كما يفهمها الغربيون اليوم ألم يدون لنا هذا الفارس العربي معارك الأفرنج مع المسلمين والعرب ومعهد الدور الذي قام به هو نفسه وتجاربه الذاتية في خلال المعارك ؟ ألم يرو لنا في كتابه الطريف — المطبوع في مطبعة جامعة برنستون الأمريكية سنة ١٩٣٠- كثيراً من الاختبارات الحربية ، والملاحظات الذكية ، وأخبار الصالحين وأخبار الشفاء من العلل في عصره بطرق غريبة ، وأخبار الصيد والقنص التي شارك فيها بنفسه ، أو شاهدها في خرجاته مع الملك «زنكي» في الموصل ومع ابي الميمون في مصر ، الذي كان يملك من عدة الصيد وآلاته كثيراً جد من البزاة والصقور والشواهين البحرية ؟ ولقد تأثر المؤرخ العربي المعاصر الدكتور «فيليب حتّي» ناشر كتاب الاعتبار منذ خمسه وأربعين عاما بالمستشرقين ، وجرى على مفهومهم في تدوين اليوميات والمذكرات فأسمى كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ بالمذكرات الخالدة .

ثم ألا يعد كتاب «سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة» المتوفي سنة ٤٧٠، نوعاً من «المذكرات» بالمفهوم الحديث ، ولو أنه في الأصل سيرة ذاتية كتبها هذا الداعية الفاطمي لنفسه ؟ .

ثم ألا نستطيع أن نعد كتب بعض الرحالة العرب نوعاً من المذكرات أو الذكريات ، أو اليوميات ؟ كالذي نراه في رحلة ابن جبير الأندلسي ورحلة ابن بطوطة ، ورحلة المقدسي في كتابه الموسوم «أحسن التقاسيم» ؟ وتتضح ملامح المذكرات في رحلة ابن جبير ، حيث يدون أحداث الرحلة باليوم والتاريخ والعام . كما تتضح تلك الملامح في رحلة ابن بطوطة ، وان

في التأليف العربي

كان يذكر تواريخ الأحداث وأيامها على قلة ، لا على كثرة كما فعل بن جبير .

وقد يكون عنوان الكتاب العربي القديم بعيداً عن فكرة الايحاء بأنه يشتمل على «مذكرات» أو «ذكريات» لصاحبه . فاذا قرأته من ألفه ليائه وجدت فيه من التجارب الذاتية للمؤلف ما يجعله من كتب (المذكرات) ، وان لم يحمل عنوان غلافه لفظتها ... مثل كتاب «طوق الحمامة ، في الألفة والآلاف» للفقيه المؤرخ الأندلسي «ابن حزم» المتوفي سنة ٤٥٤هـ . ففي هذا الكتاب الجليل تجارب شخصية تجيز ادخاله من غير اعتراض في كتب المذكرات .

وقد لا تكون «المذكرات» تجربة ذاتية لصاحبها وكاتبها ، ولكنها خواطر وآراء وأفكار خاصة للمؤلف يريد أن يبثها بين الناس على أنها نوع من المذكرات على لسان غيره . فينسبها الى كائن آخر ، مثل «مذكرات دجاجة» للدكتور اسحاق موسى الحسيني ، التي تنقد مجتمعها الدجاجي ، توصلا الى نقد المجتمع الانساني ... كأن المؤلف اللماح يريد أن ينقد المجتمع البشري بما فيه من أحقاد وأطماع وأنانية عن طريق هذه الدجاجة الواعية ومذكراتها ... ومثل كتاب «مذكرات ذرة» للدكتور عبد المحسن صالح وكتاب «مذكرات زوج» للأديب أحمد بهجت وكتاب «مذاكرات الارقش» الذي جعله المؤلف الأستاذ الكبير ميخائيل نعيمه رجلا فقيراً شائه الخلقة ، محدود المطامع ، يفلسف الحياة على طريقته الخاصة ، وينفذ الى فهم سرائر الناس من خلال ثرثرتهم – من ناحية – وصمته الدائم العميق من ناحية أخرى .

وقد كانت كتابة «المذكرات» – في الأصل – لرجال السياسة والحكم والادارة والدبلوماسية والوزارة والتاريخ ، كما فعل أحمد شفيق في كتابه «مذكراتي في نصف قرن» من ١٨٧٧ الى ١٩٣٣ ، وأحمد لطفي السيد في كتابه «صفحات مطوية» والدكتور بهي الدين بركات في كتابه «صفحات من التاريخ» ، واسماعيل صدقي السياسي المصري المعروف في كتابه «مذكراتي» والكاتب المفكر أمين الريحاني في كتابه المشهور «ملوك العرب» بجزءيه الكبيرين ، والمرحوم الشيخ حافظ وهبة في كتابه «خمسون عاماً في بلاد العرب» ، والمؤرخ عبد الرحمن الرافعي في كتابه «مذكرات عبد الرحمن الرافعي» ، وفكري أباظة في كتابه «الضاحك الباكي» ، والسفير محمد حسني عمر في كتابه «مذكراتي عن الحياة الدبلوماسية» .

ويبدو أن كتابه «المذكرات» أغرت كثيراً من أصحاب العلوم والفنون والمهن الأخرى ، وساقتهم الى التأليف بها .. فرأينا رجال الأدب والفكر يدخلون الميدان من أوسع أبوابه . فظهرت طائفة من الكتب مثل كتاب «المذكرات» بأجزائه الضخمة للعلامة محمد كرد علي الرئيس الأسبق لمجمع اللغة بدمشق . ويمتاز بصراحته البالغة وكتاب «أنا» لعباس محمود العقاد ، وكتاب «قال الراوي» للشاعر المهجري الياس فرحات وكتاب «من ذكرياتي في صحبة العقاد» للأستاذ محمد طاهر الجبلاوي ، وكتاب «مذكرات طالب بعثة» للدكتور لويس عوض ، وكتاب «تربية سلامة موسى» للكاتب سلامة موسى .

أما الأطباء فقد أدلوا بدلوهم في مجال تأليف المذكرات فظهرت «مذكرات طبيب في الأرياف» للدكتور فخر الدين السبكي ، و «مذكرات طبيبة» للدكتورة نوال السعداوي ، وكتاب «قصة حياتي» للدكتور مصطفى الديواني ، وكتاب «حياة طبيب» للاستاذ الكبير نجيب محفوظ .

ورأينا من كتب المذكرات في المحاماة كتاب «المحاماة فن رفيع» لمحمد شوكت التوني ، و «ذكرياتي في المحاماة» للمحامي الوزير السوري فتح الله الصقال ، كما رأينا للمحامي زكي العربي بعض المذكرات والذكريات .

أما رجال التمثيل والمسرح فلم يحجموا عن دخول هذا الميدان ، فظهرت في هذا الباب كتب من أمثال «فاطمة رشدي بين الحب والفن» وهو ذكرياتها بقلمها الذكي الساخر ، وكتاب «المسرح المصري في مائة عام» للسيدة سعاد أبيض بنت المرحوم جورج أبيض ، و «مذكرات فتوح نشاطي» .

ودخل رجال الصحافة بمذكراتهم في عالم التأليف ، فظهرت كتب منها «ذكريات» للسيدة فاطمة اليوسف – أو روز اليوسف – مؤسسة مجلة روز اليوسف ، وكتاب «أسرار الصحافة» للأديب محمد السيد شوشة .

وقد تكون «المذكرات» ذكريات عن نشاط معين ، أو فترة معينة من عمر أصحابها ، أو مرحلة خاصة من مراحل حياة مؤلفيها ، أو رحلة قام بها الكاتب فدون احداث ذلك واشباهه . مثل كتاب «ثلاثون سنة في خدمة الاحسان» للراحل فتح الله الصقال ، وكتاب «ذكريات عارية» للدكتور السيد أبو النجا ، وكتاب «سندباد في رحلة الحياة» للدكتور حسين فوزي ، و «مذكرات معتقل» للأديب جميل قودم ، و «ظلام السجن» للمرحوم محمد علي الطاهر صاحب الشورى ، و «عشرة أيام في السودان» للدكتور محمد حسين هيكل وكتاب «خمسة أيام في دمشق» للشاعر علي الجندي ، و «عامان في عمان» للشاعر السفير خير الدين الزركلي وكتاب «مذكرات بلغارية» للأديب الأردني عيسى الناعوري ، و «حياة مجاور في الجامع الأحمدي» للمرحوم محمد عبد الجواد صاحب تقويم دار العلوم ، وكتاب «مكتب عنبر» للعلامة المحقق ظافر القاسمي ، و «كتاب» طفل من القرية» للكاتب الاسلامي الشهيد سيد قطب ، وكتاب «خط العتبة» للاستاذ فتحي رضوان ، وهو مذكرات ممتعة عن عالم الطفولة يسجلها صاحبها باسلوب شائق طريف .

ولا شك في أن هذه المشاركات في أدب المذكرات والذكريات – مما ذكرناه وما لم نذكره – هي من أجمل ما تعتز به المكتبة العربية في العصر الحديث ●

مذكرات اللواء الحموي راشد الكيلاني

السوريون الانقلابيون يكتبون المذكرات بغزارة

بقلم: نصرالدين البحرة

لا أعتقد أن قطرا آخر سوى سورية، عرف هذه الغزارة في نشر المذكرات، سواء كان كتابها من رجال السياسة كخالد العظم وحسن الحكيم وبشير العظمة وعبد اللطيف اليونس أو من أولئك الذين وضعوا رجلا في السياسة وأخرى في الفكر والادب والصحافة كعلي الطنطاوي ومنيرالريس ونصوح بابيل وظافر القاسمي ونجاة قصاب حسن أو من العسكريين الذين أحيلوا الى التقاعد لهذا السبب أو ذاك. وربما كان هؤلاء أكثر عددا، لأن هناك وفرة في عدد الضباط الذين أبعدوا عن الجيش منذ الخمسينات المتوسطة، حتى عهد قريب. ولن يكون العماد أول مصطفى طلاس وزير الدفاع ونائب القائد العام للجيش والقوات المسلحة في سورية أكثر من ثلاثين سنة، آخر هؤلاء العسكريين وقد أصدر مذكراته في ثلاثة أجزاء وأربعة مجلدات بعنوان (مرآة حياتي).

وسبقه العميد عبد الكريم زهر الدين قائد الجيش السوري في فترة الانفصال بين 28 سبتمبر/ أيلول و8 مارس/آذار، والعميد مطيع السمان قائد قوى الأمن الداخلي في الفترة ذاتها، والعقيد سهيل العشي الذي تقلب في عدد من المناصب العسكرية المهمة: (آمر سلاح الطيران ـ مدير الكلية العسكرية في حمص ـ رئيس المحكمة العسكرية ـ آمر الجبهة السورية الجنوبية.. الخ) وصدرت حديثا مذكرات محمد معروف. وفي الوقت نفسه تقريبا صدرت الطبعة الثانية من مذكرات اللواء الجوي راشد كيلاني. ويتميز هذا الرجل المولود في حماة عام 1922، بأنه ظل عاملاً في الجيش والخارجية السورية منذ تخرجه في الكلية العسكرية عام 1945 برتبة ملازم، حتى إحالته على التقاعد عام 1987، وربما كان الوحيد الذي تفوق على العماد أول طلاس في مدة خدمته الرسمية.

يوم قصف الفرنسيون (الكيلانية)

ومما يجعل لقراءة مذكرات اللواء كيلاني نكهة خاصة أنه شارك في حرب فلسطين عام 1948 وأصيب في رأسه خلال طلعة طيران في السنة نفسها كان قد حاز شهادة طيار حربي، وأنه أورد خلال تلك الصفحات معلومات وأخبارا، بعضها مهم جدا، وبعضها طريف بالدرجة نفسها. من ذلك مثلاً تلك الذاكرة الراسخة في ذهنه، مع أن عمره لم يكن يتجاوز يومذاك ثلاث سنوات، فقد قصف الفرنسيون وقتها إبان الثورة السورية 1925 حارتهم (الكيلانية) بسبب لجوء فوزي القاوقجي إليها، عندما هرب من صفوف الجيش الفرنسي المتمركز في حماة، لكن هذه القنبلة لم تصب البناء الذي استهدفته، وهو القاعة الكيلانية التي أمضى فيها القاوقجي ليلته، بل وقعت في نهر العاصي المجاور.

وكالبدوي الذي يتحدث عنه عبد العزيز البشري إذا رأى الراديو وسمع كلاما منه، أذهله الترام الكهربائي في دمشق حين زارها أول مرة، وشدهته بناية العابد ـ وهي الآن مبنى قديم مهمل مطل على ساحة المرجة. ويشير إلى عادة كانت منتشرة في جميع المدن السورية، وظلت كذلك حتى الخمسينات، تموين الدار بالحنطة (القمح) ثم تطحن وتعجن في الدار ـ حسب الحاجة ـ ثم يرسل العجين إلى الفرن لخبزه.

كيف استشهد يوسف العظمة

ويتحدث ملياً عن محاولته الالتحاق وهو طالب في الصف العاشر مع نفر من أصدقائه بثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق عام 1941. ولا يكتفي راشد الكيلاني في مذكراته برواية ما رآه وعاشه شخصيا، فهو يرفدها بثمار من مطالعاته، ففي حديثه عن معركة ميسلون يوضح عدم التكافؤ الفظيع بين قوات يوسف العظمة وعددها ألف مقاتل بشهادة الملك فيصل الأول، والقوات الفرنسية البالغ عددها تسعة آلاف جندي

والمدججة بأحدث الاسلحة.

وكعسكري خبير يبدي المؤلف إعجابه باختيار يوسف العظمة أماكن تمركز جيشه بدقة وحصافة، بل أن الجنرال غوابييه قائد الحملة الفرنسية أبدى الإعجاب نفسه فقال: "لقد عرف العظمة كيف يختار مكان دفاعه، وقد حصنه تحصينا حسنا، وهو خصم لا يستهان به"من ناحية أخرى، فربما كان اللواء الكيلاني أول من قدم وصفا تفصيليا عن كيفية استشهاد يوسف العظمة، فهو يقول:

«صمدت القوات العربية حتى نفاد ذخيرتها، واستمر تقدم القوات الفرنسية باتجاه المحور، فشاهد أحد رماة الدبابات الفرنسية، يوسف العظمة، وقد لمعت شاراته الصفراء تحت أشعة الشمس، إذ كان يرتدي لباس المراسم وهو يسهم بالانتقال إلى قرب مدفع معطل، يريد إصلاحه فاطلق الرامي النار عليه، وأصابه إصابات مباشرة في رأسه وصدره فسقط مضرجا بدمائه الزكية، وكان ذلك حوالي الساعة العاشرة والنصف صباحا».

دمشق مدينة مفتوحة

في اليوم نفسه، وبعد انتهاء معركة ميسلون عين الملك فيصل الأميرالاي . العميد نوري السعيد. رئيس الوزراء العراقي نفسه في الخمسينات، قائدا لموقع دمشق، فانطلق على الفور وبصحبته الكولونيل تولا ضابط الارتباط الفرنسي مع الملك فيصل، ودخل المعسكر الفرنسي في خان ميسلون الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر، فقابل الجنرال غوابييه قائد الحملة، وأعلن أمامه أن دمشق مدينة مفتوحة، فقام غوابييه بفرض شروطه المذلة:

1 . تقديم التموين اللازم لقواته.

2 . نقل الجرحى الفرنسيين إلى المستشفى الفرنسي في دمشق

3 . أن تجري القوات الفرنسية عرضا عسكريا في دمشق

وفي اليوم التالي، وفيما يضع غوابييه ترتيباته لإنهاء حكم الملك فيصل، ، فإنه أضاف شروطا أخرى، منها إنهاء حكم الملك صراحة، ووجوب دفع 206 آلاف ليرة ذهبية، ووجوب معاقبة الذين شاركوا في معركة ميسلون - يسميهم رؤساء العصابات . ونزع سلاح الجيش والأهالي.. الخ.

إثر هذه الشروط المجحفة والمذلة، أرسل الملك فيصل برقية يحتج فيها على هذه الإجراءات، ويبدي قبوله بالانتداب الفرنسي، فماذا كان جواب غورو؟ كان إنذارا لفيصل بوجوب مغادرة سورية فورا في اليوم التالي وسيكون تحت تصرفه قطار خاص لنقله هو وحاشيته. وما إن وصل فيصل إلى درعا حتى حلقت طائرة فرنسية في سماء حوران وألقت منشورات (تدعو السكان إلى إخراج فيصل من بلادهم، خلال عشر ساعات وتنذرهم بأسوأ العواقب إن لم يفعلوا ذلك)

غورو.. أمام صلاح الدين

قبل إسدال الستار على هذه الصفحة، لا بد من التوقف قليلا لقراءة ما فعله الجنرال غورو حين دخل الى دمشق، فقد توجه نحو ضريح صلاح الدين الايوبي بطل معركة (حطين) التي وضعت النهاية الحقيقية للحروب الصليبية وقال:"يا صلاح الدين أنت قلت لنا إبان حروبك الصليبية: إنكم خرجتم من الشرق ولن تعودوا إليه. وها نحن عدنا فانهض لترانا في سورية".

بين الموضوعات المهمة التي عالجها المؤلف في كتابه هذا، الأسباب البعيدة أو غير المباشرة للانقلاب العسكري الأول الذي أطاح بالرئيس شكري القوتلي وحكومة السيد خالد العظم وقام به (العميد) حسني الزعيم. والحديث هنا يشير إلى أن ما ندعوه حالة الفساد هذه الأيام في أجهزة الدولة، مسألة قديمة "فقد كثر اللغط عن الاتجار بإجازات الاستيراد، وعن الإثراء غير المشروع الذي تقوم به حاشية السياسيين، وعن الفوضى وسوء الإدارة في أجهزة الدولة. وامتد هذا الاستياء إلى صفوف ضباط الجيش الذين اتهموا زعماءهم السياسيين بإهمال الجيش إهمالا إجراميا، وأنه كان من الممكن الحصول على مزيد من السلاح والعتاد قبل إعلان الحرب من أي مصدر . المقصود دخول الجيش السوري بجانب الجيوش العربية الأخرى - عرضوا بيع الجيش (السوري) كل ما تحتويه مستودعاتهم من سلاح وعتاد قبل رحيلهم عام 1946" . وقد غذى هذا الاستياء تعديل المادة 68 من الدستور السوري، من قبل مجلس النواب، لكي تتم إعادة انتخاب رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي مدة خمس سنوات أخرى. وجرى ذلك بتاريخ 18/5/1948 أي بعد ثلاثة أيام من بدء القتال في فلسطين.

أسباب أخرى للانقلاب

يذكر اللواء الكيلاني أسبابا أخرى لانقلاب حسني الزعيم، كقيام النائب فيصل العسلي في المجلس النيابي (البرلمان) بالهجوم على الجيش وتعريضه بقائده حسني الزعيم، واتهامه إياه بالخيانة العظمى لتعاونه مع الملك عبد الله الساعي الى ضم سورية إلى الأردن وتنفيذ مشروع سورية الكبرى، وفضيحة الأسلحة الفاسدة في الجيش التي جاءت عن طريق سماسرة، والتلاعب بتموين الجيش وأغذيته وقد تجلت في حكاية (السمن المغشوش). وكان وزير الدفاع خالد العظم يعامل حسني الزعيم بتجاهل واحتقار عندما يذهب هذا لمقابلته، «ويتركه في الانتظار ساعات بعد الموعد المضروب له». في هذه الأثناء استطاع الزعيم أن يستقطب بعض كبار الضباط بينهم أديب الشيشكلي وفوزي سلو، وأن يحظى بتواقيعهم على عريضة رفعت إلى رئيس الجمهورية شكري القوتلي، تضمنت مطالب بينها اعتقال النائب فيصل العسلي، ومحاكمة المسؤولين عن التهاون في تسليح الجيش، وألا يتعرض المجلس النيابي للجيش ولا يناقش أموره إلا بوجود من يمثله، لكن الحكومة أهملت الرد على هذه العريضة.

فتش عن البترول

يمكن القول إن ما تقدم جميعاً، بين الأسباب الكثيرة التي أدت إلى قيام حسني الزعيم بانقلابه العسكري، وتعاطف العسكريين معه (في البدء) ولكن هناك سببا آخر في منتهى الأهمية، لم يقاربه اللواء الكيلاني في كتابه هذا. وهو ما أشار إليه في وضوح تام العقيد سهيل العشي في مذكراته (فجر الاستقلال في سورية)، فهو يذكر أن حكومة خالد العظم ومعها المجلس النيابي المنتخب عام 1947، كانت ترفض باستمرار التوقيع على اتفاقيتي "أرامكو" و"التابلاين" للنفط.

معاهدة (سايكس . بيكو) تنص على أن هذه الحدود مارة منتصف بحيرتي الحولة وطبريا، من الشمال إلى الجنوب، ويأخذ العقيد العشي على الزعيم أنه «أطلع القائد التركي الجنرال إورباي على جميع أسرار الجيش السوري، بحجة أنه يريد التحديث على النمط التركي».

جريدة (الشرق الأوسط) 3 /10/ 2004

الاستئناس بـ"المذكرات السياسية"

بقلم: فواز حداد

إذا كنت لم أنتسب لحزب، أو لم تكن لدي اهتمامات سياسية، فلا يعني هذا أنني لم أتأثر بشكل مبكر، بما يجري على الساحة السورية والعربية، وفي ما بعد بالدولية، لكن كان لتوجهاتي الأدبية الأولوية على ما عداها، وستأخذني "الرواية" إلى التاريخ والسياسة، وإلى مسالك أخرى متعددة ومتنوعة.

كل ما كان يدور في ذهني، هو كتابة رواية على علاقة بالواقع، إن لم نكتب عن الحياة التي نعيشها، فعن ماذا نكتب؟ مهما كانت الخيارات، فلا بد أخيرًا من مواجهة، كيف نكتب، ولماذا؟في العقدين الأخيرين من القرن الماضي، كان "الواقع" المتردي مكشوفًا، لا يمكن تجنبه والكتابة عن واقع متخيل، لو فكر الكاتب جديًا في مقاربته، سيأخذه لا محالة إلى القمع والفساد، وكان محظورًا الاقتراب منهما. بلغت محاولاتي في الكتابة، بضعة أعمال توزعت بين الرواية، والمسرح، والقصة القصيرة، دونما أمل بنشرها. كان العمل على تنقيحها مضيعة للوقت، فلم تعد الكتابة بالنسبة إلي، إلا محاولات في التجريب لا جدوى منها.

كنت هاوي أدب في عزلة، بينما كان القلم يذهب بي إلى الواقع الممنوع، وقبضة السلطة تزداد إحكامًا على الأنفاس. تهيأ لي أن لا خيار إلا في الهروب إلى التاريخ، بوضع الرواية في مناخ زمن مضى؛ تجنباً لمنع الكتاب في طور المخطوطة من رقابة الاتحاد. اكتشفت في ما بعد أنني ذهبت إلى ما هربت منه.

في ذاك الوقت، خامرتني قصة عن حب مستحيل، فخطر لي إذا كانت أحداثها تجري في الماضي، فلا عقبة في تمريرها من الرقابة. أما العقبة، فهي أنني لم أكن مغرمًا بالتاريخ. بالمصادفة البحتة، وأنا أبحث لا على التعيين، وقعت على حادثة دخول المفوض السامي الفرنسي "بيو" إلى دمشق، وكان استقبالًا باردًا، المحلات مغلقة، والشوارع خالية، استقبال المفوض كان بإضراب.

جذبني المشهد، كمطلع لفصل في الرواية، تطلبت استعادته من الماضي، الذهاب إلى زمانه ومكانه. تخيلت موكب المفوض السامي، يتقدم من جسر فكتوريا، دورانه في ساحة المرجة، ثم إلى الصالحية فالمفوضية.

هذا المطلع وما تلاه، احتاج إلى كمية كبيرة من المعلومات، خريطة دمشق في ذلك الوقت، توزع معالمها الرئيسة، الشوارع، والأزقة، الأسواق، والمحلات، والملاهي، والفنادق، والمسارح، والمقاهي، بعضها كان ذا طابع فرنسي. كما استدرجني الحدث الروائي إلى الحالة السورية تحت الانتداب، الوجود الفرنسي، الوضع السياسي، الأحزاب الوطنية وخلافاتها، المجتمع وما يعج به من أفكار دينية ونهضوية في أواخر الثلاثينيات من القرن الماضي، عشية الحرب العالمية الثانية، كانت سورية تغلي بالمظاهرات تطالب بالاستقلال. لم تكن سورية وحدها في حالة اضطراب، بل العالم كله.

بالعودة إلى المراجع التاريخية، وكانت نادرة، عدا أنها مبعثرة. من حسن حظي، كان كتاب فيليب خوري "سورية والانتداب الفرنسي"، قد تمت ترجمته مؤخرًا، وكان متوفرًا في مكتبات بيروت، ما وفر عليّ الكثير من الجهد، فهذه الفترة لا يمكن فهمها من دونه، على هديه بحثت عن المراجع التي أشار إليها وزدت عليها، فتجمعت لدي مكتبة خاصة بتاريخ سورية ضمت عشرات الكتب.

ما نعرفه عن تلك الفترة، من الحكم الوطني قبل الاستقلال وبعده، حسب ما تلقيناها في المدرسة، كان ضئيلاً، في الواقع يكاد يكون لا شيئاً، كان إهماله متعمداً بصرف النظر عن المناهج الدراسية، لم يكن مبذولًا كما هو مفترض، المراجع قليلة لا تزيد عن جهد شخصي، وأسيرة رسائل الماجستير والدكتوراه

في الجامعات، ولم يكن مشجعاً عليها، إذ لا مبرر لاستعادة بدايات الديمقراطية السورية، أو الاطلاع على سياسات الحكومات الوطنية، كان التجهيل بها ممنهجًا، بعدما وسم العسكر سياسيي العهد الوطني في بلاغاتهم الانقلابية بالخيانة والعمالة... سار على خطاهم، حزب البعث، والأحزاب القومية، واليسارية من الشيوعيين وغيرهم. كان عهداً بائداً اتفق على دفنه، بالتخلص من هذا التاريخ "المشين"، وترحيله محمّلًا بجميع الموبقات السياسية من رجعية وبرجوازية وإقطاع واستغلال. قادني مشروع الرواية إلى كتب "السيرة السياسية"، كان أهمها المجلدات الثلاثة لمذكرات رئيس الوزراء خالد العظم، وكانت ممنوعة في سورية، ولا حاجة للقول إنها كانت مذكرات فريدة وكاشفة، حتى بدا من الغرابة أن يكتبها سياسي سوري، كانت حافلة بالأحداث وبالتفاصيل الدقيقة، والتفكير السياسي بعيد النظر، كما لم تخل ذكرياته من طيش الشباب في مجتمع محافظ.

عموماً، تتميز المذكرات السياسية، بالمقارنة مع المراجع التاريخية، في حال اعتمدنا النظر الروائي، أن المذكرات تستخدم صيغة الأنا في السرد، فنطلع على السياسة كما عاشها صاحبها، وخاضها علنًا وفي الكواليس، كفاعل فيها وشاهد عليها، بينما كتب التاريخ، يأخذ السرد فيها طابع المشهد البانورامي، تعتمد المراجع، ولا تخلو من وثائق وشهادات ومذكرات عن تاريخ، تبدو كأنها العليمة به. طبعاً، لا يمكن الأخذ بالمذكرات بشكل مطلق، لا بد من إجراء التقاطعات مع غيرها، فالسياسيون معرضون للنسيان وهفوات الذاكرة، والمبالغة في دفاعهم عن سياساتهم، وإخفاء ما يضيرهم وما ارتكبوه من أخطاء ومخالفات، وربما أكثر، لكنها تقدم زاداً وفيراً يمكن الاستفادة منه والاستئناس به.

تنحو المذكرات السياسية غالباً، إلى التركيز على سيرة صاحبها والمناصب التي تقلّدها، والدفاع عن السياسات التي انتهجها، يقدم من خلالها مادة تاريخية، أشبه بقصة حميمة عن تطلعاته الوطنية ووسائل تحقيقها، ما يحيلنا إلى طبيعة السلطة واللعبة البرلمانية، وتوجهات الأحزاب، ومفهوم الحريات، والتذرع بالدستور، ومراعاة القوانين... إلى الفساد من وساطات ومصالح... وقد تتطرق للحياة اليومية وأساليب العيش وأوضاع الناس.

بالنسبة إلينا، نحن الذين عاصرنا الحكم الشمولي، تبدو لنا سورية في كتب المذكرات عالماً آخرَ، مهما اختلفنا معه، وكأنه ينقصه بطش المخابرات، ومجلس للشعب لا صوت له سوى الخنوع

في المذكرات صادفت شخصيات ذلك العهد: هاشم الأتاسي، شكري القوتلي، خالد العظم، فارس الخوري، لطفي الحفار، جميل مردم بك، فخري البارودي، تاج الدين الحسني، رشدي الكيخيا، معروف الدواليبي، صبري العسلي، سعيد الغزي، عبد السلام العجيلي....

وصادفت أيضاً الشخصيات التي لعبت، سواء كانت تدري أو لا تدري، دور المؤسس لنظام دكتاتوري، ولم تتنبه لخطر العسكر، مع أن من بينهم عسكريين، وسياسيين، ومفكرين، ومنظرين: ميشيل عفلق، صلاح الدين بيطار، أكرم الحوراني، حسني الزعم، أديب شيشكلي، سامي الحناوي...

المثير في السير السياسية المبكرة، اختلاط الذكريات الشخصية، والخواطر والأحداث الاجتماعية، ما يشهد بعوالم حية وحيوية، وطموحات سياسية من دون شعارات ديماغوجية، ما يحفزنا على أن نعرف وأن نفهم، والرغبة في التعرف إلى عصر مغيّب. ليس من باب أن التاريخ يمتلك الجاذبية، ولا الإغواء فقط، وإنما قراءته أيضاً، بالمقارنة مع واقع سورية الحالي، ونظام شمولي رثّ بشكل مروّع، طوال زمن امتد نصف قرن، استأثر به مسؤولون، وأحزاب وسياسيون ومثقفون وصحافة، وبالدرجة الأولى الأجهزة الأمنية، كان اللغط حول بناء الاشتراكية قد عوّض عن السياسة، وإحكام القبضة على الرأي كتم أصوات الناس، ثم إخفاء الهزيمة تلو الهزيمة، فالتخلي عن الاشتراكية، واختلاق الإرهاب والسعي للقضاء عليه، فمجزرة حماة لتأديب السوريين، ثم التفاهم الإستراتيجي مع إسرائيل، وخسارة الجولان، إلى أن جاء الربيع العربي، فانشغل النظام بحرق سورية وتدميرها.

بالنسبة إلينا، نحن الذين عاصرنا الحكم الشمولي، تبدو لنا سورية في كتب المذكرات عالماً آخرَ، مهما اختلفنا معه، وكأنه ينقصه بطش المخابرات، ومجلس للشعب لا صوت له سوى الخنوع، ورئاسة امتلكت الوطن والبشر بحكم الوراثة. ما يُخلّف في داخلنا المرارة، في ذلك البون الشاسع بين رجالات العهد الوطني، كانوا رجال سياسة، ورجال دولة، وليس طغمة من البلطجية، والزعران، والشبيحة، استباحت سورية بالنهب والقتل.

ولا بد نلاحظ أن النظام طوال عهده، لم يتجرأ رجالاته، من طبقة الرئاسة أو طبقات المسؤولين على كتابة مذكراتهم السياسية. لن نسمع منهم أو عنهم، إلا يوماً ما من خلال الشهود في المحاكم الدولية وربما المحلية، إذا أدركتهم العدالة قبل الهرب أو الموت.

ساعدتني السير السياسية، والمراجع التاريخية على إنجاز روايتي الأولى "موزاييك – دمشق 39"، كذلك "تياترو 1949"، و "صورة الروائي"، وإذا كنت راضيًا عنها، فلأنها من حيث لا أدري، رسمت الخط الذي سيقود رحلتي في الرواية، وكانت في بعض مراحلها، أوسع من سورية في انتقالاتي إلى مصر، والعراق، وفلسطين، كان من آثارها، تحديد الزمان والمكان الروائي، ومع أن التاريخ والسياسة لم يستأثرا برواياتي، تعاملت معهما على أنها عوامل فاعلة ومؤثرة في العصر والبشر، كان في إغفالها تزييف للرواية والحياة معاً.

حول مذكرات أبي خليل القباني المفقودة

بقي موضوع مذكرات أبي خليل الشخصية المفقودة، لغزاً مدفوناً مع حفيده أحمد زهير القباني، الذي كان يحتفظ بها أثناء إقامته في القاهرة، حين كان يعمل مساعداً للأمين العام للجامعة

بقلم: تيسير خلف

وقد كتب البروفيسور أكرم الميداني في جريدة "الأهرام"، أواخر العام 1952، حين كان طالباً في المعهد العالي للفنون المسرحية في القاهرة ما نصّه: "لقد سجّل القباني حياته الحافلة هذه في مذكرات، ظلت مخطوطة، حتى يومنا هذا، وقد بدأ في إعدادها للطبع أخيراً حفيده السيد أحمد زهير القباني.."

ولمن لا يعرف أكرم الميداني، فقد تابع دراساته العليا، بعد مقالته تلك في الولايات المتحدة الأميركية، وحصل على الماجستير والدكتوراه، وكان السكرتير الأول في البعثة الدبلوماسية السورية في الأمم المتحدة، لكنه استقال في العام 1965، وتفرّغ للحياة الجامعية، فأصبح شخصية أكاديمية مرموقة في أميركا، وعميداً لكلية الفنون الجميلة في جامعة كارنيجي ميلون، وقد توفي في العام 2001 في بيتسبيرغ في ولاية بنسلفانيا الأميركية عن عمر بلغ 73 عاماً.

وكان الميداني على صلة مباشرة بزهير القباني، ومن هنا تكتسب المقالة التي كتبها في "الأهرام" أهمية خاصة؛ لكونها تلخيصاً لمذكرات أبي خليل كما ألمح إلى ذلك، واللافت فيها أن تحقيبه لحياة أبي خليل، ينسجم تمام الانسجام مع المعطيات التي توصلت إليها من خلال الوثائق العثمانية وصحف تلك المرحلة، أي أنه، وخلافاً لجميع الذين كتبوا عن القباني، جعل قصة الهجوم عليه من بعض الأوساط الدمشقية، وإغلاق مسرحه قبل العربية وصول الوالي مدحت باشا، أن القباني عاود نشاطه، بعد وصول مدحت باشا، وواصل بعد إقالة الوالي العثماني، وهذا الكلام كان يبدو مستهجناً عند الذين ربطوا مصير مسرح القباني ومصيره بمصير مدحت باشا، وهذا خطأ كبير.

انتقل الحفيد زهير القباني إلى سويسرا مديراً لمكتب الجامعة العربية في جنيف قبل أن يستقر في باريس، وتدركه الوفاة أواخر تسعينيات القرن العشرين، من دون أن نعلم شيئاً عن مصير المذكرات.

ومن غرائب الأمور، وأكثرها غموضاً إهمال الحفيد زهير القباني، في ما بعد لموضوع المذكرات، وحتى اليوم لا نعرف أين استقرت بها الأيام، فقد انتقل الحفيد إلى سويسرا مديراً لمكتب الجامعة العربية في جنيف، قبل أن يستقر في باريس، ليقضي بقية سنواته فيها، وتدركه الوفاة في أواخر تسعينيات القرن العشرين، من دون أن نعلم شيئاً عن مصير المذكرات.

ويبدو أن مشكلة أوراق ومخطوطات أبي خليل قديمة، ولسبب مجهول، كان من الصعب الوصول إليها، رغم المحاولات الحثيثة للكثيرين، وأولهم المؤرخ الفني حسني كنعان، الذي بدأ بجمع المعلومات عن رائدنا في العام 1946.

وكتب كنعان في مقال نشره في مجلة "الرسالة" القاهرية عام 1951 رداً على أسئلة، وجهها له الباحث الطالب في جامعة فؤاد الأول يومها، محمد يوسف نجم، حول أي معلومات عن أبي خليل وأوراقه، فأجاب بما يلي:

"لقد أجهدت نفسي كثيراً؛ لأحصل على نسخ منها، فلم أظفر؛ لأن ولده المرحوم خليل أودع مؤلفات والده، عند شريك له في المحاماة من آل العجلاني، ولما توفي خليل المذكور أنكرها واحتجزها لنفسه، كما فعل شقيق الشاعر الزين رحمه الله بأشعار أخيه الفقيد...".

وهنا لا بد من الإشارة إلى قصة، تبدو أكثر غموضاً وإثارة للأسئلة، ففي الستينيات حضرت امرأة إلى مكتب الدكتور محمد يوسف نجم في الجامعة الأميركية ببيروت، وأعطته سبعة دفاتر، أخبرته أنها مسرحيات، عثرت عليها بين أوراق قريبها الشهيد رشدي الشمعة، أحد شهداء 6 أيار عام 1916، ورشدي الشمعة هذا كان من المسرحيين السوريين المجهولين، والذين صدر بحقه قرار عرفي من أعجب ما يكون، إذ تضمّن القرار أن الحكم عليه بالإعدام؛ كان بسبب التمثيليات التي كان يكتبها: "كان ألقى في دور التمثيل محاضرات، تشجّع الانفراد العربي واستقلاله..".

ما يهمّنا هنا أن الدكتور نجم، أدرك أن الدفاتر السبعة، هي نصوص مسرحيات لأبي خليل القبّاني، كان يعرفها من خلال تتبّع أخباره، حين وضع رسالة الدكتوراه الخاصة به عن تاريخ المسرح العربي، وهي ثلاثة عشر نصاً هي: "يوسف بن تاشفين"، و"المعتمد بن عباد"، و"يزيد بن عبد الملك مع جاريتيه حبابة وسلّامة"، و"عبد السلام الحمصي"، و"رضية"، والمشهد الأخير من "مجنون ليلى"، و"الشيخ وضاح ومصباح، وقوت ، الأرواح"، و"ناكر الجميل"، و"الإسكندر"، و"مي"، و"نفح الربى"، و"القائد الخائن"، و"الوزير أبي الوليد بن زيدون."

ولا أحد يعلم، لماذا لم ينشر الدكتور نجم هذه المسرحيات، ولا أين هي الآن؟ وهذه واحدة من الخطايا التي لا تُغتفَر لهذا الأكاديمي، الذي كان يفترض به أن يُودعها لدى مكتبة عامة! أما الخبر الآنف الذكر، فيشير إلى أن الشهيد رشدي الشمعة تتلمذ على يد القباني، الذي أعطاه نصوصه المسرحية؛ لكي يمثّلها مع رفاقه من هواة التمثيل، والذي عرفنا في ما بعد أن نشاطهم، كان يتركز في المدرسة العثمانية في دمشق، والشهيد عارف الشهابي كان أحدهم.

وثمّة مخطوطٌ لأبي خليل عنوانه: "رسالة في ضوابط الأنغام"، أشار إليه في رسالة كتبها لصديقه يحيى تللو أيضاً مصيره مجهول، ولو أننا نرجّح أنه شكّل الأساس لكتاب "الموسيقى الشرقي" لتلميذه كامل الخلعي، إذ إن كثرة الاستشهادات، والمعلومات المنسوبة للقباني في هذا الكتاب، تشير إلى أنه اعتمد نصاً مكتوباً، وليس معلومات متفرقة، جمعها عن طريق السماع، وربما أودع القباني، ما كتبه في هذا المجال لدى تلميذه في لحظة من لحظات اليأس، التي اعترته قبل أن يكمله، فاستفاد منه التلميذ، واستوعبه في كتابه، من دون الإشارة إليه كمخطوط، بل كمعلومات نقلها عن الأستاذ.

من المؤكد أن مذكرات القباني موجودة في مكان ما الآن، ربما مع ابنة زهير القباني، التي علمنا أنها كانت تقيم بين باريس، والإمارات العربية المتحدة، ولم نظفر بطريقه للقائها، وفي حال عثرنا عليها، فمن المحتم أنها، ستغيّر كثيراً من تصوراتنا وأفكارنا، حول تاريخ دمشق في تلك الحقبة المفصلية وتحولاتها الخطيرة.

رد المؤرخ الفني حسني كنعان حين سئل عن مذكرات أبي خليل: "لقد أجهدت نفسي كثيراً؛ لأحصل على نسخ منها، فلم أظفر؛ لأن ولده المرحوم خليل أودع مؤلفات والده، عند شريك له في المحاماة من آل العجلاني، ولما توفي خليل المذكور أنكرها واحتجزها لنفسه

من المؤكد أن مذكرات القباني موجودة في مكان ما الآن، ربما مع ابنة زهير القباني، التي علمنا أنها كانت تقيم بين باريس والإمارات، ولم نظفر بطريقه للقائها

مذكرات خالد العظم بين التزوير والتلفيق

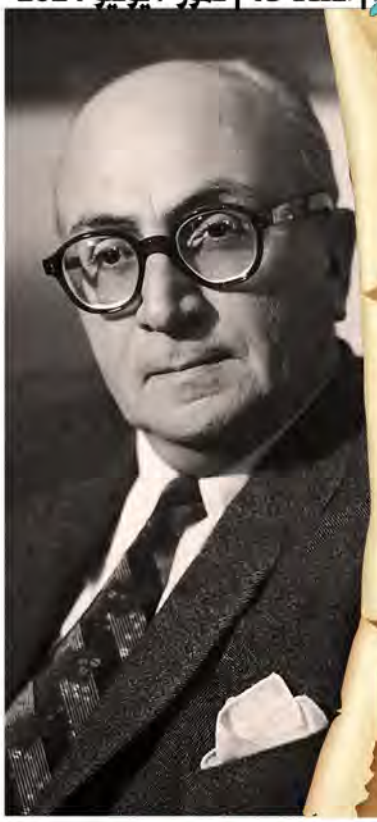

بقلم: عمرو الملاح

لئن كان "أدب المذكرات"، أو "السيرة الذاتية" يُعدّ أحد أنواع الأجناس الأدبيّة الجديدة، التي عرفها الأدب العربي في القرن العشرين، إلّا أنّه ربما يمكننا أن نتلمّس بعض الإرهاصات، أو الومضات المبكرة لهذا الشكل من أشكال الكتابة الإبداعية في تراثنا العربي لدى شخصيات متفرّدة، سبقت زمانها، من أمثال أسامة بن منقذ (1095-1188) في كتابه "الاعتبار"، وابن خلدون (1332-1406) في كتابه "التعريف بابن خلدون".

وإنه لمن نافِلِ القول، إن كتب "المذكرات" أو "السير الذاتية"، وإن كانت تحظى بالأهمية في الكتابة التاريخية، إلّا أنّها لا تُصنّف دوماً بوصفها "مصدراً"، وإنما غالباً ما تكون "مرجعاً" يُستأنس به لا أكثر، إذ يبقى أصحابها، وإن كانوا شهوداً على عصر عاشوه، ويروون أحداثه من منظورهم بالطبع، بشراً لهم أهواؤهم ونزعاتهم وتحيزاتهم، التي قد تكون مقرونة بتعظيم ذواتهم وأنفسهم تارة، وبالمبالغة بالأدوار التي اضطلعوا بها وتضخيمها تارة أخرى.

ومما لا ريب فيه أنّ المهمة الحقيقيّة للمؤرخ والباحث، إنما تتمثّل في إخضاع "المراجع" التاريخيّة- وفي عدادها كتب المذكرات، أو السير الذاتية بطبيعة الحال- التي قد يستقي معلوماته منها منها للنقد والتدقيق والتمحيص. وتلكم هي عملية أشد صعوبة من النقل التاريخي، وتقتضي من الباحث المتمكن من المناهج والأدوات والأساليب البحثية الرجوع إلى "المصادر الأولية"، التي تشتمل على الوثائق والسجلات والتقارير الرسمية والدبلوماسية إلخ، جنباً إلى جنب مع "المصادر الثانوية"، وفي عدادها الصحف والمجلات من جملة مصادر أخرى.

ولعلّي أشير بهذا الصدد، إلى أنّ كتب المذكرات التي تصدر، إبان وقوع الأحداث ومواكبة لها وحدها، دون سواها التي يصح أن تُصنّف ضمن قائمة المصادر، وأمّا المذكرات التي تصدر عن صاحبها بعد مرور مدّة طويلة من الزمن، فإنها تصنف ضمن قائمة المراجع، على اعتبار أن كاتبها يكتب من وحي الذاكرة عن "ذكريات" عاشها، خبرها أو عاصرها.

ولعل من بين أبرز التجارب التي عرفها التاريخ السوري في كتابة "المذكرات" أو "السيرة الذاتيّة"، تلك التي خلّفها وراءه خالد العظم (1903-1965) الذي يُعدّ أحد أهم الزعماء السياسيين، إبان حقبة الجمهورية الأولى من تاريخ سوريا، إذ تولّى رئاسة الحكومة ست مرات، بالإضافة إلى إشغاله منصباً وزارياً أكثر من عشرين مرة، وذلك من جملة مناصب دبلوماسية واقتصادية، يطول حصرها ويصعب ذكرها.

وعلى الرغم مما تتضمنه هذه المذكرات- التي تقع في ثلاثة أجزاء ضخمة، والصادرة أول مرة تحت عنوان "مذكرات خالد العظم" عن الدار المتحدة للنشر ببيروت عام 1973-

من كم هائل من المعلومات التي تتصل بأحداث شاهدها أو عايشها، بل وشارك في صنع الكثير منها، إلّا أنّه من اللافت للانتباه في هذا السياق، هو ما أثاره المؤرخ خير الدين الزركلي (1893-1976) في ترجمته للعظم في كتابه المرجعي "الأعلام"، من أن مذكراته نُشرت متسلسلة في صحيفة "النهار" اللبنانية، قبل أن تُطبَع كاملة في كتاب، وأنها لم تسلم من التحريف والتبديل، وإذ لم يشرح الزركلي ما اعترى مذكرات العظم من التحريف والتبديل بأي قدر من التفصيل، فإنه يجوز لنا ان نفترض بشيء من الطمأنينة، أنه ربما لاحظ وجود عدم تطابق بين ما نُشر من المذكرات متسلسلاً في صحيفة "النهار"، والكتاب الصادر لاحقاً بعنوان "مذكرات خالد العظم".

وبمعزل عن المآخذ والانتقادات التي عادةً ما تُوجّه إلى العظم في مذكراته في الصورة التي وصلت إلينا بها، من أنها لا تخلو من تضخيم " الأنا" و"الذات" تبرز الحاجة الملحة إلى ضرورة أن ينهض أحد الباحثين بمهمة العودة إلى أرشيف

من اللافت للانتباه ما أثاره المؤرخ خير الدين الزركلي في ترجمته للعظم في كتابه المرجعي "الأعلام" من أن مذكراته نُشرت متسلسلة في صحيفة "النهار" اللبنانية قبل أن تُطبَع في كتاب، وأنها لم تسلم من التحريف والتبديل

شخصية العظم في مذكراته في الصورة التي وصلت إلينا، لا تخلو من تضخيم " الأنا" و"الذات"!

صحيفة "النهار"، فيجمع حلقات مذكراته المنشورة متسلسلةً فيها في كتاب جديد، بعد أن يحققها تحقيقاً علمياً رصيناً، يبيّن فيه أوجه الاختلاف القائمة بينها، وبين النسخة المطبوعة الصادرة عن الدار المتحدة للنشر.

وبصرف النظر عن تقييم المرء لتجربة العظم في السياسة والحكم سلباً كان أم إيجاباً، فإن ما لحق بمذكراته من التحريف والتبديل، إنما هو في واقع الحال عمل يرقى إلى جريمة التزوير، ولعل إعادة اكتشاف حلقات مذكراته المنشورة متسلسلة في صحيفة النهار اللبنانية، وتقديمها إلى جمهور القراء والمهتمين يشكل خطوة أولى، نحو صون الذاكرة السورية من العبث والتزوير والتلفيق.

« النهار » ٩ ـ ١٢ ـ ١٩٧٢

بترجمة المترجمة السورية
دينا الملاح
صدر في أبوظبي عام 2014

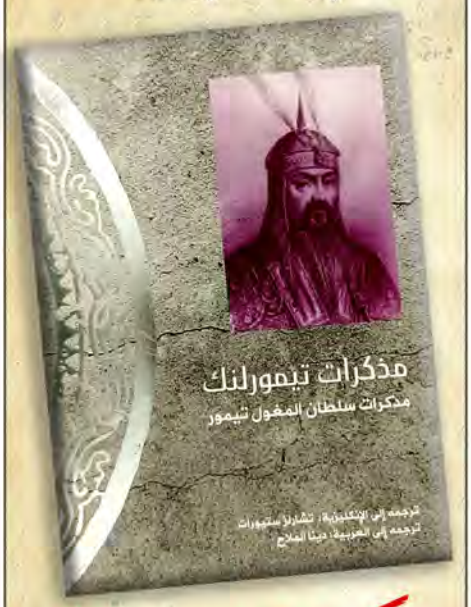

مذكرات تيمورلنك
مذكرات سلطان المغول تيمور

ليعلم أولادي المظفرون والميامين، وحفَدَتي الأمراء الكرام وسواهم أنني قد وضعت مذكراتي هذه باللغة التركية من أجل كل واحد من ذريتي الذين -بمعونة الله القادر على كل شيء- سيتربعون على عرشي ويخلفونني في الحكم

الناشر: هيئة أبوظبي للثقافة والسياحة

مع الطنطاوي في ذكرياته

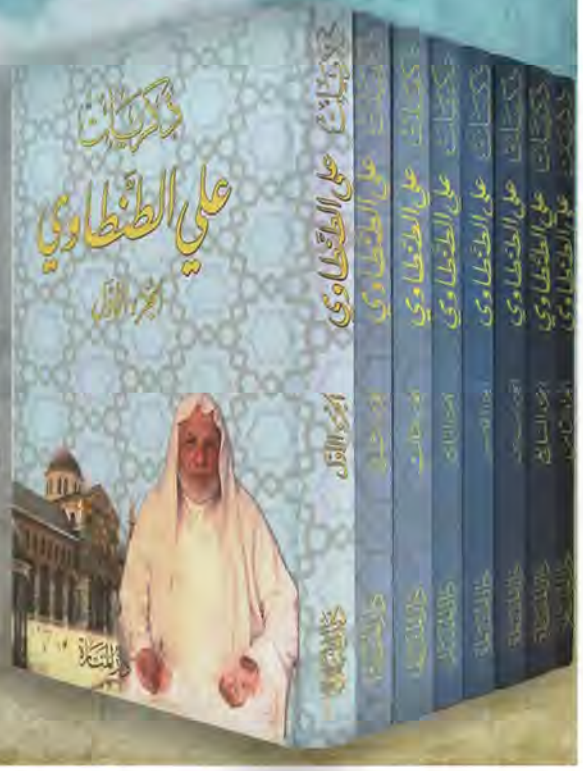

بقلم: د. فطيم دناور

لأسرةٍ شاميةٍ ذاتِ مكانةٍ علميةٍ ودينيةٍ معروفة، وُلد الشيخ محمد علي الطنطاوي في دمشق (12 حزيران/ يونيو 1909) تنقّل بين كتاتيبها ومدارسها النظاميّة، التي كانت منتشرة في الشام إبّان الحكم العثماني آنذاك، وأكمل دراسته الجامعية بين مصر وسورية.

عن الكاتب وذكرياته:

أسهمت تنشئته في ظلّ أسرة مثقفة وتلقّيه التّعليم في مدارس متعدّدة المشارب إلى تهيئته تهيئةً علميةً، مكّنته من نقد الطرق التّقليدية في التّعليم والفقه والسياسة، فكان من طلائع المجدّدين في هذه الميادين مع التزامه بالاتجاه الديني الإسلامي، يثبته إيمانٌ راسخٌ بقدرة الشريعة الإسلاميّة على إصلاح الشأن العام والخاص في سورية والعالم الإسلامي، إذا ما أُحسن تطبيقها.

سافر إلى دول عربية وإسلامية عديدة، وشارك في التجمّعات والتّنظيمات، وعرف علماء وفقهاء وسياسيين عن قرب، فكانت له آراء وكتابات في هذه الميادين جميعًا، لا يكاد يخبو له نشاطٌ في ميدان، حتى يظهر في ميدانٍ آخر، كنبعة ماء لا يسدّ لها منفذ، حتى تنفر في آخر، ولو اعترض طريقها صخرٌ لتفجّرت من خلاله.

كّل ذلك جعل منه شخصيةً عامةً، وجعل حياته كنزًا من التجارب، سعى مَن حوله إلى تعريف الناس بها، فطلب إليه الأستاذ زهير الأيوبي أن يدون ذكرياته، وألحّ في الطلب حتى استسلم الشيخ لرغبته، ثم قام السيد إبراهيم سرسيق بكتابة حلقتين بأسلوبه، نشرتا في مجلة "مسلمون" التي أصدرها الأخوان هشام ومحمد علي حافظ.

هذه البداية التي جرّت بعدها حلقات نشرت، ثم تطورت الفكرة إلى جمع المقالات في ثمانية مجلدات، يربو عدد صفحاتها على الثلاثة آلاف صفحة، كّل مجلد قسم إلى فقرات سمّاها حلقات؛ وذلك لأنه في بداية الأمر كان يتحدث، ويُسجَّل حديثه، ثم يفرَّغ بنصٍ مكتوب. وقد قام السيد مجاهد مأمون ديرانية (حفيد الشيخ) بمراجعة الطبعة الخامسة منه وتصحيحها (2006)، ووضع حواشي لها، وكانت أفضل الطبعات وأكثرها دقة، صارح القرّاء في مقدمتها، أنّه كان سيحجم كما كان صاحب الذكريات سيحجم، لو عرف ما سينفقه من مراجعة على تلك الذكريات من جهد ووقت.

ولقد راودَ كاتبة هذه الكلمات الإحجام ذاته، حين طلب منّي الأستاذ محمد منصور الكتابة عن ذكريات الطنطاوي، فأين لي بزمن أقرأ به هذا الكمّ الهائل من الحلقات، بل من أين آتي بصبرٍ على قراءة مذكرات بهذا الحجم، ونحن في زمن التغريدة والشذرة والنتفة؟

لكنّ الحكم على أيّ عمل، ينبغي أن يكون بعد الاطّلاع على مواده، تحرياً للموضوعية وإنصافًا لصاحبه، فما إن بدأتُ بقراءة مقدمة المؤلف والحلقات الأولى من ذكرياته، حتى أيقنتُ أنّني أمام سيلٍ من مذكرات، تقدم للقارئ صورة حيّة عن عصر تجاوزناه، ونحنُّ إليه، وعن الأماكن التي زارها والأشخاص الذين عاصرهم وعرفهم، بلغةٍ جزلةٍ أدبيةٍ تعصِمك من الملل، وتشدّك أكثر من روايات هذه الأيام المضجرة، ما يجعله أهلًا للّقب الذي أطلقه عليه حفيده "أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء"، وقد اتّبعت طريقة الانتقاء: أختار من كّل جزء ما يلفتني من عناوين الفقرات، فأقرؤها. أكتب هذا؛ لأبين للقارئ أنّي لم أقرأ الذكريات كاملةً، وأن ما سأدونه من ملاحظات هو عن أجزاء انتقيتها، بحسب ذوق شخصي، وليعذرني القارئ الكريم فالكتابة عن هذه المذكرات، تحتاج إلى كتاب أو كتب حتى توفيها حقّها.

الموضوعات والمحتوى:

كتبَ الطنطاوي عمّا عاشه من أحداثَ مفصليّةٍ، وعمّا وطئت قدمه من بلدان وبقاع، وعمّا فكّر فيه أو كتب عنه من قبل، وعمّن عرفه من شخصيات عامّة، وقد كان من قبل

غطت ذكرياته حياته منذ سن السادسة حتى اللحظة التي كتب بها أول كلمة، وهو في سن الخامسة والسبعين من العمر، لكنه ركّز جلّ كتابته على الخمسين سنة الأولى من عمره، وهي الفترة التي ازدحم بها التاريخ السوري والعربي بالأحداث،

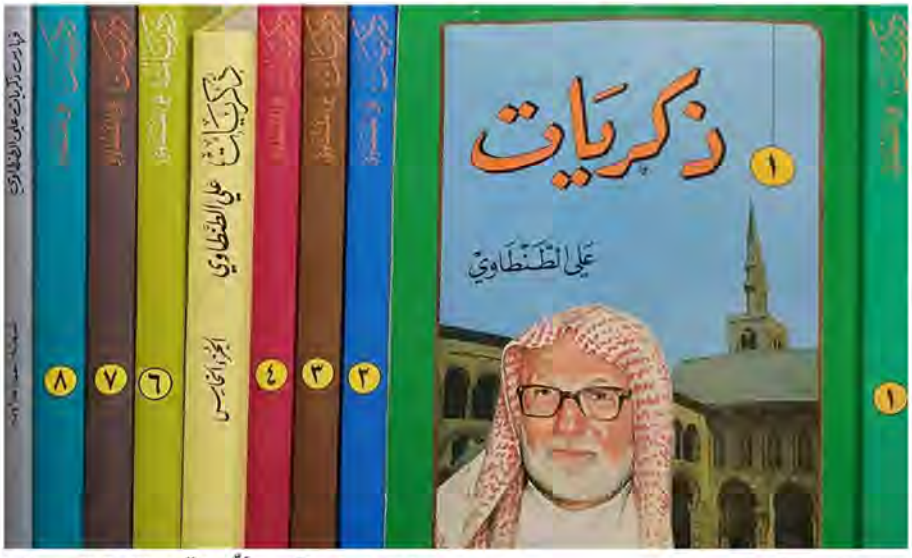

كثير الكتابة، يكتب عن كلّ ما يلفت نظره وفي أيّ مكان وبأي أداة توفرت، فغطت ذكرياته حياته منذ سن السادسة حتى اللحظة التي كتب بها أول كلمة، وهو في سن الخامسة والسبعين من العمر، لكنه ركّز جلّ كتابته على الخمسين سنة الأولى من عمره، وهي الفترة التي ازدحم بها التاريخ السوري والعربي الحديث بالأحداث، والنقلات التاريخية والثقافية والسياسية، وكانت دمشق محور الحديث والحدث.

ولمّا كانت هذه مكانته القضائيّة والعلميّة والدينيّة والثقافيّة في عصره، فقد تمكّن من السفر إلى أقطار ومدن في شرق العالم وغربه، فكتب من واقع تجربته الشخصية عن أندونيسيا ومدنها وطبيعتها، وعن مدن العراق وواقعها الثقافي والديني، وعن مصر وحواضرها ومؤسساتها العلميّة، وعن السعودية وإقامته فيها، وعن الجزائر وباكستان، وعن مدن أوربية مثل فرانكفورت وآخن، وحواضر يتعذر عدها..

وفي كل بلد يتناوله يعرض لعلمائه المبرزين وكتّابه المؤثّرين، إن بما عرفه عنهم عن قرب، أو بما قرأ عنهم في صحف تلك الأيام، فكتب عن الشخصيات والمؤلفات والقضايا المحركة لعجلة الوعي في الدول والمدن، فكانت الجغرافيا والعمران والتاريخ، واللغة والأدب، والفقه والقضاء، والإعلام والثقافة، والاقتصاد والسياسة، والعادات والأخلاق، والشخصيات المؤثرة في كلّ موضوع من هذه الموضوعات.

ولم يكن يكتب للتوصيف أو النّقد وحسب، بل كان يقترح الحلول، ويشرع في تطبيقها، كما حصل حين رجع من بغداد، وعاين بنفسه ما آلت إليه حالها من غياب للمظاهر الإسلامية، فجمع في بيته في دمشق العاملين في مجال الدعوة بجميع توجهاتِهم، وحدّثهم بما رأى في بغداد.

وحتى لا يصل حال دمشق إلى ما آلت إليه حال بغداد، اقترح عليهم أن يتعاونوا في الدعوة، ووضع خطة ممنهجة لتغطية الأنشطة التوعوية في الميادين كافة. (ص 4/13)

الأسلوب واللغة:

لعلّ أكثرَ عنصر جذب للقارئ في أيّ نصّ مكتوب، هو أسلوب المؤلف، الذي يعدّ صورة صاحبه، وأسلوب الطنطاوي في "الذكريات" ليّن- جزل في آنٍ معًا، بعيدٌ كلّ البعد عن الجفاف والتعقيد، وهي ما اتسمت به شخصية الطنطاوي ذاته كما وصفها، فما يكاد المرءُ يضع عينه على أول كلمة، حتى يأخذ الكاتب بيده، ويصحبه برحلة عبر الزمن يهمس إليه بلغةٍ حانيةٍ قريبةٍ، ترطّب ما جفّ واخشوشب مع الزمن، يتحدث إليك بلا تكلّف أو تحفظ، يشعرك أنه يجالسك، يلهب ذاكرتك وخيالك، كما في هذه الفقرة التي وصف بها أطلال البيوت الشاميّة القديمة: "وأنا لا يصيبُني ويحرّك نفسي كالوقوفِ على الأطلال، إنّني أرمّمها في خيالي وأصلحُها، كما يرمّم البيتَ العتيقَ مالكُه، حتى يعيدَ إليه من بهائه ما يمكن أن يعود! كنتُ أنظر إلى الغرفةِ التي بقيَ نصفها، فأراها ونصفُها معها، ومع صاحبها نصفُه الآخر من البشر: الزوجُ وزوجتُه، والجدران ساترةٌ والباب مغلق. أراها وقد عادت الحياة إليها، ورجع إليها أهلوها، حتى إنّي لأسمعُ لغط صبيانها، وأحاديثَ نسائِها، وقرع قباقيبِهنّ على بلاطِها! مع أنّها قد زالتِ الجدران؛ فانكشف المخبوء، وذاعتِ الأسرار، وصارَ من فيها كأنّهم يمشون في السّوق بلا ثياب". (ص8/7)

وهو يكثر من ضرب الأمثال، وخصوصًا الأمثال التي تعكس ثقافة ما بعد عصر التدوين العربي، يمثّل عن نفسٍ سَمَتْ بالتواضع، فهو يضرب لنفسه مَثل "حمار الشيخِ في العقبة"، ليصف حاله حين يستطرد بالحديث، ثم يرغب بالرجوع إلى موضوعه الأساسي، لكنه ينسى ذلك الموضوع، ويقف حائرًا ماذا يقول، (ص1/19) وفي موضع آخر يضربُ لنفسه مَثل "حمار الساقية"، الذي ألِف الدوران حولَها إشارة إلى اعتياده الوحدة وألفته لها، حتى غَدا لا يطيقُ تغييرها، (ص7/393) وفي موضع ثالث يضربُ لنفسه مَثلًا بصاحب الحمار الذي قيل له: أيُّ حماريك أسوأ؟ فقال: هذا، مشيرًا إلى كلا الحمارين (ص4/350)، كما يشبه حاله في ضياعه وتخبطه في مطار "فرانكفورت" بالصرصور في القدر الفارغة الملساء الجوانب، (ص209/ 7) وفي موضعٍ آخر يشبه نفسه بـ "هبَنّقة" الأحمق، الذي كانت له قلادةٌ يضعها حول عنقه، ليعرف بها نفسه، فلّما سرقها أخوه ذاتَ

ليلة وتقلدها، استيقظ "هبنقة" ورآها على أخيه، فقال: أنت أنا، فمن أنا؟! ليدلّ بذلك على تساؤله عن طبيعة شخصه ومن يكون! كما يشبه حاله في صعوده سلم الشهرة بحال "جحا" الذي غنّى، فأعجبه صوتُه، ولكن حين وُضع أمام جمهورٍ كبير عجز عن الأداء (ص1/38). وهكذا لا يزال يضربُ الأمثال مقربًا الفكرة إلى ذهن القارء، ومحققًا -من دون قصد- هدفين: الأول، التقليل من نفسه والتعبير عن تواضعه، وهو تواضع يترفّع به عن المهانة والضعف، فقد وصف نفسه بالقول: "... فأنا جريءٌ، عنيفٌ، حادّ المزاج، سريعُ الغضب، كما أني سريعُ الرّضا، بل لأني أردّ الصاع صاعين أو ثلاثة، إن كان الذي يكتب عنّي كبيرَ القدر في الأدب، أو في الفكر، أو كان الموضوع، مما لا يجوز السكوت عنه" (ص2/8)، فإن أضفنا إلى هذه الصدامية، حركة التجديد الفكري التي قادها، أدركنا لماذا ملأ الدنيا وشغل الكتّاب، وبات مرمى بارزًا لسهام الصحافة، كما أشار في أكثر من موضع. والثاني تثقيف القارئ، وربطه بثقافته العربيّة الأصيلة، حين جره إلى البحث في قصص تلك الأمثال، وأنساقها الظاهرة والمضمرة.

المنهج والخطة:

يلمس قارئ الذكريات ثلاث ملاحظات في منهجها: 1- تداخل الأحداث وعدم تسلسلها، 2- التكرار، 3- الاستطراد. وكان المؤلف شفافًا حين صرّح أنه -خلافاً لنهج كتاب المذكرات والسير- بدأ الكتابة وليس في ذهنه خطّةٌ يسير عليها ولا طريقةٌ يسلكها، وكان شبه مكره على الكتابة، وكثيرًا ما كان يكتب الحلقة، ولا يعرف ما الذي يأتي بعدها، أو ينسى ماذا كتب قبلها، فجاءت غريبة عن أساليب المؤرخين الذين يتبعون ترتيب الزمن، أو ترتيب الأحداث وفق الأسباب والنتائج، وهو بذلك سار وفق قانون التداعي أو توارد الخواطر، وقد أرجع هذا إلى أنّه لا يملك وثائق دوّن فيها عن الأحداث في حينها، ودوّنَ أثرها في نفسه، إضافة إلى أنه لا يملك ذاكرة غضة قوية، وإنما هي ذاكرة أدركها الكبر، وتسرب إلى مكامنها النسيان؛

هذه المذكرات وثائق هامة للعصر الذي دوّنت عنه، تقدّم تصوراً صادقاً عن أمكنته وشخوصه وقضاياه، وهي وثائق غنية للمؤرخ أو السياسي أو الصحفي

ولذلك آثر أن تسمّى "ذكريات" لا مذكرات، فالمذكرات تعتمد على الوثائق، والذكريات تعتمد على الذاكرة.

وهو ما نبّه عليه المحقّق أيضًا، حين أشار إلى أنّ المؤلّف كان يتحدث عن الفكرة حديثًا موجزًا، ثم قد يعودُ لها أكثر من مرة، ويتناولها في حلقات تالية، وبرّر ذلك بأنّ المؤلّف حين بدأ الكتابة، لم يكن قد وضع خطّة للكتاب، ولم يتصور أنّه سيتوسع فيها بالقدر الذي صنع (1/18). وبناء على هذه الطريقة قد يتحدّث عن طفولته في حلقة، ثم ينتقل إلى مرحلة الثانوية في حلقة بعدها، ليعود إلى الطفولة بعد حلقات عدة حسب المناسبة والحديث. فإذا علمنا أنّه بدأ الكتابة، وهو الخامسة والسبعين أدركنا أنّنا أمام بحرٍ لُجاج من الذكريات، لكن ما عدّه المؤلف عيبًا قد يكون ميزة تسِم الحديث بعفوية الخلّان والأحباب.

وأما عن التكرار، فقد نبه عليه المحقق بالقول: "وسوف يجد قارئ هذه الذكريات أنّ في بعض مواضعها تكرارًا، فيقرأ في حلقة وصفًا لأحداث قرأ عنها في حلقةٍ مضت، أو حديثًا عن أعلام سبق الحديث عنهم في ما مرَّ من حلقات، (وهو أمر اعتذر عنه المؤلف غير مرة في ثنايا الذكريات)، وكلّ ذلك تركتُه لم أمسّ منه شيئًا، ولم أعلّق عليه مشيرًا إلى تكراره؛ لأنّ المناسبة جرّت إليه هنا كما جرّت إليه هناك، ولأن الحديث -وإن تكرر- قد جاء بصورة غير الصورة أو بكلماتٍ غير الكلمات" (1/10).

ولعلّ المتأمّل لهذه الطريقة يدرك أن هذا بعضٌ من نهج القرآن الكريم في تكرار القصص، ففي كل مرّة كان يُعرَض جانب منها بصيغة مختلفة عن سابقاتها ولهدف مختلف؛ ما جعل الدارسين ينكرون التكرار في القرآن الكريم من أساسه. كما أن للتكرار فائدة نفسية؛ فكلّما أعيد ذكر الحدث أو الشخصية استحضرها الذهن طازجة حيّة، وربط بين وجودها في السياق الحالي والسياق السابق.

أمّا الاستطراد: فهو سمة بيّنة منذ الحلقة الأولى، وكثيرًا ما يترك الحادثة الأساسية، وينساق خلف حادثة جانبية أو مكان أو شخصية، وهو أمر نبّه إليه وحذّر منه منذ البداية أيضًا، وكرّر ذلك التحذير. أمّا عن سبب هذا الاستطراد، فهو يستأنس بكتب الأدب العربي القديم، في تبرير هذا النهج الذي عدّه عيبًا، وأشار إلى ما في كتاب "الحيوان" للجاحظ كمثال على تجذّر هذا النهج في الكتابة العربية. ويعتمد الاستطراد على قانون تداعي الذكريات، فما إن يستحضر الذهن حدثًا حتى يجرّ حدثًا آخر متعلقًا به، ثم يسترسل بالحدث الفرعي ناسيًا موضوعه الرئيس، لكنه سرعان ما يتنبه، فيعود إليه. لعلّ في ذلك خروجاً عن سبيل الكتابة المنهجيّة للمذكرات، لكنه أسلوب يقرّب الحديث إلى النفس، يريحها من عبء التركيز، ويدفع عنها الملل، وإن كان سببًا في الإطالة وكثرة الفقرات.

كلمة في الذكريات:

صحيح أنه تعذّر عليّ قراءة الذكريات كاملةً، ولكن ما لا يُدرك كلّه لا يُترك جُله، وبناء على ما قرأته من الحلقات وهي كثيرة، يمكنني بكثير من الاطمئنان القول: إنّ هذه المذكرات وثائق هامة للعصر الذي دوّنت عنه، تقدّم تصوراً صادقاً عن أمكنته وشخوصه وقضاياه، وهي وثائق غنية للمؤرخ أو السياسي أو الأديب أو الصحفي، حين يريد معرفة تفاصيل دقيقة عن حياة هذه البقاع في أهم مرحلة من مراحل تاريخنا المعاصر، وخصوصاً دمشق، ولعلّ قوتها تكمن في المعاينة الشخصية، واللغة الأدبية التي تمتّع قارئها، أمّا ما يمكن أن يؤخذ عليها، فهو أنها دوّنت بالاعتماد على الذاكرة، والذاكرة تنسى وتتخيل وتنتقي، وهو أمر نبه إليه المؤلف منذ البداية وحذر منه، لكنّه كان يعتمد في كثير من رواياته على مقال كتبه عن الموضوع، أو كتاب أو قرار صدر، وكلّها وثائق قوية.

أكبر خطأ ارتكبه والدي عدم شق الحزب مبكراً، فلا صداقة ولا مفاهيم فكرية مشتركة، ولا ودّ يجمعه مع ميشيل عفلق، ومع صلاح البيطار.

أكبر أخطاء أبي

بقلم: جهاد أكرم الحوراني

ربما لم يرد شق الحزب؛ لأن الأفرع العربية كانت أقرب إلى ميشيل عفلق، ولكن الحوراني في سوريا هو الحزب، وهم أقلية ضئيلة.

أظن أنه أخطأ أيضاً في حماسه للوحدة مع عبد الناصر، رغم أنه لم يكن حماسه وحده، ولم يتوقع أحد أن يحول عبد الناصر الرغبة الوحدوية، لدى معظم السوريين والأحزاب السورية إلى انقلاب عسكري، ولكن تاريخ عبد الناصر، وصراعه مع محمد نجيب، وصراعه مع الضباط الذين أرادوا عودة الجيش إلى ثكناته، كان يجب أن ينبه الجميع، وبالأخص سياسياً مثل أكرم الحوراني، إلى نوايا عبد الناصر.. وقد استقال والدي من دولة الوحدة، ولكن بعد أن فات الأوان.

في رسالة لوالدتي يشكو الحوراني من ميشيل عفلق، ويقول: "يكاد يفقدني أعصابي"، بعد أن أبدى عفلق، وصلاح البيطار رغبتهما باللجوء إلى عراق نوري السعيد، مع أن كل انقلاب الشيشكلي، كان لمنع ضم سورية إلى العرش الهاشمي، وحلف بغداد... ووصل الأمر إلى حد الاشتباك بالأيدي، منعه البيطار بينه وبين ميشيل، وقال لهما: ستُتهمان بالعمالة لحلف بغداد من قبل الشيشكلي.

حدث هذا في إيطاليا، عندما لجأ الثلاثة إليها، وتسبب الخلاف في انفصاله عنهما، وإقامته في شقة وحده.

حقيقة حتى اليوم، لا أفهم كيف استمر معهما، وكانوا السبّاقين إلى فصله من الحزب 1962، فيما سمّي بـ "المؤتمر القومي الخامس" الذي عُقد في حمص بوجود ميشيل عفلق وحده كسوري، (وحتى البيطار لم يحضر)، و14 عراقياً تمهيداً لـ 8 آذار و8 شباط 1963 في العراق، والصلح مع عبد الناصر، الذي اعتبر الحوراني عدوّه الأول في سورية. وقد عُقد المؤتمر بمنزل الجاسوس فرحان الأتاسي الذي أُعدم لاحقاً، لتسريب معلومات عن الأسلحة السورية إلى أمريكا. المؤتمر كان أمريكياً بامتياز، وهناك فقرة في مذكرات الحوراني تتحدث عن التمويل والمكان.... كان العراقيون متصلين بعميل المخابرات بالمركزية الأمريكية (ماجد شيخ الأرض)، عرّاب كوهين، ونصوص المحاكمة لا تخفي ذلك، وقد جاء في مذكرات الحوراني حول ذلك المؤتمر:

"لقد شعر ميشيل علفق، بأن صلاح البيطار قد تخلى عنه، وبقي وحيداً في سورية، فاستدعى فرع العراق بقيادة علي صالح السعدي، وقيادات الفرع في لبنان، لعقد المؤتمر الذي سمّي بالمؤتمر القومي الخامس".

انعقد هذا المؤتمر في مدينة حمص في بيت المدعو فرحان الاتاسي، الذي أُعدم بعد الثامن من آذار، بتهمة التجسس لصالح المخابرات المركزية، ومن الجدير بالذكر أنه لم يشترك أي قيادي سوري في هذا المؤتمر، مما دعا المؤتمر إلى إصدار قرار بجواز تطعيم القيادة القطرية في سورية، عند تأليفها بأعضاء حزبيين من الأقطار العربية الأخرى، كما صدر عن هذا المؤتمر بيانان ونشرة داخلية، والكلمة التي ألقاها عفلق (نضال حزب البعث عبر مؤتمراته القومية).

وكان مبرر انعقاد هذا المؤتمر، كما جاء في بياناته هو إعادة تنظيم الحزب

وانتخاب الأمين العام، والدعوة لتحقيق الوحدة الاتحادية بين مصر وسورية، والعمل على انسحاب الوزيرَين البعثيين من الحكم وإسقاطهما، وفي حال رفضهما الالتزام بذلك يصدر الحزب بياناً، يعلن فيه عدم علاقته بهما. كما قرر المؤتمر محاسبة القيادة القومية السابقة؛ "بسبب ميوعتها، وعدم انضباط بعض أعضائها وغموض مواقفها من القضايا الأساسية، وانتخاب قيادة قومية جديدة". والسبب في صدور هذا القرار هو أن المؤتمر القومي السابق الذي انعقد في بيروت عام 1959، بعد الوحدة، بدعوة من عبدالله الريماوي قد قرر إسقاط جميع ما كتبه ميشيل عفلق من أدبيات الحزب. والذي قدرته بعد اطلاعي على بيانات المؤتمر الخامس، وقراراته إن هدف ميشيل عفلق من انعقاده، هو حل الحزب وتنظيمه من جديد بقيادته، وإن مشروع تحقيق الوحدة الاتحادية الذي ورد في القرارات لم يكن إلا تغطية لغرض هذا المؤتمر، ومحاولة منه لإفساح المجال أمام صلاح البيطار للانضواء تحت قيادته، ومما زاد اقتناعي بذلك ما جاء في كلمة ميشيل عفلق، وفي البيانين الصادرين عنه من عبارات، كانت كافية لاستبعاد أي اتحاد، أو اتفاق مع جمال عبد الناصر.

***

بحثت عن أخطائه لأنه أبي، لكني عرفت أنه لم يتصل يوماً بجهة أجنبية، وكانت قضية النزاهة والمال العام قضيه حدّية جداً لديه، وحتى إهماله أموال الأسرة.

كان عليه أن يؤسس بوضوح أكبر لمدرسة فكرية تعبر عنه، وتكون بداية الطريق لحزبه، وأن يكون العمل التنظيمي دقيقاً لديه، وهذا لم يحدث، ربما الصراعات، واضطراب سورية لم يتح الوقت لديه لذلك.

بعض من عاصره، وحتى باتريك سيل، يقول: إن أكبر خطأ ارتكبه الحوراني، كان

بحثت عن أخطائه لأنه أبي، لكني عرفت أنه لم يتصل يوماً بجهة أجنبية، وكانت قضية النزاهة والمال العام قضيه حدّية جداً لديه، وحتى إهماله أموال الأسرة.

أكرم الحوراني مع ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار في روما

صدامه مع عبد الناصر، ويقول: لولا ذلك، لربما أصبح كاسترو سوريا. وقد التقيت أحد الضباط من تلك المرحلة الذي قال لي: "إني رجوت والدك ألا يصرح ضد عبد الناصر الذي كان وقتها ما يشبه النبي عند العرب".

ولو عدنا إلى 8 آذار، وحتى البيان الأول الذي أصدره الانقلاب، نجده يهاجم (من أرادوا استبدال الوحدة بالديموقراطية المزيفة). لم يكن ضباط البعث، ولا حتى ميشيل عفلق يريدون عودة الوحدة، بل إن ضباط البعث كانوا يكنون لعبد ناصر كرهاً شديداً، وحتى إن ميشيل عفلق كان هارباً إلى لبنان أثناء الوحدة، بعد علاقته بضابط مصري اسمه عويس، خطف بتابوت إلى مصر والمحاولة الانقلابية غامضه ليس لها تفاصيل.

لاحقاً، استغل ضباط 8 آذار ذلك كقميص عثمان، بتهمة الانفصالية على الحوراني، وهو عروبي حدّ التزمت، ولا ننسى الإعدامات بحق الناصريين في 18 تموز 1963 بعد محاولتهم الانقلابية.

حقاً، كان على أبي أن يهادن عبد الناصر، وربما مبرره خشية عودة عبد الناصر إلى سورية، رغم أن عبد الناصر أرسل له أشخاصاً في البداية للتعاون معه لإسقاط نظام الانفصال.

أظن أنه أكبر خطأ تكتيكي سياسي، ساهم في استغلال ميشيل عفلق لقضية الوحدة، وتسلط ضباط اللجنة العسكرية على الحكم... وحتى اليوم هناك من يلوم أكرم الحوراني على تأييده للانفصال، ويتحسر على الوحدة المحكوم عليها بالفشل... ومع افتراض عودتها ذلك الوقت، فإن أسلوب حكم عبد الناصر لم يكن ليتغير.

مذكرات أكرم الحوراني

أدان الجميع وبَرّأ نفسه!

بقلم: سعد فنصة

دون أدنى ريب، نشأ أكرم الحوراني في دار من دور الأسر المتوسطة، التي تتصف بالحس العروبي الوطني في مدينته حماة. توفي والده وهو لم يزل طفلاً صغيراً في سنواته الخمس الأولى، وكان عمه مصطفى الحوراني أحد الشخصيات الرئيسة في تكوّن وعيه السياسي المبكر، عندما كان يدرس في تجهيز مكتب عنبر دمشق في بلاد يتنفس أهلها السياسة والكفاح الوطني في رغيف الخبز.

كان عمه مصطفى يدرس الحقوق في دمشق، وأحد أعضاء الكتلة الوطنية، ويَؤمّه عدد من رفاقه وزملاء دراسته، منهم الشاعران أمين نخلة، ومحمد البزم، واللذان كانا يصحبانه إلى الحفلات السياسية والجماهيرية للزعامات الوطنية: فوزي الغزي، وهاشم بك الأتاسي، وإبراهيم هنانو، وغيرهم الذين شكلوا بخطبهم وحماسهم الوطني تاريخ القضية العربية والسورية، وتطورها في وعي جماهير عريضة، اخترقت حدود الجغرافية السورية، وكان تأثر الجماهير العريضة بها كبيراً، خلال مرحلة الانتداب الفرنسي.

في سابق الأيام تعرّف على عثمان الحوراني، أحد أبرز الشخصيات الوطنية الشهيرة، وصدف أن كان أحد أقربائه الأبعد، قد عمل على إذكاء التمرد ضد سلطات الاحتلال الفرنسي في سوريا. كانت تلك الشخصية ذات شهرة، ليس في سوريا وحدها، إذ كان لقبه يسبقه والمكنّى بـ "أبو الثورات" شارك في ثورة عام 1925، وفي جميع الانتفاضات الشعبية المسلحة التي كانت تشتعل بين الفينة والأخرى في سوريا والعراق، وليكون في مقدمة الثائرين العرب، حتى حُكم بالإعدام، وفرّ إلى العراق، إلى حين أبعدته السلطات العراقية التي لجأ اليها، إلى البحرين، بعد صدامه مع البريطانيين.

عثمان الحوراني أحد الرموز البارزة لمؤسسي حركة القوميين العرب، مع رفيق دربه الطبيب توفيق الشيشكلي وغيرهم من رجالات تلك الحركة، إضافة إلى أنه مؤسس حزب (الشباب)، والذي انتسب إليه أكرم الحوراني في مطلع شبابه، ومن خلاله بدأ اتصاله بالعمل السياسي، ويرجح كثر من رفاق تلك المرحلة أن الزعامة الوطنية والفعلية الحقيقية كانت لعثمان الحوراني، وبالرغم من غياب عثمان الحوراني عن المشهد السياسي، في ما بعد، اختطف أكرم الحوراني الراية الوطنية بعد أن راوده طموحه أن يكون رائداً وطنياً وسياسياً، مثل قريبه عثمان الحوراني الذي يكبره بعشر سنوات، ولأن يكون ملهماً للكثير من الشباب المتحمس بالشعارات القومية والتحررية.

وقبل انتسابه لحزب الشباب كان أكرم الحوراني منتسباً للحزب السوري القومي، وقد أتى باقتضاب على ذكر تاريخ انتسابه لحزب أنطون سعادة عام 1936، وإنه غادره بعد عام واحد، إثر لقاء تم بينه وبين مؤسس الحزب في منزل صلاح الشيشكلي المنتمي إلى الحزب، لينضم إلى حزب الشباب في حماة، باعتباره بديلاً أو منافساً للكتلة الوطنية برموزها السياسية التقليدية آنذاك. وفي سطر واحد، ودون إيراد أي تفاصيل إضافية، وبقفزة واحدة من نهاية الثلاثينات إلى مطلع الخمسينات، أورد فكرة تحول حزب الشباب من مؤسسه عثمان الحوراني إلى أكرم الحوراني بعد تغيير اسم الحزب.

فخلال نهاية ثلاثينات القرن الماضي، وخلال

زيارة موكب شعبي لقبور الشهداء، تكريساً لفكرة حزب الشباب على التضحية في سبيل الحرية والمُثل الوطنية العليا، كتب يقول: "كانت الجولة على قبور الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم في ثورات سورية المتعاقبة خير فاتحة لميلاد حزب شعبي تحرري، سمّي في ما بعد بداية الخمسينات (الحزب العربي الاشتراكي).

وقد فسر بعض كتاب المذكرات والشهود العارفين ببواطن الأمور، أن أصول الزعامة الفكرية المؤسسة في حماة، كانت لشخصية فريدة في العائلة، هو عثمان الحوراني، وقام هو بحياة عينه، ليس باستلام شعلة الحزب أو الفكر للتأسيس عليه، بل نسب حزب الشباب في ما بعد إليه، وأصبح الحزب العربي الاشتراكي عام 1950.

والواقع أن هناك خللاً بيّناً في شهادة أكرم الحوراني التي قفز عليها وتجاوزها في مذكراته، فهو يقول إنه غادر الحزب السوري القومي نهائياً في العام 1937، بينما يدعي عليه الحزب، بأنه فُصل من الحزب باعتباره "عضواً غير جيد"، كونه أعطى اهتمامه لحزب الشباب، المختلف فكرياً وإيديولوجياً عن الحزب السوري القومي.

ويذكر هذا المصدر في الحزب السوري القومي، إن أكرم الحوراني قد دعاه إلى جولة في ريف حماة، وأراه خلالها أراضي العوائل الكبيرة المتنفذة في حماة، وأقسم له بأن يقضي عليها، معترفاً بصعوبة جذب المنتسبين للحزب القومي السوري، مضيفاً بأنه من الأفضل أن ينشئ حزباً خاصاً به، يكون مناسباً للتوجه الشعبي في حماة، وبعد أن تترسخ قواعد هذا الحزب، ويبدأ بالنمو فإن الحوراني سينقله إلى الحزب السوري القومي (أكرم الحوراني- دراسة حول السياسة السورية بين 1954/1943 جوناثان أوين - ص31).

في نهاية الثلاثينات انهمك أكرم الحوراني بالعمل في (حزب الشباب)، مع قريبه عثمان الحوراني، وصعد إلى موقع القيادة بسرعة كبيرة، فالحزب بالأصل تنظيم صدامي يفتقر إلى الإيديولوجيا السياسية، إلا محاربة

هناك خلل بيّنٌ في شهادة أكرم الحوراني التي قفز عليها في مذكراته، فهو يقول إنه غادر الحزب السوري القومي نهائياً في العام 1937، بينما يدعي عليه الحزب، ويقول بأنه فُصل باعتباره "عضواً غير جيد"

يذكر محمد معروف في مذكراته أنه قام بنفسه بتزوير أرقام المنتخِبين لأكرم الحوراني عام 1934، وعندما سئل أجاب إن ذلك كان بناء على طلب شخصيتين عسكريتين بريطانيتين نافذتين

الانتداب والحكومات الموالية له، واستطاع أن ينظم مظاهرات احتجاجية كبيرة، وفي السنوات التالية أنعش اندلاع الحرب العالمية الثانية آمال العرب القومية، ورأى بعض الساسة العرب أن انتصار دول المحور (ألمانيا -إيطاليا - اليابان)، سيحقق حلمهم بالاستقلال، فساندوا المحور، وكان أكرم الحوراني قد التقى مندوب ألمانيا مرتين في عام 1941، بحسب تقارير استخباراتية فرنسية، وصفته بأنه مساند بارز لألمانيا النازية، ولم تكن هناك أدلة تبرهن أن اتصالات الحوراني مع المندوبين الألمان كانت أكثر من مجرد لقاءات. وقد ترجم الحوراني معاداته للانتداب، وتأييده للقومية العربية بانضمامه إلى ثورة رشيد علي الكيلاني في العراق عام1941، تلك الثورة التي كان مردها الانتكاسات العسكرية البريطانية، ودخول هتلر باريس منتصراً دون حرب، ظناً منهم بأن انتصار دول المحور على البريطانيين والفرنسيين أصبح أمراً وشيكاً.

انتُخب أكرم الحوراني لمجلس النواب في العام 1943، وهو لم يتجاوز الثانية والثلاثين، ويذكر محمد معروف في مذكراته (أيام عشتها) ص96 أنه قام بنفسه بتزوير أرقام المنتخِبين لأكرم الحوراني في ذلك العام، دون أن يقدم أي تفاصيل عن السبب والدافع، ولكنه عندما سئل أجاب محمد معروف إن ذلك كان بناء على طلب شخصيتين عسكريتين بريطانيتين نافذتين، كانتا تعملان كمستشارَين عسكريَين في وزارة الدفاع السورية.

ويفسر الصحافي مطيع النونو في مقال طويل دوّنه عن مذكرات أكرم الحوراني، قال فيه: "إن حرص أكرم الحوراني على الظهور السريع في الحقل السياسي، دفعه للتقلب خلال هذه السنوات القليلة بين اتجاهات حزبية ومبادئ ثورية، وبما أن وضعه كان لا يساعده على الفوز بالانتخابات؛ بسبب قوة ونفوذ الأسر الكبيرة في حماة، مدينة وريفاً، فعمل الحوراني على إطلاق مبادئه الاشتراكية، في محاولة لضرب العائلات النافذة في مدينته حماة، وكان الرئيس القوتلي قد اقترح على رجال السياسة تشكيل قوائم موحدة للمرشحين في كل المدن والمناطق، واتفق على إيفاد الزعيم الوطني الحلبي سعد الله الجابري، الذي أخذ على عاتقه الضغط على زعيم حماة فريد العظم، ليرجوه وضع اسم أكرم الحوراني في قائمته الموحدة، وهكذا كان، عندما أُحرِجَ فريد العظم، نفذ طلب الجابري، واستطاع الحوراني الفوز بالنيابة، ولكنه ظهر في ما بعد العدو اللدود للرئيس القوتلي، ولفريد العظم وأثرياء حماة، من العائلات التقليدية النافذة، وقد عُرِف عنه أنه دفع طلاب المدارس الثانوية والمعاهد للانخراط في الجيش؛ بهدف تهيئة قيادات عسكرية لمساندته في طموحه لبلوغ منصب رئاسة الجمهورية".

وخلال حملاته البرلمانية على مُلّاك الأراضي نصرة للفقراء والفلاحين، سعى أكرم الحوراني للتغيير الراديكالي في العام 1947 خلال الانتخابات البرلمانية، استطاع أن يقلص نفوذ العائلات الإقطاعية، وإظهار الفلاحين كقوة مؤثرة في الحياة السياسية السورية"، وكان ذلك أحد العوامل المؤثرة في بروز انتصاره الانتخابي،

وتأسيس قاعدة انتخابية تؤيده بعد الاستقلال. ولم يعد الحوراني بحاجة إلى التحالف مع الحزب الوطني لضمان دخوله البرلمان، فكان توجهه المباشر نحو الفلاحين وشعبيته كفيلة بإنجاحه هذه المرة في انتخابات العام 1947.

وعندما قام حسني الزعيم بانقلابه في الحادي والثلاثين من آذار عام 1949، كان أكرم الحوراني إلى جانبه في مركز قيادة الشرطة بدمشق صبيحة الانقلاب، يكتب بيانات الانقلاب، بحسب الرواية الرسمية للانقلاب بشهادة العقيد بهيج الكلاس، والصحافي نذير فنصة، عديل الزعيم وكاتم أسراره في ما بعد، خلال تنصيب الزعيم نفسه لرئاسة الجمهورية، ولكن حسني الزعيم استبعد الحوراني، وقرّب منه الدكتور محسن البرازي الأمين العام لرئاسة الجمهورية، وأستاذ أكرم الحوراني في كلية الحقوق، فنقم الحوراني على الاثنين، فقد كان يطمح إلى لعب دور سياسي أكبر، مما ظنه لنفسه في عهد حسني الزعيم، واستثمر في خطئهما بتسليم أنطون سعادة مؤسس الحزب السوري القومي إلى رياض الصلح في لبنان، الذي حاكمه وأعدمه في يوم واحد، كما هو معروف؛ لذلك بدأ يحرّض ضباط الجيش الشباب على حسني الزعيم، ويوجه الحملات ضده قائلاً: "لن يترك حسني الزعيم كرامة ولا شرفاً للسوريين إلا وينتهكه، فرد عليه بعض الضباط المتحمسين: لعيونك يا أبا رشيد"، ولن تتأخر حركة الانقلاب التالية بزعامة اللواء سامي الحناوي، إلا وكان أكرم الحوراني بطلها الظليل... وهكذا دواليك، تكرر الأمر مع أديب الشيشكلي، والذي كان يطمح أن يقدم إليه صديق طفولته ونضاله رئاسة الوزارة أو الجمهورية، ولكن أديب الشيشكلي عاد إلى موقعه السابق نائباً لرئيس الأركان وسلّم الرئاسة إلى متقدمه العسكري الزعيم فوزي سلو، واحتفظ أكرم الحوراني بوزارة الدفاع، حتى دبّت الخلافات بينه وبين أديب الشيشكلي، وأصبح مع زعماء حزب البعث (عفلق والبيطار)، بعد اندماج الحزبين، منفيين، بعد فشل أحلامه بتنفيذ سياساته (التقدمية)، بحسب رؤيته ورؤية حزبه الاشتراكي، التي سرعان ما كانت تصطدم بصخرة الوقائع المغايرة عن طموحه

صفوح البرازي والدكتور محسن الشيشكلي ابن شقيقة اكرم الحوراني مع زوجته مها الحوراني ابنة محي الدين الحوراني - باريس 1994

عندما قام حسني الزعيم بانقلابه عام 1949، كان أكرم الحوراني إلى جانبه في مركز قيادة الشرطة بدمشق، يكتب بيانات الانقلاب، بحسب الرواية الرسمية للانقلاب بشهادة العقيد بهيج الكلاس، والصحافي نذير فنصة، عديل الزعيم وكاتم أسراره

احتفظ أكرم الحوراني بوزارة الدفاع، فدبّت الخلافات بينه وبين أديب الشيشكلي، وأصبح مع زعماء حزب البعث (عفلق والبيطار)، بعد اندماج الحزبين، منفيين، بعد فشل أحلامه بتنفيذ سياساته "التقدمية"!

السياسي بالتغيير المجتمعي العميق، كما في تركيا الأتاتوركية، أو روسيا الشيوعية، أو الصين (الشعبية).

وأمام تدخل الحوراني في صفوف القيادات العسكرية، أصدر الزعيم أنور بنود رئيس أركان حرب الجيش السوري آنذاك بلاغاً، حذّر فيه العسكريين من التدخل في أي شأن من شؤون البلاد، وذكر البلاغ المواطنين بأن قانون العقوبات العسكري الجديد ينص صراحة في مادتَيه 150/149على ملاحقة كل مدني (يشوّق) أحد العسكريين للانضمام إلى حزب، أو جمعية أو مؤسسة ذات هدف سياسي، وإذا قبل المسؤولون عن إداراتها بين الأعضاء شخصاً عسكرياً، تُسحب منه رخصة الحزب نهائيا، وتُغلق مكاتبه، وأماكن اجتماعاته.

لقد كان هذا البلاغ موجهاً بشكل خاص إلى السياسي أكرم الحوراني، الذي حاول استغلال وجوده في منصب وزارة الدفاع، ليشوّق العسكريين على الانخراط في حزبه، وتحذيراً للقيادات العسكرية وخصوصاً من بينهم صغار الضباط.

وكان ذلك السبب الرئيس المباشر لتأزم العلاقة بين أديب الشيشكلي، وأكرم الحوراني، والذي أدى بالنهاية إلى فراق سياسي بين الزعيمين.

ما يؤكد هذا التوجه للحوراني ما نشره جوناثان أوين في كتابه عن أكرم الحوراني ص(92) نقلاً عن الدبلوماسي الأمريكي فان دوسن، إذ كتب يقول: "كان الحوراني بالنسبة إلى الساسة المدنيين السوريين أهم شخص، يتحمل مسؤولية تسييس الجيش بعد الاستقلال".

يُجمع عديد من العسكريين والساسة والصحفيين في شهاداتهم المسجلة في كتب أو مقالات، أو في لقاءات حوارية متلفزة عن مذكرات أكرم الحوراني، بأنها لم تكن موضوعية، ناهيك عن إساءاتها المتعمدة لشخصيات تاريخية وطنية. كان في مقدمة من أُسيء إليهم الرئيس شكري القوتلي، وخالد العظم، وأديب الشيشكلي وغيرهم، إذ كتب الأمين العام السابق لرئاسة الجمهورية عبد الله الخاني مقالاً مطولاً شديد اللهجة، بعنوان (الحوراني في كل انقلاب، ومع كل انقلاب، وعلى كل انقلاب) مقتبساً من الصحافي كامل مروة هذا العنوان العريض لمسيرة الشيشكلي السياسية، مع عسكر سورية، إذ كتب الخاني في صحيفة الحياة الصادرة بلندن في العدد 6812 بتاريخ 1997/7/23 يقول: "وقد راعني ما وجدت فيها من مغالطات واتهامات وتجنٍّ فاضح - يقصد مذكرات أكرم الحوراني - على الرئيس شكري القوتلي، وعلى التاريخ، والوطنيين الأحرار في سورية...".

أما أديب سورية الكبير عبد السلام العجيلي، فكتب في (ذكريات أيام السياسة، ص 169) ما نصّه عن رأيه في مذكرات الحوراني: "وأما ما آخذه عليه كان تشككه في كل مايراه بعيداً قيد شعرة عما يراه هو صواباً، وعنفه في حكمه على الآخرين وسهولة طعنه بمن لا يرضيه، متهماً إياه في كثير من الأحيان بالرجعية، وربما بالعمالة أو بالخيانة والجاسوسية، هذه الجوانب الأخيرة من طباع أكرم الحوراني أكثرت من أعدائه الكارهين له، كما ساقته إلى ارتكاب أخطاء جسيمة عانى منها هو شخصياً الكثير، وعانى وطننا وشعبنا الكثير أيضاً..".

كتب عبد السلام العجيلي في (ذكريات أيام السياس) عن رأيه في مذكرات الحوراني: "وأما ما آخذه عليه كان تشككه في كل مايراه بعيداً قيد شعرة عما يراه هو صواباً، وعنفه في حكمه على الآخرين وسهولة طعنه بمن لا يرضيه، متهماً إياه بالرجعية وربما بالعمالة أو بالخيانة

اعتذر د. محسن الشيشكلي عن كتابة مقدمة لمذكرات الحوراني قائلا له: "يا خالي العزيز.. لقد دونت في مذكراتك الذي لك، وأغفلت الذي عليك"!

ويتابع العجيلي في الصفحة ذاتها عتباً على أكرم الحوراني، بأنه أسقط من مذكراته: "وقائع كثيرة أظن أنه كان يحسن بأكرم أن يرويها في مذكراته".

ويشير إلى روايتين شهدهما بصحبة الحوراني، تعمد الأخير عدم إيرادهما، منها على سبيل المثال، عندما قدم الرئيس القوتلي إليهما مظروفاً فيه مبلغ من المال، قبيل ذهابهما إلى فلسطين كمتطوعَين في معارك جيش الإنقاذ، وكيف اعتذر العجيلي عن قبول المبلغ، فطمأنه الرئيس بقوله إن هذه المساعدة هي من ماله الخاص، وليست من مخصصات الدولة؛ لأنهما نائبان برلمانيان يقومان بالتضحية بروحهما في سبيل مبادئهما ووطنهما ومُثله العليا، وقد يحتاجان إلى نفقات خلال وجودهما في فلسطين وتنقلاتهما، مع ذلك أصر العجيلي على رفض المبلغ، وعندما خرجا من مقابلة الرئيس عاتبه أكرم الحوراني على رفض المبلغ، وإضاعة هذه الفرصة!

والذي لم يعرفه العجيلي كم كان يخفيه المغلف المغلق من الجنيهات الفلسطينية، فعاتبه العجيلي على ملاحظته قائلاً له: "ما الذي سيقوله التاريخ عنا، هل ترغب بأن يقال عنا أننا قبضنا مالاً ثمناً لنضالنا الوطني، ولم يأتِ على ذكر هذه الحادثة نهائياً، كما فعل في قضايا أقل أهمية، وأقل دلالة، عن طيب طوية الرئيس القوتلي".

أختم هذه القراءة في مذكرات أكرم الحوراني بشهادة السيد صفوح البرازي، كما دونها في ذاكرته عام 1991، والتي تحدث بها الدكتور محسن الشيشكلي الحجة العلمية والقانونية، وأستاذ الدراسات الحقوقية في عدد من جامعات العالم العربي، وهو ابن شقيقة أكرم الحوراني، عندما أصر كاتب المذكرات على ابن شقيقته الدكتور محسن الشيشكلي لسعة اطلاعه، ومعرفته بتاريخ سورية، بمراجعة ما دوّنه الحوراني في المخطوطة، وكلّفه بكتابة توطئة المذكرات، التي نافت عن الأربعة آلاف صفحة، قبل دفعها للطباعة، وكان ذلك اللقاء بينهما في عمان بالأردن، ففعل وقرأها كاملة وأعادها إليه معتذراً عن تقديمها بقلمه، وعندما استفسر أكرم الحوراني عن سبب مقنع لاعتذار الدكتور محسن، أجابه بالحرف:

"يا خالي العزيز.. لقد دونت في مذكراتك الذي لك، وأغفلت الذي عليك".

ويقصد أن أكرم الحوراني أدان الجميع ونسي نفسه، في الأحداث التاريخية التي حصلت في سورية، وخصوصاً تلك التي شهدها أو كان المتسبب الرئيس في صراعاتها ومآسيها. فأجابه أكرم الحوراني: "إذن اعمل على مراجعتها وتصحيحها، كما ترغب وتعلم، ولك بذلك الفضل والخير".

اعتذر الدكتور محسن للمرة الثانية قائلاً لخاله أكرم:

"لا.. ليس أنا من يجب أن يراجعها ويصححها، بل أنت الذي يدرك قيمة الموضوعية التاريخية، والتي تقتضي بأن تكتب الذي لك والذي عليك".

تكمن إشكالية مذكرات الحوراني الكبرى بعد دراستي لها، ومقارنتها بشهادات قافلة طويلة من كتّاب المذكرات، من ساسة وعسكريين ووزراء سابقين، أنهم أجمعوا على أن أكرم الحوراني أدان الجميع وبرّأ نفسه.

ولم تكن براءته في مذكراته حقيقة يمكن أن يتقبلها أحد من الشهود الكثر على تلاعبه السياسي الفج في تاريخ سوريا الحديث، فقد لعب الحوراني أدواراً عميقة في تغيير الوجه المعتدل لسورية قبل وبعد الاستقلال، وفي تنمية الأحقاد الاجتماعية والسياسية بين مكونات المجتمع، وقد لا يتحمل هو وحده هذه المثلبة العميقة؛ لأن هناك غيره اشتركوا معه في جلب الطائفية السياسية المشوهة إلى سدة الحكم في سورية إضافة إلى الحقد الطبقي، الذي ساهم في دك أسافين عميقة بين مكونات الشعب السوري المتنوع، والذي هو بالأصل خليط اجتماعي، ومذهبي وطائفي، وعرقي ومناطقي وعشائري متأخر، في رداء شفاف من التحضر.

وحتى إذا لم يكن هو المسؤول الوحيد، فإنه على الأقل كان في المقدمة، حين أخرج من عباءته كل هذه الشعارات التي استبقت الريف فقيراً، بل ازداد فقره، وتدهورت الزراعة، وهُجرت الأرض ليعمل فلاحوها، إما في وظائف الدولة أو جنوداً وعسكريين في معركة التحرير تحت رايات من الحماس للشعارات الكبرى، التي لم تأتِ أبداً، إلا باحتلالات وهزائم جديدة، ولم تؤسس لتعليم، أو صحة سليمة، أو نظيفة للشعب السوري، أو ترسخ لحرية رأي، أو ديمقراطية حقيقية يمكنها أن تكون في يوم من الأيام بارقة أمل لتصحيح رؤيته ورؤية من التبست عليه أفكار حزبه الاشتراكي، وحزب رفاقه بأحلام البعث، حين رَوَّجها تلامذته وأتباعه مستثمرو الشعارات بخطبهم الجوفاء الطويلة، في زمن الاشتراكية، وجمعوا الأموال الطائلة، من إفقار الناس، ثم قاموا باستثمارها في الدول الرأسمالية.

إنها باختصار قضية السوريين التي

لعب الحوراني أدواراً عميقة في تغيير الوجه المعتدل لسورية قبل وبعد الاستقلال، وفي تنمية الأحقاد الاجتماعية والسياسية، وقد لا يتحمل هو وحده هذه المثلبة العميقة؛ لأن هناك غيره اشتركوا معه في جلب الطائفية السياسية إلى سدة الحكم

قضى الردح الأكبر من حياته، يدين الحكم الملكي الهاشمي في العراق والأردن طوال أكثر من نصف قرن، ثم قضى الردح الأخير من حياته بضيافة الملك حسين

تسبب بها أكرم الحوراني وصحبه، ولم يعترف بها يوماً.

المفارقة المرعبة أنه قضى الردح الأكبر من حياته، يدين الحكم الملكي الهاشمي في العراق والأردن طوال أكثر من نصف قرن، وليقضي الردح الأخير من حياته بضيافة الملك حسين، والذي زاره الملك بذاته في منزله، ليطمئن عليه ويروي له صراعه لطرد الحاكم العسكري البريطاني غلوب باشا من الأردن.

وعندما توفي في الرابع والعشرين من شهر شباط عام 1996، حاولت أسرته الاتصال بالرئاسة السورية، ليدفن في مسقط رأسه في حماة، كما أوصى أولاده بذلك، فجاء الرفض قاطعاً من أحد تلامذته (الأبرار) الخريجين من مدرسته السياسية، ممن أصبح رئيساً بفضل حكمة معلمه، وأستاذه أكرم الحوراني، وكان اسمه حافظ الأسد.

من تأليف الصحفي والكاتب اللامع
بشير فنصة
رئيس تحرير جريدة (الأنباء) و(ألف باء)

النكبات والمغامرات
مذكرات صحفي عاصر تحولات سياسية هامة ودوّنها بصدق
تاريخ ما أهمله التاريخ من أسرار الانقلابات العسكرية السورية ١٩٤٩ - ١٩٥٨

الناشر: دار يعرب - دمشق 1996

حكاية
أمين أبو عساف كما تتجلى في مذكراته

بقلم: إيمان أبو عساف

الحكاية التي بدأت في زمن كان الشوق الوطني والقومي، قد أولَم لموعدٍ ولقاء مع دولة تحمل جناحين، أحدهما يرفرف على طول مسافة ممتدة من الماء الى الماء، والآخر يذهب بعيداً، ليوقظ سورية الوطن من اغترابها الجغرافي، والسياسي والحضاري والأخلاقي.

أمين أبو عساف عاش ذلك العصر، دون أحمال عقائدية، ولا توجهات نحو قوة ما، وقد يميز هذا الرجل الذي أحيل إلى التقاعد عام 1958 في بداية عهد الوحدة بين مصر وسوريا، تلك المساحة من الأخلاق التي ولفته، ليتجه في مساره السياسي والعسكري، دون زيف أو تسويغ، فهو بحق سليل نوع من الرجال، الذين أحالوا الحسّ الوطني للشعور المنزه عن الأغراض إلى واقع وسلوك، وببساطة وشجاعة امتلك ذلك الفهم لمشروعه الوطني.

ولما كان الحراك النهضوي برمته بحالة ركود، كانت الرؤيا التي امتلكها رجال ذلك العهد أكبر من إمكانيات الواقع، والأهم هو علاقة التحقق المتعلقة بالتاريخ، إذ إن التاريخ هو الذي يهيئ لولادة كاملة، وفقد هذه العلاقة مع التاريخ قد يأتي بولادة متعثرة. ولكن لا يمكن إنكار ذلك العزم، وتلك الإرادة أمام التاريخ والضمير الإنساني، فلقد كان الرجل على عزم وإرادة وخلق، لكن التاريخ كان يغيب بهذا القدر أو ذاك عن الأذهان، ويكفي أنهم كافحوا في ظل وقت مأزوم، ومزدحم بوطأة الأثقال والأحمال الاستعمارية، والوضع المتردي انحطاطاً وتخلفاً. ومن هنا يأتي التقدير لرجال المرحلة، ومنهم أمين أبو عساف، فهم قوة الصدق، والنية الخالصة نحو الوطن.

ويقال إن أمين أبو عساف لقب برجل الانقلابات، وإذا تناهى هذا الوصف لأذهان العامة، لارتسمت صورة لرجل ذي طموح سلطوي، وله من الدهاء الكثير؛ الأمر الذي جعله يحرك الانقلابات، كما يرغب، ولكن الواقع كان غير ذلك تماماً. أمين أبو عساف، كما ظهر لي كقريب، وله سيرة عامة وخاصة، كان حريصاً على مرجعيات التربية والأخلاق، وتبدو مذكراته انعكاساً للواقع المحلي والوطني في ذلك الحين.ويبدو أن مذكراته الضخمة التي تأخر في كتابتها، وصدرت عام 1996، وتجاوزت الستمئة صفحة، كانت لها بداية ولكن تركت بلا نهاية، وكان يقصد أن هناك الكثير مما لم يتسنّ الوقت ليُسجل، وليس على قارئها أن ينطلق من مكان معين، أو حدث معين، ولا تحتاج لأي تأويل أو إعادة إنتاج، والنية كانت واضحة تماماً، وكان القصد ترك أثر لا يثير جدلاً، ولا أي نوع من الحنق.

وبدا بحياته الاجتماعية البسيطة، والتي أثرتها الى حد كبير التربية التي تلقاها في بيئته الاجتماعية، وذكر تحفظات البيئة الاجتماعية. في انطلاقته الأولى ودراسته، ولكنه لم يأبه، ويثق إلى أبعد حد، بأن مسلك أي فرد سيحدث عن هذا، أو ذاك من المزايا والصفات والأفعال، ولا يخفى أن دراسته في الكلية العسكرية، كانت في مرحلة تتعلق بتساؤلات مصيرية، وفي الكلية كان باحثاً عن حقيقة الإنسان السوري، دون أن يأخذه ضغط العاطفة، وغلواء العروبة.

وبحس فطري، عمل على أن تكون سوريا شعباً واحداً، وأدرك أنه ابتدأ زمن البحث عن الإنسان والجغرافيا، وأظهر تفانياً لا نظير له بإيمانه بقضية شعبه، وخلال تنقلاته في الجغرافيا العسكرية، علم أن البلاد تخوض معتركاً لم تعد له ما استطاعت، إلا عبر تجميع بسيط يبدو أشبه بخردة، إن كان متعلقاً بالعتاد أو الرؤية. وأعتقد أنه كان يحمل فكراً نهضوياً، ويثق أن يقظة عربية يجب أن

يكون متنها غير مستورد، ولا مغترب. هكذا فكر الرجل، فقد رأى أنه من الأهمية بمكان توليف جيش وطني بعدة وعتاد وتنظيم، ويأتي على ذكر هذا في مذكراته بلغة بسيطة لا يمكن أن تحمل ما يثير الجدل. وأخذ يتبوأ مراكز عسكرية، أظهر فيها كلها إخلاصاً من نوع استثنائي، وكان يردد دائماً منطلقاً من الواقع والمعطى: إن وجودنا كطائفة، ليس بالضرورة أن يحضر في هرم السلطة، يكفي أن نقدم ما يخصنا من مشاعر عروبية بالعمل المخلص، وهنا يظهر لمن يقرأ مذكراته، أو يسمع رأيه، أن يراه بغير طموح ولا أفق. ويمكن أن أفسر هذا الموقف، من خلال إدراك الرجل للحالة المعقدة المركبة من الانحطاط، وسوء الفهم التي كانت تسود الواقع، وهذا يعني أنه عقد العزم؛ لأن يفعل ما عليه ضمن المعطيات كلها، وسيترك للباقي مهمة إكمال ما يعتقدون أنه ضروري.

اتصف أمين أبو عساف بحاسة الشم القوية، والتي تشي بعلاقة ما بين زعماء المرحلة والقوى الخارجية، وكان بدون حرج، يخضع من كان محل شبهة للمساءلة، واستطاع سحب سلطات الرؤساء، وهذا الأمر معروف تماماً، ومن هنا أتى لقبه برجل الانقلابات.

كان خُلقه وحسه الوطني هما البوصلة، فوعى أنه ليس من البطولة بشيء أن يستقوي صاحب السلطة بغريب، وليس من شيم الحاكم العادل ممارسة الفساد بأي شكل، وليس لمن يبني ويعمر البلد أن يشرعن ما يتعارض مع مشروع الوطن الناهض، ولعل قصته الأشهر مع أديب الشيشكلي، والتي تكللت في تلك الفترة بعمل وجهد أمين أبو عساف في الثورة عليه.

وفي مذكراته يؤرخ تفصيلاً لتلك المرحلة، لقد بلغ الشيشكلي حد الإفراط في التعصب الديني، وذهب بعيداً في شهوة السلطة، وكان لزاماً أن يغير الوضع، منطلقاً من كرهه للتعصب، وشروط الضرورة الواقعية؛ لذلك قرر ألا يتأدلج ولا ينظر، وأن يكتفي بشرف العسكري الوطني الذي كشف الستار عن بداية حكم العسكر القمعية، وأدخل رجال تلك المرحلة إلى متون السرديات والحكايات. وهو يوثق الصدامات التي حدثت في الجبل، والأحداث التي انتهت بسقوط الشيشكلي بكمّ من الوثائق والبرقيات العسكرية التي رسمت التفاصيل كافة، وباتت مرجعاً له.

المشهد الأخير في مذكرات أمين أبو عساف الذي أحيل على التقاعد في زمن الوحدة بين مصر وسورية، كان هو انقلاب الانفصال، وقد تحدث عن أسبابه بواقعية وصدق في ختام مذكراته فقال:

"كان يأتي لزيارتي أحيانا بعض الضباط الذين خدموا تحت قيادتي وكذلك صف الضباط، وكنت أسألهم عن الأحوال؟ وعنما يأتي ذكر الجيش عرفت ما يلي: إن أكثرية الضباط المصريين معاملتهم لزملائهم ومرؤوسيهم من صف الضباط والأفراد، وحتى لرؤسائهم السوريين أحيانا سيئة، وكأنهم من طبقة أعلى من هؤلاء، وأتوا إلى الإقليم الشمالي لحكمه، ويروون حوادث واقعية عن إهانات وبذاءة لسان. ربما لأنهم في مصر معتادون على إهانة جنودهم وصف الضباط، بينما العسكريون في سوريا يعتزون بكرامتهم ولا يتقبلون الكلام البذيء من رؤسائهم. منذ أيام الفرنسيين كانت كرامة الفرد مصانة. بعد ذهابهم، كنت أوصيهم أن يخبروا القيادة عن رؤسائهم عن طريق التسلسل. هؤلاء الضباط لم يتلقوا من القيادة التوجيه اللازم لفهم نفسية السوريين."

كان أمين أبو عساف متمسكاً بكرامة الجيش أفراداً ومؤسسة، وقد عاش إلى زمن صار الجندي يخاطب فيه ب: "ولاك كر" و "ولاك حيوان" لكن لحسن حظه لم يكن له علاقة بهذا الجيش.

كان مؤمناً أن الدرب طويل وشائك، وأن حمولات التخلف بصورها المتنوعة والمتعددة، مازالت قائمة تعترض طريق الوطن المتطلع إلى النهوض، لتنتج حالة قمعية شرسة، على السوريين مقاومتها في غير عهد، ويكفي أنه شكّل شرارة تمرد، وحالة احتجاج ومقاومة للظلم والظالم، ثم غاب عن العمل السياسي والعسكري، قبل أن يأتي حكم البعث بما أتى به على سورية. هنا تصمت الذاكرة وينتهي الدور والأثر.

المشهد الأخير في مذكرات أمين أبو عساف، كان انقلاب الانفصال، وقد تحدث عن أسبابه بواقعية وصدق فأشار إلى إساءة الضباط المصريين لمرؤوسيهم من السوريين فقال: ربما لأنهم في مصر معتادون على إهانة جنودهم وصف الضباط، بينما العسكريون في سوريا يعتزون بكرامتهم ولا يتقبلون الكلام البذيء من رؤسائهم.

بوعلي ياسين في مذكراته (عين الزهور):

الساحل السوري وتحولاته في نصف قرن

بقلم: د. أحمد عسيلي

قليلة جداً هي المذكرات التي قرأتها لكتّاب من ساحلنا السوري، بل هي نادرة تقريبا؛ ربما لأن المذكرات في حالتنا السورية، غالباً ما تُكتب من قبل مفكرين أو سياسيين، ويكون الهم الأول فيها لذكر الأحداث السياسية والعامة، مع إهمال كبير للسير الشخصية بصورتها الحميمية الخاصة، وهنا حتى لو كان أصل الكاتب من مناطق طرفية، فغالباً ما يركز على مساره، بعد وصوله لمرحلة الشهرة، وهي مرحلة غالباً ما تكون دمشقية أو حلبية.

أقول هذا الرأي باعتباري قارئاً ومهتماً بالتاريخ السوري، ولست مؤرخاً مختصاً، ولأدلل على ذلك مثلاً، لنأخذ مذكرات أكرم الحوراني، فوجود حياته الشخصية، وحماة بشكلها الشعبي البسيط، باهت جداً مقارنة بالأحداث العامة للبلاد، كذلك الحال في مذكرات عدنان سعد الدين كمثال آخر .

من هنا يأتي كتاب (عين الزهور: سيرة ضاحكة)، الصادر عن دار الحصاد في دمشق 1993، ربما كحالة استثنائية على عدة أصعدة، منها أنها تتحدث عن سيرة الكاتب، وعن التاريخ الشعبي لمحافظة اللاذقية، بل هي أعمق من ذلك، تتحدث عن جبال العلويين والتحولات الاجتماعية التي عاشتها بين 1940 و 1990، وهي فترة مهمة في تاريخ تلك المنطقة، مع الدخول الجماعي للطائفة في السلك العسكري، وما طرأ على أفرادها من تغير في نظرته للعالم.

وهي سيرة ضاحكة، سار فيها الكاتب في مجريين متوازيين، أعطاها لمذكراته بعداً أكثر عمقاً، وجعلها أكثر حيوية، مسار شخصي منذ لحظة وعيه على الدنيا في قرية عين الجرب التي تبعد 22 كم عن مدينة اللاذقية، باتجاه حلب لأسرة تعود أصولها للمكزون السنجاري، رجل الدين الذي يحتل مكانة مرموقة في التراث العلوي، لأب يعمل متطوعاً في الجيش، وأم محبة وبسيطة، ومجرى عام ضمنه 451 نكتة سمعها الكاتب، أو عاشها هو نفسه في بيئاته المختلفة، يعطينا فهماً أكبر للمجتمع وعلاقاته وصراعاته من خلال تلك النهفات.

وإن التزم الكاتب بمسار زمني محدد لسيرته الشخصية، فجاءت في أربعة فصول: الأول تحدث فيه عن الأصل، والفصل الثاني عن ترحال الكاتب مع أسرته، نتيجة تنقل الوالد بين أماكن مختلفة في حلب والقنيطرة، حتى عام 1958، والثالث العودة إلى مدينة اللاذقية بين عامي 1958 و 1962، والرابع عن غربته ودراسته في ألمانيا الغربية بين 1962 و 1965، و قد نثر الكاتب بين فقرات تلك السيرة ال451 نكتة، دون ترتيب زماني أو مكاني، فقد يورد قصة حدثت في 1990 مثلاً في الفصل الأول الذي يتحدث فيه عن طفولته أو العكس، قصة حدثت ببداية الأربعينات في الفصل الرابع، ويبدو أن الكاتب كان يود أن ينشر جزءاً ثانياً للكتاب، ربما لم يسعفه العمر له، أو ربما

لظروف خاصة... فإلى أي حد نجح الكاتب في تلك السيرة؟

على مستوى السرد قراءة العمل كانت مسلية جداً، فيها الكثير من النهفات التي تعكس بساطة وطيبة أهالي جبال الساحل، وإن كان بعض تلك النهفات قد جاءت بلغة سوقية أحياناً (نبهنا إليها الكاتب في مقدمته للعمل)، لكن بعضها كان فيه تجريح لبعض المجموعات الدينية، بل وحتى عنصرية تجاه شعوب أخرى.

سجل الكاتب، وبكل حيادية مستوى الحياة خاصة قبل وصول الأسد للسلطة، بل ذكر أرقام شهريات والده ومصاريفهم كعائلة، مما يجعلنا نتحسر على الواقع الذي وصلنا إليه، فرغم عمل والده البسيط، فقد كانوا قادرين على دفع الإيجار، وتأمين حياة كريمة نوعاً ما.

تحدث الكاتب بجرأة نوعاً ما عن المجتمع العلوي في جبال اللاذقية، وهي جرأة نحن بأمس الحاجة لها، كي نفهم أكثر هذا المجتمع السوري، فحكى عن شيوخ العلويين ومكانتهم ونوادرهم، وعن دور الدين وطبقات المجتمع العلوي، ومن ثم البعد وعدم الفهم المتبادل بين هذا المجتمع، وغيره من مكونات الشعب السوري، سواء في محافظة اللاذقية، أو في عموم الوسط السوري، وربما من أكثر النهفات دلالة، ذكره لحادثة جرت أثناء عرض فيلم (ليالي ابن آوى) لعبد اللطيف عبد الحميد، فقد أورد أن امرأتين من حي الصليبة في اللاذقية، عندما حضرتا الفيلم، تساءلتا عن سبب عدم عرض ترجمة للفيلم، للدلالة على الغربة في اللهجة، وعدم فهم كل طرف للآخر حتى داخل المحافظة الواحدة!

تحدث الكاتب وبطريقة فيها نوع من الهمز، عن بعض المظلوميات التاريخية، التي تعرض لها سكان الريف من أهالي المدينة، دون أن يذكر للأسف الحيثيات

تحدث الكاتب بجرأة نوعاً ما عن المجتمع العلوي في جبال اللاذقية وهي جرأة نحن بأمس الحاجة لها كي نفهم هذا المجتمع

تعرّض للمظلوميات التاريخية ولم يذكر حيثياتها للأسف

بعض النهفات جاءت بلغة سوقية، وبعضها كان فيه تجريح لبعض المجموعات الدينية، بل وحتى عنصرية تجاه شعوب

مؤلف السيرة الضاحكة بوعلي ياسين

التاريخية لتلك المظلوميات، فنظرة أهالي المدن كان فيها دائماً نوع من الاستعلائية تجاه أهالي الريف، بغض النظر عن الدين والطائفة، وهي حالة عامة في جميع دول العالم، فكلمة فلاحين في مصر معروفة كنوع من الشتيمة، حتى داخل الدين الواحد، والحال كذلك في كل الدول، لكن ذكرها الكاتب في سياق، كان فيه نوع من الغمز الطائفي الخفيف، ربما نفهم سبب الموافقة على إصدار الكتاب في دمشق بداية التسعينات، وهنا لا أتهم أبداً الكاتب بالطائفية، وخاصة أنني أعرف عنه حسه الوطني، من خلال مسار حياته العام، وأعتقد أن ما ذكره الكاتب غالباً صحيح، لكن كان يجب الشرح أكثر عن ظروف البلاد في تلك الحقبة.

تم التجاهل التام لأحداث الإخوان والصراع على السلطة، وهي برأيي نقطة تحسب للكاتب؛ لأن الحديث عنها لم يكن ممكناً إلا باتجاه واحد، وربما لأن الكاتب أراد الصدق في كل ما ينقله، فكان الصمت هو أفضل الخيارات.

لا أعرف صراحة مدى معرفة قارئ الجيل الحالي ببوعلي ياسين، ولا أعرف أيضاً مدى شهرته في عموم الوسط السوري أو العربي، ربما يكون حالياً في طي النسيان، فمنذ سنوات طويلة لم أرَ كتاباً له في المكتبات العربية، وكتبه غير متوفرة على النت، لكنه بالنسبة لنا، كقراء جيل التسعينات في الساحل السوري، كان بوعلي أحد الرموز الثقافية المهمة، وكتابه الثالوث المحرم، وشمسات شباطية كانت متوفرة تقريباً في جميع المكتبات الخاصة والعامة، ولم يكن يجري حوار فكري في الساحل، دون الإشارة إلى كتاب الثالوث المحرم خاصة، لا أعلم صراحة سبب اختفاء بوعلي من المشهد هذه الأيام، لكني على المستوى الشخصي أتمنى إعادة إحيائه؛ لأنه واحد من المفكرين ذوي النكهة في الساحل.

المذكرات السياسية في العهد الأسدي

غسان المفلح

يشير المؤرخون إلى أن الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر، كان أول مَن كتب مذكرات شخصية. وهنالك من يعيد التجربة الأولى للقديس أوغسطين، ثم لجان جاك روسو، الذي يعتبر أهم من كتب السيرة الذاتية، عبر كتابه الشهير "اعترافات"، وقد استهله بالقول: "أنا أفعل شيئاً، لم يفعله شخص قبلي، ولن يقدر شخص بعدي على تقليده"، بعد أن ظلت "السيرة الذاتية" حكراً على الأدباء والفلاسفة، تلقفها بعد ذلك السياسيون، وناشطو الشأن العام. المذكرات السياسية نوع خطير من الكتابة، غالباً ما يتحرك بناء على دوافع ذاتية، أكثر مما هي موضوعية. هذا ما يثير إشكاليات عديدة؛ لأن كتّابها بوصفهم مسؤولين سابقين غالباً، يحاولون جعل ذاتهم مركزية في هذا النوع من الكتابة، حتى لو كان من يكتب قامت إدارته بأفعال إجرامية، كمذكرات فاروق الشرع، تحت عنوان "الرواية المفقودة"، نائب سابق للأسد، ووريثه لاحقاً، ولايزال على قيد الحياة متقاعداً في منزله في دمشق. لم يتطرق فيها أبداً إلى أية جريمة ارتكبها الحكم الأسدي في الزمن الذي يكتب عنه. وكمثال آخر كتاب "في زمني"، الذي يتناول السيرة الذاتية لديك تشيني نائب الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش. هذا الكتاب أثار قليلاً من اللغط حينها، وليس كما توقّع صاحبه ما سيثيره كتابه، حيث قال وزير الخارجية الأمريكي كولن باول في الكتاب: "إن كتاب تشيني اعتمد على توجيه "ضربات رخيصة" لزملائه، وقدم تفسيرات غير صادقة للأحداث، مضيفاً بأن فريق الأمن القومي للرئيس الأمريكي السابق جورج بوش، لم يكن يعمل بسلاسة، وأنه نصح بوش بالعمل على حل المشكلة، وقال في حديث

إن كتابة المذكرات السياسية، لا يعده كثر من المؤرخين تأريخاً، أي ليس ضمن ما يعرف بكتابة التاريخ؛ لأن كتّاب المذكرات لا يغطون سوى التاريخ الذي تكون ذاتهم محوره

متلفز: كانت لدينا وجهات نظر مختلفة، ولم يكن من الممكن التوفيق بين وجهات النظر"*.

هنالك في سورية ظاهرة كتابة المذكرات، عند قادة حزب البعث الحاكم حتى اللحظة، حاكم بالاسم كواجهة للأسدية منذ ستة عقود تقريباً. تحضرني مذكرات أكرم الحوراني، وصلاح الدين البيطار، وسامي الجندي على ما بينهم من خلافات. أكرم الحوراني مثلاً تم اعتقاله، ونفيه بعد انقلاب آذار 1963، بينما بقي صلاح الدين البيطار في قيادة البعث، وتم تكليفه من قيادة الانقلاب بتشكيل عدة حكومات، خلال فترة زمنية قصيرة، ثم بعد انقلاب شباط 1966، تم نفيه، أو هروبه من دمشق، ومات بعملية اغتيال أسدية. نُفذت في باريس 1980، من قبل مخابرات حافظ الأسد، أمام مكتب مجلة الإحياء العربي الحديثة الصدور، وكان هو صاحب مشروعها. أما سامي الجندي، فقد بقي من ضمن طاقم السلطة، حتى أتى انقلاب حافظ الأسد 1970، وهرب إلى بيروت، ثم عاد بعدها ليكمل بقية حياته في مدينته سلمية. الملاحظ في هذه المذكرات أن كلاً منهم أراد أمرين:

الأول: تبرئة ساحته من نظام عسكر البعث، الذي دمر سورية، وهم كانوا على رأس عملهم في هذا البعث، وقيادتهم له، حتى أتى انقلاب صلاح جديد- حافظ الأسد شباط 1966، حيث هرب أغلب مؤسسي البعث من دمشق إلى الخارج. سامي الجندي عُين سفيراً للانقلاب في باريس.

الثاني: إنهم كانوا ديمقراطيين، ويسعون للديمقراطية، ولكن كانوا عصاميين، للأمانة أيضاً أن الرجال الثلاثة عرض عليهم الأسد الأب العودة إلى مناصب سياسية ورفضوا، لكن من خلال هذه المذكرات، وغيرها نجد أن عسكر البعث ممثلاً، بما كان يُسمى باللجنة العسكرية، التي حكمت سورية فعلياً، أو كان لها دور رئيسي فيها منذ عام 1958؛ لأن هذه اللجنة هي من فرضت الوحدة مع عبد الناصر، لإفشال التجربة الديمقراطية السورية الوليدة، بينما بقي قادة البعث، ومؤسسوه المدنيون عبارة عن واجهة لعسكره*.

من جهة أخرى يمكن العودة إلى هذه المذكرات وغيرها، لمعرفة كيف تم تناول تدمير مدينة حماة، وقتل أهلها، سواء في عام 1964، حيث كان منهم في قيادة البعث والحكومة، ثم المجازر وتدمير أحياء كاملة في أحداث الثمانينيات التي قامت بها قوات الأسد. من المعروف أن مدينة حماة لها وضع خاص في تاريخ سورية، حيث إنها معقل سياسي للتيارات كافة، بما فيها التيارات اليسارية. كانت مدينة تضج بالحراك السياسي، حتى أنهاه الأسد الأب عام 1980، وما بعدها، حتى على مستوى حزب صغير كحزب العمل الشيوعي، الذي تأسس باسم رابطة العمل الشيوعي من عدة حلقات في مدن سورية، كانت حلقة حماة هي الأبرز، والأكثر حضوراً في مدينتها.

من جهة أخرى، إن كتابة المذكرات السياسية، لا يعده كثر من المؤرخين تأريخاً، أي ليس ضمن ما يعرف بكتابة التاريخ؛ لأن كتّاب المذكرات لا يغطون سوى التاريخ الذي تكون ذاتهم محوره، هذا بشكل عام.

الكتابة في ظل نظام ديمقراطي تختلف عن الكتابة في ظل نظام ديكتاتوري، و يمكن ملاحظة الفارق بين مذكرات بشير العظمة، الذي تولى مناصب في عهدي الوحدة والانفصال وبقية المذكرات

أيضاً هنالك مؤشرات أخرى للحكم على المذكرات السياسية، الكتابة في ظل نظام ديمقراطي مثلاً تختلف عن الكتابة في ظل نظام ديكتاتوري، وسورية مثال على ذلك. يمكن ملاحظة الفارق بين مذكرات بشير العظمة، الذي تولى مناصب في عهد الوحدة بين سورية ومصر 1958-1961 وبقية المذكرات.

البعث والأسدية تحكم سورية فعلياً، وبشكل كامل منذ عام 1963. يلاحظ أن كتاب المذكرات، كانوا كلهم خارج سورية، وتراجعت كتابة المذكرات السياسية بعد عام 1980 إلى الصفر تقريباً، وما كتب من قبل رموز الأسدية عبارة عن تسويق للأسدية ذاتها.

يقول الناقد المغربي نجيب العوفي في مقالته التي تحمل عنوان "موجة المذكرات السياسية والسّيَر الذاتية في المغرب: سرْد الأنا.. الثأر الرمزي للذات": إن "البوح" "الأوتوبيوغرافي" المغربي أضحى يشكل في نسخته السياسية ظاهرة أدبية-سياسية، تحتاج إلى قراءة وتأويل"، موضحاً أن "القراءة الأولية والبديهية لهذه الظاهرة تشير إلى أن "كمامات" تاريخية، نُزعت عن أفواه النّخب المغربية، وأن "الحُبسة" المخزنية المضروبة على هذه الأفواه، قد فكّت نسبياً، فانطلقت من عِقال، لتنفّس عن ذات نفسها في هذا الاتجاه أو ذاك". يشير الكاتب هنا أن تكميم الأفواه، لا يمكن أن ينتج حقلاً من كتابة المذكرات السياسية. لهذا نجد أن ما انتشر في سورية في العقدين الأخيرين، وخاصة بعد الثورة 2011، كان ما يعرف بأدب السجون، أو الرواية السجنية.

في ذاكرتي أن من افتتح هذا الحقل في سورية، كان الكاتب المبدع عبد الرحمن منيف في روايته "شرق المتوسط الآن وهنا"، حيث كان قد أصدر روايته الأولى" شرق المتوسط"، التي كانت الافتتاحية في هذا الحقل عن النظم الديكتاتورية في المنطقة، أما الجزء الثاني، فكان عن سورية. الآن ينتشر هذا النوع من الأدب بشكل كبير. الصديقة ميسون شقير في مقال لها بعنوان

"أدب السجون السوري: سرديات الأسرار الذائعة.. ووثائق اللحم والدم" في موقع المدن. تكتب: "تقول الكاتبة كيت ميشيل، إن الرواية تقدّم "معنىً جديداً للأحداث الماضية، من خلال جمعها بين ما يُرى على أنه حقيقة، وبين ما كان يُمكن أن يحدث، وذلك من خلال تناولها السجلات المفقودة في التاريخ"، حيث يخفي السياسيون الحقائق التي تدينهم أخلاقياً، ويقدم المؤرخون ما يستطيعون الحصول عليه، لكن توثيقهم يأتي على شكل هياكل عظمية، في حين أن الرواية قادرة على اختراق المحظورات السياسية والدينية والاجتماعية، وعلى تقديم الحقائق بلحم ودم، وعندما نتكلم عن قدرة الرواية على "تقديم السجلات المفقودة من التاريخ"، لا يمكن لنا إلا أن نتذكر روايات السجون السورية؛ لأن التاريخ السوري الحديث، هو تاريخ السجلات المفقودة من التاريخ بكل امتياز؛ الأمر الذي جعل الشاعر السوري ومعتقل الرأي فرج بيرقدار يقول: "سيرشحنا المستقبل كأكبر تراث عالمي في أدب السجون".

حتى يمكننا إيراد ملاحظة سريعة على ما يقدم من الدراما التلفزيونية الأسدية، مثلاً على كم الأفواه وتشويه التاريخ. لا يمكن إنتاج مذكرات سياسية، في ظل القمع المعمم أسدياً، تتابع شقير: "إن الأهمية التي اكتسبها أدب السجون في سوريا، جاءت من كون البلاد، وطوال 40 عاماً من حكم آل الأسد، لم تعرف مصدراً للأخبار سوى وكالة "سانا"، الرسمية التي تأسست العام 1965، كما أن الصحف الثلاث الحكومية الصادرة، كانت تعيد تكريس مبدأ القائد الواحد والحزب الواحد، وبعد استلام الوريث بشار الأسد، الحكم، ظهرت صحف خاصة، لكن الأمن السوري أغلق معظمها، لتظهر مكانها صحف خاصة تابعة للنظام، كما ظهرت قناة "الدنيا"، المملوكة لمحمد حمشو المقرب من الأسد".

كم هي أعداد الذين تعاقبوا على أن يكونوا مسؤولين في إدارة الأسدية للبلاد؟ أعتقد بالآلاف. كم واحداً منهم تجرأ، وكتب مذكراته السياسية بحد أدنى من الموضوعية؟ ومنهم كتاب أيضاً، ومع ذلك لم يتجرأ أحد منهم.

لايزال هذا الحقل في العهدة الأسدية ضامراً وسيبقى. إنه الخوف ومملكته الأسدية.

هوامش:

* الكاتب المصري خالد غازي.
* تقرير عن أكرم الحوراني وبصوته أيضاً.
https://www.youtube.com/watch?v=A1mPBZczUl0

المذكرات المتلفزة:

أمين الحافظ شاهداً على عصر لم يصنعه!

مصعب الجندي

أدب المذكرات: لا شك أنه ملف سيفتح الكثير من السجال، وأنا على كسلي أساهم فيه بتواضع، فقد كان بودي الحديث عن المذكرات الأهم لشخصيات سورية، من مشارب مختلفة كمذكرات خالد العظم، أو أكرم الحوراني، أو الشيخ علي طنطاوي، أو الشاعر أحمد الجندي، أو مطيع السمان، وغيرهم ممن أعتبر أنهم حاولوا توضيح صورة سوريا (المجتمع والدولة)، والصراعات التي دارت فيها، وكيف تشكّلت، (أو ما زالت في طور التشكل)، وهو أمر لكي يكون دقيقاً يتطلب مني العودة إليها، وهي كتب فقدتها مع ما فقدت في مستودع دار النشر، عدا عن اعتراف بسيط، هو أنني عندما قرأتها، كنت أحياناً أشعر بالملل والتثاؤب لأسباب عدّة، ولا رغبة لي بلحظة ملل أخرى، فيكفيني ما يمنحني إياه حضن هذا الوطن!

أهرب من كلمة أدب، وأكتفي بالمذكرات؛ كي لا أغرق بمجال النقد الأدبي الذي لا أبرع فيه مطلقاً، فمع كلمة مذكرات أول ما يطرق في البال السياسيون؛ لأننا سوريون أبناء وطن الغموض والأسى والنفاق والشقاق، صفات على سوداويتها استقيتها من المذكرات نفسها، فأغلبها كانت دفاعاً مبطناً عن النفس، واتهاماً للآخرين كمذكرات الأستاذ أكرم الحوراني، الذي لم يترك أحداً ممن عاصروه إلا ووجد له صفة سلبية ما، أو تهمة باستثنائه هو نفسه، متناسياً أنه كان لاعباً رئيسياً جداً في مرحلته!

كم كنت أتمنى لو أن أحدهم كان كالشهيد صلاح الدين البيطار، الذي عندما أراد أن يكتب مذكراته بمجلة الإحياء العربي، بدأها بـ(رسالة اعتذار للشعب السوري)؛ لأنه وطن وشعب يستحقان الاعتذار.

ويبدو أنه أمرٌ، حاول تغييبه بإغراق القارئ بتفاصيل، قد تبدو للوهلة الأولى مهمة، لا اتهام له، فهو كان مخلصاً جداً لأفكاره، ومخلصاً جداً لنفسه وذاته، ونزعة السلطة لديه.

الرأي في المذكرات يختلف بين قارئ وآخر؛ لأنها تؤدي لتناحر مواقف لا معنى لها، خصوصاً إذا كان القارئ من المتشبثين بالصورة النمطية المسبقة، ولم يُخضع ما قرأه لأي تحليل (شروط موضوعية في زمانها ومكانها)، لا أنفي أن الحدث الماضي، دفع باتجاه الحاضر بسوء نية أو بدونها، لكنه ماضي (تاريخ ضمن حركته)، ولن يبدل في مسار الحدث في شيء، والأصل أن نتعلم منه لأجل المستقبل، لا أن نتمسّك ب (منذ)، فمنذ كلمة ذات دلالات زمانية، قد تحدد عند بعضهم فصلاً (قطعاً) بين مرحلتين. بالنسبة لي (وإن تفلسفت) أرى منذ هذه الـ (منذ المبهمة): منذ حادث كذا... منذ ضاق الوقت... منذ أصبح السهو واللهو واللغط عادات...

تركت "المبهمة" بلا تشكيل، ليس للبحث في إعجازات اللغة العربية؛ وإنما لتترك للقارئ مع حرية الاختيار، فالـ "منذ" اللئيمة هذه في دلالاتها الزمانية، قد ترتبط بـ"المُبْهَمة"، أي غير الواضحة أو الضبابية، وقد ترتبط بـ"المُبْهِمة" من البهائمية (البهيمة ضمن قطيع وليس خارجه)، فرغم اختلاف المعنيَين، لكنْ كلاهما يصبّان في سياقنا الزماني نفسه، ويا ويلنا، حين تمترست حياتنا وأفكارنا بـ الـ "منذُ" بنوعيها، ويا خشيتي، أن تكون الـ"منذُ" مصيبة السجال في هذا الملف!

تختلف المذكرات بين كاتب أو راوٍ لها وآخر، التي هي من المفترض أن تكون بوحاً للأسرار الحمراء والسوداء وبعض الحماقات، وما يُثقل القلوب التي أثقلها الإخفاء. بوحٌ صادق ليطلق صاحب السرّ عنان أعماقه، ويتخلص من إثمه، لا أن يكتفي بسرد آثام الآخرين، المذكرات بوح ليصبح الإنسان حراً، هذه الصيغة افتقدتها عند (أغلب)، متجنباً أن أقول جميع السياسيين الذين قرأت مذكراتهم، كم كنت أتمنى لو أن أحدهم كان كالشهيد صلاح الدين البيطار، الذي عندما أراد أن يكتب مذكراته بمجلة الإحياء العربي، بدأها بـ(رسالة اعتذار للشعب السوري)؛ لأنه وطن وشعب يستحقان الاعتذار.

ذكرت: تختلف المذكرات بين كاتب وراوٍ لها، والأخيرة درجت كموضة مع الفضائيات، وهنا يُضاف إلى الراوي السّائل أو المذيع، الذي قد يمنح الرواية جمالية، ويعطي للمشاهد عطراً ومحبة وسلاماً، مع قدرة على إظهار الحقائق الهامة في تاريخ الراوي، أو أن يكون مستفزاً، لديه فكرة وبرنامج مسبقان، وليس معنياً برواية الراوي. حالة لا تغيب عن بالي اللقاء الذي أجراه المذيع أحمد منصور عام 2001 بمحطة الجزيرة مع الفريق محمد

محمد أمين الحافظ، وهنا أنا لا أدافع عن الفريق؛ لأني أعرف جيداً أنه لم يكن يصلح أن يكون أكثر من (شيخ عشيرة)، وليس رئيس جمهورية، لكن خبث اللجنة العسكرية أرادته في هذا الموقع لمرحلة ما. كان الفريق أمين الحافظ، حين اللقاء قد تجاوز الثمانين، ولم يعد يملك قدرة كافية للجدال، وبدا كجندي بغير سلاح!

كان أحمد منصور يسأله، وغالباً عندما يبدأ الحافظ الجواب، يقاطعه ويرفق ذلك بضحكة ساخرة، وعندما وصل الحديث إلى كوهين، تشعر أن المذيع دفع باتجاه أن يلبس الحافظ التهمة، رغم معرفة المذيع المُسبقة أن كوهين، ليس أكثر من جاسوس تافه، أرادت إسرائيل أن تصنع منه أسطورة، ويكفي الحافظ فخراً البرقية التي أرسلها كوهين لإسرائيل، قبل إلقاء القبض عليه (لا أنصح بشن هجوم على سوريا)، وعندما سأله اللواء صلاح الضلّلي عن البرقية، أجابه: (لأن رئيسكم قد يقاتل حتى آخر قطرة دم، وقد يكبدنا خسائر نحن في غنى عنها الآن)!

ومع الحديث عن أحداث حماة (نيسان 1964) لم يعرف أمين الحافظ الدفاع عن نفسه، وللتوضيح هنا هو حمّل مسؤوليتها في حينها (كشيخ عشيرة)، وأيضاً في حوار (الشاهد على العصر)، بينما نجا مفتعلوها والدافعون باتجاه العنف فيها، وهم اللجنة العسكرية التي يمثلها في حماة اللص والسارق (عبدالحليم خدام)، الذي كان أميناً لفرع الحزب حينها، واستفز أبناء المدينة بعدوانيته وقذارته، وعندما أدرج اقتراح قرار للقيادتين القطرية والقومية، ومجلس قيادة الثورة بضرورة فتح تحقيق، عدا عن محاكمته أسقطت اللجنة العسكرية القرار بمنتهى السهولة، ولم يصوّت معه إلا صاحبه، وعضو كان باللجنة العسكرية، ومدني واحد.

أعرف جيداً أن أمين الحافظ لم يكن يصلح أن يكون أكثر من (شيخ عشيرة) وليس رئيس جمهورية، لكن خبث اللجنة العسكرية أرادته في هذا الموقع لمرحلة ما.

كان الحافظ، حين اللقاء قد تجاوز الثمانين، ولم يعد يملك قدرة كافية للجدال، وبدا كجندي بغير سلاح!

إسقاط القرار لم يكن فقط حماية للجناة، وإنما أيضاً لإسقاط مفهوم المحاسبة، وتحمّل المسؤوليات، ليصبح يقين الآثمين أنهم لا يُحاسَبون، ومن يفكر بغير ذلك سيُرحّل. كان بودي الحديث أكثر عن هذا الحوار (المذكرات)، لكني خشيت أن يصبح حديثاً مملّاً.

ماذا لو قيل لي: اكتبْ مذكراتك: (من لم يخطئ منكم)، هذه الجملة هي التبرير الوحيد عن نفسي في مرحلة السواد والعتم. أحاكم نفسي، وأكون المتهم والقاضي والجلّاد، وأحكم الحكم. وما العمل لتجنب سجال مليء بالكآبة التهميشية، نصيحة: اذكرْ ما عليك بصدق، ولا تجادل فكل ما هو ماضٍ، وإن كان سجاله وأثره حاضراً، لكنه سريع الذوبان..... السياسة في بلادنا منقوصة الأخـــلاق، (إن لم تكن خالية عند بعضهم) منذ بدء ممارستها، فالساسة يبيعون، ويشترون ويسمسرون المواقف، وإذا أردت أن تعرف النزيه من غيره، ودرجة نزاهته، فانظر إلى حجم خساراته، وقارنها مع (الكسّيبة) رغم وجود مآسٍ، وبلاد تُنهَب.

أما عن مرحلة المخاض والبياض 2011/3/15، فلن يكون لي مذكرات عن الأشرار الذين عرفتهم، أو الانتهازيين المتسلقين على تضحيات الآخرين وتناسوا... لن أذكر المنافقين والجبناء. فقط أتحدث عن الشجعان والمعطائين.... في لحظات المخاض القاسية أبتسم؛ لأن التاريخ والناس، يجب أن ينسينا السفلة؛ لأنهم جزء، (بصورة أو أخرى) من حقبة السواد والعتم.

أدب المذكرات والسير الذاتية بعد الثورة السورية

د. محمد طه العثمان

أدب المذكرات هو نوع من الأدب الذي يركز على كتابة ذكريات شخصية أو سيرة ذاتية لفترة من حياة الكاتب وعلى الرغم من قلة هذا النوع من الكتابة في عالمنا العربي مقارنةً بالأجناس الأخرى، إلا أنه في السنوات الأخيرة صارت المذكرات والسير الذاتية تأخذ حيزًا واسعًا من اهتمام الناس، سواء كانوا شخصيات مهمة ومعروفة أو شخصيات عادية. لكن المدقق في هذا النوع من الكتابة يعرف أنه ليس وليد هذا العصر، بل هو قديم. كانت تستخدم المذكرات لتوثيق الأحداث التاريخية أو السير الذاتية للشخصيات البارزة. ومع مرور الزمن، أصبحت المذكرات أكثر شمولًا، ويكتبها الأشخاص العاديون أيضًا لتسليط الضوء على تجاربهم الشخصية والعاطفية والفكرية. ومن أبرز المذكرات لشخصيات سياسية عالمية كتاب "كفاحي" لهتلر، ومذكرات ميخائيل غورباتشوف في كتاب "من الحياة"، ومذكرات نيلسون مانديلا في كتاب "مسيرة طويلة نحو الحرية". وفي أدبنا العربي قرأنا مذكرات طه حسين، ولويس عوض، وعمرو موسى، وجبرا إبراهيم جبرا، والجواهري، ومحمد نجيب وغيرهم.

برأيي، المذكرات لا تشبه السيرة الذاتية ولا السيرة الروائية، حيث يكون فيها الكاتب جزءًا من المؤثرات الخارجية ومن الحياة الفكرية أو السياسية، يتفاعل معها ويكون شاهدًا على تلك الأحداث. أما السيرة الذاتية فهي تخص حياة الكاتب الشخصية ضمن المؤثرات الداخلية، والأحداث الخاصة التي عايشها وكيف تفاعل مع المؤثرات الخارجية من خلالها.

بعد الربيع العربي والآمال التي عاشها الإنسان والمثقف العربي، ومن ثم اتساع آفاق

المذكرات لا تشبه السيرة الذاتية ولا السيرة الروائية، حيث يكون فيها الكاتب جزءًا من المؤثرات الخارجية ومن الحياة الفكرية أو السياسية، يتفاعل معها ويكون شاهداً على تلك الأحداث

فقد كتب السوريون الكثير من هذه السير على شكل سيرة روائية، وخصوصاً عن المعتقلات السورية. فمن منا لم يقرأ "القوقعة"، وقبل ذلك بسنوات كانت شهادة هبة الدباغ في كتابها "خمس دقائق وحسب"، في بداية الثورة السورية كانت السير قليلة، لكن بعد عدة سنوات، وحينما خرج كثير من السوريين مرغمين من بلادهم، صارت إمكانية الكتابة حاضرة، فصدرت العشرات من هذه الكتب. ومن حظي وحظ دار موزاييك أنها استأثرت بالكثير من هذه المذكرات والسير. وسأقف على أهمها بإيجاز:

الكتاب الأول: (الشراقة) لسعاد قطناني

صدر عن دار موزاييك عام 2021: يحتوي الكتاب على شهادة عدد كبير من المعتقلين: كمصطفى خليفة صاحب رواية القوقعة، وفدوى محمود، وعمر الشغري. واللافت في الكتاب أنه يكمل الشهادات التي قدمتها هذه الضحايا في برنامج "يا حرية" الذي عرض على تلفزيون سوريا. وقد قامت الكاتبة بإعداده وإنتاجه؛ لذلك تقول عن هذا الكتاب: "هذه الحكايات ليست حكاية سجن وسجان فقط، بل حكاية سوريا بناسها وأحلامهم وآمالهم ومخاوفهم، حكايات أوجاع امتدت على مدى خمسين عامًا وأكثر. في هذا الكتاب سمعت اللقاء وأعدت كتابته ثم أعدت صياغته، لم أفرغ النص بل فرغت الكثير من وجع روحي لتصير كلمات على سطح الورق، ولتصير الأجوبة سرداً متواصلاً، لتصير حكاية وألماً وجرحاً ينفتح على أسئلة ليس لها جواب. حافظت على روح أصحاب الشهادات وروح النص الأصلي، واستخدمت العبارات ذاتها التي جاءت على لسان أصحابها مقاربة صنعة السرد الروائية مع الأمانة في نقل هذه الشهادات.

الكتاب الثاني: (اليوم التالي) لمحمد جلال

صدر عن موزاييك عام 2020، وهو الجزء الثاني لكتاب "هذه ثورتي"، الذي كان عبارة عن شهادة على الوضع السوري في بداية الثورة، ومذكرات الكاتب عن معايشته لبدايات قيام الثورة، والانتهاكات التي طالت المتظاهرين والمحتجين من قبل قوات النظام. لكن في كتاب "اليوم التالي" ربما نرى أول شهادة عما حصل في المناطق الخارجة عن سيطرة النظام، إذ يغوص في الحديث عن تفاصيل الحياة في المناطق غير الخاضعة لسيطرة النظام أو من خلال رحلة نزوح قليلة إلى تركيا. المدة التي شملها الكتاب كانت بين عام 2014 حتى بداية عام 2020. يكتسب الكتاب أهميته من كونه كتاباً يحكي بضمير سوري جامع عن مشاهدات

ومعاينات الكاتب من قلب الحدث، حيث عمل وما زال يعمل مع منظمات إغاثية كثيرة دون الانحياز لطرف. يروي كل التفاصيل الخفية التي عايشها الإنسان السوري المسحوق أثناء تلك الفترة، خصوصًا بعد تغوّل جبهة النصرة وابتلاعها للثورة إلى أطماع بي كي كي وقسد حيث يدخلنا إلى تفاصيل التفاصيل.

الكتاب الثالث: (عن وجع لا يُرى) لريمان عاشور

صدر عن موزاييك عام 2020. وهو سيرة روائية تحكي حياة الكاتبة والأحداث التي عاصرتها منذ بداية الثورة في سوريا حين كانت مدرسة في جامعة حلب، ثم الحديث عن تنقلاتها مع زوجها الليبيّ الجنسية وعملها في السياسة؛ من حياتها في ليبيا قبل وأثناء انطلاقة الثورة الليبية، مرورًا بحياتها في الكويت لدى تعيين زوجها سفيرًا لليبيا هناك، وعلاقاتها بالشخصيات السياسية وكواليس العمل السياسي، وصولًا إلى استقرارها في إسطنبول. بأسلوب سردي شيق، ووصف متميز للأماكن والعادات في البلدان التي عاشت فيها.

الكتاب الرابع (سجن صيدنايا، الإضراب الكبير) لفراس سعد

صدر عن موزاييك 2022. وقد تضمن الكتاب مجموعة من المواضيع القريبة من السرد الروائي، تتناول سيرة ويوميات وأحداثًا حقيقية موثقة بأسلوب يتراوح بين الأدبي والتقريري. الكتاب مليء بالشهادات الشخصية عن حوادث وأشخاص وتفاصيل عايشها الكاتب. فهو أقرب لوثيقة دقيقة لانتهاكات النظام للمعتقلين لسنوات، ويركز على ما حصل أثناء استعصاء سجن صيدنايا السيّئ الصيت، حيث يقدم فيها الكاتب شهادته على تلك الانتهاكات التي مست حتى أبناء الطائفة التي ينتمي إليها رأس النظام ومنهم الكاتب.

الكتاب الخامس: رواية (الوشم) للروائية السورية منهل السراج

صدر عن موزاييك 2022. وقد تناولت الكاتبة في روايتها يوميات المعتقلة السابقة"لولا الآغا" في قالب سردي محكم، مملوء بالأحداث الحقيقية لشخوص وأماكن حقيقية، مما يجعل العمل أقرب إلى السيرة الروائية. تسرد فيها تفاصيل اللحظات التي عاشتها مع ثورة السوريين في مدينة حلب، وعن أسرتها، وعن السنوات التي قضتها في معتقلات نظام الأسد

الكتاب السادس (دولة العبث) لفواز العلو

صدر عن موزاييك عام 2022. يسرد الكاتب في هذا الكتاب مذكراته عن بعض من تاريخ سوريا والتقلبات السياسية والاجتماعية والدينية التي مرت بها البلاد منذ عام 1975، ويختم مذكراته بالعام 2011. سلط الكاتب الضوء على عدة أحداث هامة: مجزرة حماة في الثمانينات، انهيار الاتحاد السوفييتي، الحركات الطلابية، التشكيلات الحزبية وبالأخص الحزب الشيوعي، الطبقات المستحدثة التي بدأت تغير الديموغرافية في مناطق كدير الزور والطبقة وحمص ودمشق، والاعتقالات التعسفية والاختفاء القسري والتغييب في السجون دون محاكمات، الحرب على العراق وتدفق العراقيين على سوريا طلباً للأمن والأمان، تقسيم المجتمع إلى طوائف وتسييسها وتجييشها ضد بعضها بعض. وتطرق للحديث بإسهاب عن مآلات كل تلك الأحداث على الشارع السوري على اختلاف أطيافه. الكتاب يؤرخ للفترة الزمنية التي تمكن فيها حزب البعث من استلام السلطة وكيف عبث المتنفذون باسم السلطة بمصير الشعب السوري، ليصل إلى نتيجة مفادها أن الثورة السورية هي ذات مطالب محقة وجاءت حتمية للرد على الديكتاتورية.

الكتاب السابع: (العبور من الجحيم) سيرة ذاتية لمعتقل - لحسين جلبي

صدر عن موزاييك 2023. كما في العنوان الفرعي، تندرج الرواية في أدب السجون، حيث توثق بكاملها سيرة اعتقال شاب سوري، كما توثق أحداثًا وشخوصًا حقيقية بأسلوب أدبي متميز وسبك حكائي سلس، لكنها في الوقت نفسه تبرز عملاً فنيًا جميلاً.

الكتاب الثامن: (أسير الوالي: مذكرات مراسل الجزيرة في سجون الدولة الإسلامية) للصحفي عمر محمد الحاج هزاع

صدر مؤخرًا عن دار موزاييك ، وفيه يفرد عمر الحاج مذكراته وشهادته عند اعتقاله من قبل تنظيم الدولة في سوريا، وتنقله بين السجون ومشاهداته ومعايشاته فيها. الكتاب يقترب في سرده من السيرة الروائية ويتضمن حقائق وأحداثًا تروى لأول مرة.

وقد صدرت عدة كتب أخرى عن موزاييك وثق كتابها سيرهم ضمن الجو نفسه، منها "لفحات من سجن تدمر" لوليد شيخ نايف، ورواية "أوتار خلف القضبان" لأسعد شلال، و"إلى حبيبتي الصغيرة" لعمر فرج. كل هذه السير والمذكرات كانت أداة قوية لفهم الوضع السوري والعربي، من خلال ما روته هذه الشخصيات عن الأحداث التي عايشتها من منظور فردي وشخصي، مما أضاف عمقًا ومصداقية لمعاناة هذا الشعب المسحوق.

كل هذه السير والمذكرات كانت أداة قوية لفهم الوضع السوري والعربي، من خلال ما روته هذه الشخصيات عن الأحداث التي عايشتها من منظور فردي وشخصي

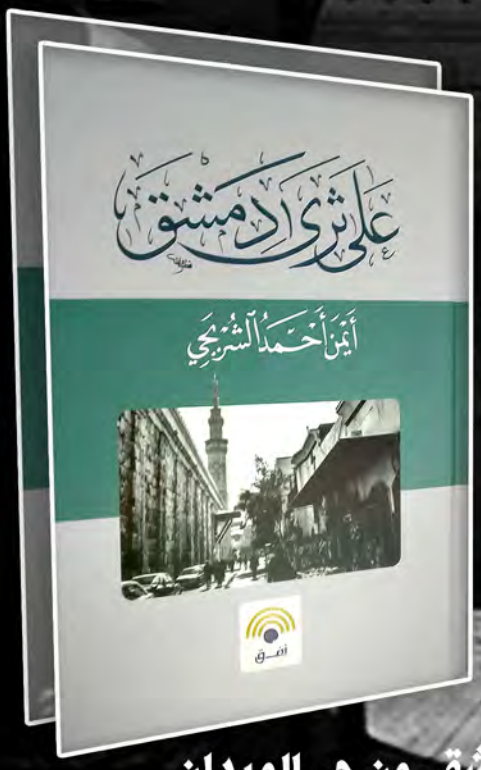

الإخوان المسلمون في مذكرات أيمن شربجي

قائد الطليعة المقاتلة في دمشق

بقلم: رواء علي

المؤلف هو أيمن أحمد شربجي (1955- 1988) دمشقي من حي الميدان القائد العام للطليعة المقاتلة بين عامي 1982-1988م، انتسب للطليعة المقاتلة على يدي مروان حديد في دمشق عام 1974م، وتلقى تدريباته العسكرية في الجبال الساحلية في معسكرات الطليعة، مع نخبة من الجماعات الأولى التي ضمها مروان حديد، بقيادة عبد الستار الزعيم، وموفق عيّاش.

اتصف أيمن شربجي بصفات عديدة أهلته لقيادة الطليعة في دمشق، فأثبت كفاءة منقطعة النظير في التخطيط والتنفيذ، أكسبته عند النظام لقب اليد التي لا تخطئ، ووضع حافظ الأسد مكافأة 100 ألف ليرة، لمن يساعد في القبض عليه، وقال مرة لعلماء دمشق: لو سلمتموني أبا عمر (أيمن شربجي)، لأطلقت لكم مئات المساجين... كانت معظم العمليات العسكرية النوعية التي قامت بها الطليعة في الثمانينات: محاولة اغتيال حافظ الأسد، الهجوم على وزارة الإعلام، الهجوم على مبنى رئاسة الوزراء، تفجير الأزبكية، اغتيال الشخصيات البارزة في النظام... كانت من تخطيط وتنفيذ الطليعة المقاتلة بمشاركة، أو بقيادة أيمن شربجي.

كتب أيمن شربجي هذا الكتاب بعد سنة 1986م، وغالباً ابتدأ به عام 1982، ولم يتح له إكماله؛ لأنه استشهد عام 1988، ولم يكمل ما أراده من تدوين أحداث حماة.

وقد جاءت الإشارة إلى كتابه هذا، وسبب كتابته في رسالة له لقادة الإخوان في الخارج عام 1986، حيث قال: "إن ما يجري عندكم من مهاترات ونزاعات على المناصب، قد أساء إلى دماء الشهداء والمجاهدين، وشوه تاريخهم؛ ولذلك وجدت من واجبي كتابة تاريخ المجاهدين في دمشق منذ عام 1974 وحتى عام 1982م... حتى يطّلع المسلمون على الحقائق ويستفيدوا من التجربة الجهادية في سوريا التي كادت أن تضيع وتشوه، ونحن ما زلنا على قيد الحياة".

وقد عنون الكتاب "تاريخ العمل المسلح في مدينة دمشق"، ولم يظهر هذا العمل إلى النور إلا مع بدايات الثورة السورية بعد عام 2011، حيث صدر ابتداء في نسخة رقمية بعنوان "مذكرات الطليعة المقاتلة"، ثم أعيد نشره عام 2017م في لندن بنسخة ورقية أعتني بإخراجها من جهة العناوين والفهارس والشروح، بعنوان "على ثرى دمشق". وكان الهدف من نشرها تقديم مادة ذات فائدة، يستفيد منها العاملون في الثورة السورية المعاصرة، لكن كما يقول الناشر:

"إن بعض من وصلتهم التجربة، عمل بشكل مغاير لما تقتضيه المصلحة خلال الثورة السورية الحالية".

تبدد المذكرات الصورة النمطية عن أن سكان دمشق كانوا خارج النزاع بين الطليعة وحافظ الأسد، كما كان الإخوان يروجون، عندما كانوا يصورون العمل العسكري في حماة وحلب، ويتجاهلون دمشق!

قائد تنظيم دمشق

كان أيمن الشربجي عضواً في الطليعة منذ تأسيسها كأحد كوادرها في تنظيم دمشق، ثم أصبح قائداً لتنظيم دمشق، والقائد العام للطليعة منذ عام 1982م، حتى استشهاده عام 1988م؛ لذا كان في موقع صنع القرار، والاطلاع المباشر على كل الأمور العسكرية، وبعض الأمور السياسية التي تخص الطليعة وقيادات الإخوان المسلمين، حتى عام 1988، مما يجعل من كتابه إلى جانب ما تركه قائد الطليعة في حلب عدنان عقلة من تسجيلات صوتية مصدراً أساسياً في دراسة هذه المرحلة، ومن أراد أن يفهم طبيعة العلاقة بكل وضوع بين الطليعة والإخوان بين عامي 1979-1983م، فلا غنى له عن مطالعة شهادة شربجي وعدنان عقلة، فهما تكملان بعضهما.

ومما يجب ذكره أيضاً: إن أيمن شربجي هو قائد الطليعة في دمشق، ثم القائد العام للطليعة بعد عام 1982، بعد أن تفككت الطليعة في كل المدن السورية، وبقيت صامدة في دمشق حتى التسعينيات، وهو ما يبدد الصورة النمطية عن أن سكان دمشق كانوا خارج النزاع بين الطليعة وحافظ الأسد، كما كان الإخوان يروجون في الخارج، عندما كانوا يصورون العمل العسكري في حماة وحلب، ويتجاهلون دمشق، وهو ما اعتبره أيمن شربجي، أنه ناتج عن عصبية مناطقية، رعاها الإخوان، وروّجوا لها ، ويثبت أن دمشق كانت في طليعة من قاتل النظام، منذ البدايات الأولى لتشكيل الطليعة على يد مروان حديد في دمشق، وبقيت صامدة حتى النهاية حتى عام 1997، عندما أُطلق سراح الفوج الأخير من الطليعة من سجون النظام، وخاطبهم هشام بختيار بعد سيل من الشتائم: "الآن ارتحنا وارتاحوا".

مروان حديد وتأسيس الطليعة المقاتلة

خلال فترة الوحدة بين سوريا ومصر بين عامي 1958-1961، نشأ تنظيم سري عسكري طائفي من ضباط بعثيين من أتباع الأقليات الدينية الباطنية (العلويين، الإسماعيليين، الدروز) بشكل خاص، دُعي باسم اللجنة العسكرية، نجح بعد فك الوحدة مع مصر في إحداث انقلاب عسكري عام 1963، بقيادة واجهة من السُنة اسمه زياد الحريري، تم تهميشه بعد إنجاز مهمة اللجنة العسكرية التي تقاسم أفرادها بعد الانقلاب المناصب العسكرية والسياسية الهامة في سوريا، بقيادة شكلية سنية مثّلها أمين الحافظ الحلبي... وخلال فترة سنة من سيطرة البعث الطائفي على شؤون الحياة العامة في سوريا، ظهرت التوجهات الطائفية لصانعي الانقلاب في مجالات الحياة العامة، مما أنذر بحالة من الغليان الشعبي في كل سوريا، ظهر بشكل جلي في مدينة حماة على شكل صدامات شعبية بين أهل حماة، وذيول البعث تطورت سريعاً، وتحولت إلى إغلاق وإضراب عام في حماة، دفع محافظ حماة عبد الحليم خدام لطلب تدخل الجيش، لفض إضراب حماة، فحدث عام 1964 ما عُرف بأحداث مسجد السلطان، حيث قامت قوة عسكرية بقيادة الدرزي حمد عبيد، والعلوي عزت جديد بتطويق المسجد الذي اعتصم فيه جماعة من شبان حماة، بقيادة شاب سيترك بصماته وذكراه في تاريخ العمل العسكري ضد نظام البعث حتى اليوم، وهو مروان حديد. لم يكن هناك تكافؤ بين المهاجمين والمعتصمين في المسجد، فاقتحم حمد عبيد المسجد بالدبابات، واعتقل بضعة شبان، ممن بقي حياً، وكان منهم مروان حديد الذي اقتيد إلى محاكمة عسكرية صورية ترأسها مصطفى طلاس الذي أوقع حكم الإعدام بحق مروان حديد، ولم يُنفذ الحكم بموجب عفو من رئيس الجمهورية أمين الحافظ، أصدره مرغماً بفعل الضغط الشعبي، وتدخل من شيخ حماة وقتها محمد الحامد.

أثبتت أحداث مسجد السلطان لمروان حديد أن النظام القائم لا يفهم إلا لغة الحديد والنار، فاستغل الفترة بعد حرب 1967 في التدريب والإعداد والتحريض، حتى كان العام 1970، وهو

العام الذي انقلب فيه حافظ الأسد على رفاقه في حركته التصحيحية، واستلم الحكم بعد تعديل في الدستور، وإلغاء المادة التي تنص على أن الإسلام هو دين الدولة، والاكتفاء بأن يكون دين رئيس الدولة فقط هو الإسلام في مسرحية صورية عمَّد فيها أحمد كفتارو حافظ الأسد مسلماً، خلاف ما تعتقده الغالبية من السوريين من أن حافظ الأسد نصيري غير مسلم، وترافق هذا بمزيد من مصادرة الحريات والقمع والتنكيل، والملاحقة لكل معارض، وزاد حافظ الأسد من تجنيد الفرق العسكرية على أساس طائفي علوي، من خلال ما عُرف باسم سرايا الدفاع... وعلى هذه الخلفية من الأوضاع حاولت قوة بقيادة رفعت الأسد عام 1970 اعتقال مروان حديد في حماة، لكنه نجح في الإفلات منهم، واستقر به المطاف بعد حين في دمشق متخفياً. وخلال الأربع سنوات التالية، ومن خلال جهد مكثف تحت الملاحقة والتنقل المستمر نجح مروان حديد في وضع الأسس النظرية والمادية لحركة المقاومة للنظام البعثي العلوي، والذي عُرف ابتداء باسم "الطليعة المقاتلة لجند الله".

موقف الإخوان من الطليعة المقاتلة:

عندما لجأ مروان حديد لتأسيس الطليعة المقاتلة، كان قد بذل جهوداً كثيرة لإقناع قادة الإخوان في سوريا، للجوء إلى العمل العسكري، وكانت خطته هي أن تقوم قيادات الإخوان بتعبئة كوادرها في تنظيمات عسكرية سرية تستقطب الشعب، ثم وبالتعاون مع القيادات العسكرية السنية في الجيش، يتم إحداث انقلاب عسكري مدعوم بثورة شعبية، تطيح بنظام الأسد، لكن أولئك عارضوا؛ بحجة أن الوقت لم يئن بعد للعمل العسكري، وأنه متى حان الوقت، فلن يتوانوا عن حمل السلاح، ويذكر أيمن شربجي إن الإخوان لم يهيئوا أصلاً أي نوع من التنظيم لمواجهة النظام، وكل تحركاتهم كانت ذات طابع سلبي كلامي، بلا فعل، وأفعالهم مجرد ردود أفعال كلامية، ويقول: "وانتهت عند هذا الحد، ولم تقدم جهوداً مؤثرة تحد، أو تقلل من إرهاب السلطة الطائفية" عدا عن أنهم كانوا في صراع بيني بين جناحين: واحد بقيادة عدنان سعد الدين

يذكر أيمن شربجي إن الإخوان لم يهيئوا أصلاً أي نوع من التنظيم لمواجهة النظام وكل تحركاتهم كانت ذات طابع سلبي كلامي، بلا فعل

وسعيد حوى (تنظيم حلب)، والثاني بقيادة عصام العطار (تنظيم دمشق)، وهو ما رآه مروان حديد ناتجاً عن بُعد قيادات الإخوان عن الجهاد في سبيل الله؛ لذا عندما يئس مروان حديد من إقناع قادة الإخوان، الذين كانوا مازالوا موجودين داخل سوريا بضرورة العمل المسلّح، وأمام إحجامهم، شرع عندما وصل إلى دمشق بعد عام 1970م، بوضع الأسس التنظيمية والفكرية للعمل المسلح الهادف إلى إسقاط النظام، وقامت فكرته عل أربعة أسس عملية: هي جذب الأنصار وتثقيفهم، ثم تنظيمهم، ثم تدريبهم، وصولاً إلى مرحلة الصدام المباشر مع النظام، ولن يحدث هذا الصدام، حتى يحدث اليأس من ضم أتباع جدد. وبعد الانتهاء من هذه المرحلة، تقرر الطليعة طريقة العمل العسكري ضد النظام: هل هي عمل عسكري خاطف، أو حرب عصابات طويلة الأمد. ولم يتح لمروان حديد أن يرى نتيجة عمله، إذ ألقي القبض عليه عام 1974؛ نتيجة وشاية من أحد المترددين عليه (محمد جيرو من اللاذقية)، وبعد معركة استمرت قرابة 10 ساعات في حي العدوي بدمشق، اعتُقل مروان حديد، وتمت تصفيته لاحقاً عام 1975 في إحدى المستشفيات، لكن ما زرعه مروان لم يمت بموته، فقد تابع رفاقه ما بدأه، فتتابع على قيادة التنظيم العام بعد مروان حديد بين عامي 1974-1990م: عبد الستار الزعيم، ثم هشام جنباز، ثم تميم الشقفي، ثم عمر جواد، ثم مسعف بارودي، ثم أيمن شربجي، ثم عاطف قهوجي، وهؤلاء مع الكوادر المنتشرة في مدن حماة، وحلب وحمص ودمشق هم من صنع حركة المقاومة المسلحة، ضد نظام حافظ الأسد، منذ أواسط السبعينيات وطوال الثمانينيات، ورغم كثافة العمليات العسكرية ونوعيتها، فلم تتجاوز أعدادهم أحياناً العشرات في كل مدينة.

خلال مراحل عمل الطليعة المقاتلة، منذ تأسيسها وحتى نهاية أعمالها، كانت تنظيماً مستقلاً بذاته، ولم تكن في يوم من الأيام على علاقة تنظيمية بالإخوان المسلمين، بل أكد قادتها في أكثر من مناسبة على أن لا علاقة للطليعة بالإخوان، وإن حدث أي تواصل بين قادة الطليعة والإخوان في الخارج، فهو من باب التعاون، لا من باب الموالاة والتبعية، وهي نقطة ستكون محور تنازع بين الطليعة والإخوان، كادت أن تودي بالطليعة في دمشق خاصة سنة 1980م، وربما هذه النقطة ستكون هي من فكك الطليعة في كل سوريا، عدا دمشق عندما يئس الإخوان من ضم الطليعة إلى قيادتهم في الخارج، فقرروا القضاء عليها، كما سيظهر في ما سيأتي.

كان موقف الإخوان من مروان حديد، كما وصفه الشربجي: "اتهمتوه بالتهور والتسرع، والتسبب في ضرب الجماعة الإسلامية، وعندما انطلقنا بعد استشهاده، كانت مواقفكم سلبية...أما الآن وقفتم موقف المتفرج، ولم تقدموا واحداً بالمائة، بل أصبحنا نحن القاعدين عن الجهاد، وأنتم المجاهدون..." .

ورغم موقفهم المعادي للعمل العسكري عموماً، فإنهم استثمروا فيه إعلامياً ومادياً لصالحهم، فشرعوا ابتداء من عام 1979، وهو عام انطلاق الأعمال العسكرية الأولى للطليعة في حلب ودمشق، قبل أن تعلن الطليعة عن نفسها إعلامياً، شرعت قيادات الإخوان في الخارج بتبنّي الأعمال العسكرية في الداخل، ونسبتها لنفسها، بل راح الإخوان يروجون أنهم هم قادة العمل المسلح في الداخل، وقد ذكر عدنان عقلة هذه الحيثيات صراحة مدعومة بالأسماء والوقائع، بينما اكتفى أيمن شربجي بتلميح بسيط: وانتشرت أنباء في السجون أن جماعات الإخوان المسلمين المختلفة، قد اتحدت وهي من تقوم بالعمليات العسكرية ... وصارت إذاعتهم تنشر أنباء العمليات العسكرية بنكهة إخوانية ذات تحزب مناطقي، وغالباً ما كان يتم تجاهل أخبار دمشق، مع أن أهم العمليات العسكرية حدثت في دمشق، وغالباً مرجع ذلك إلى علاقات العداء بين تنظيم حلب (البيانوني-سعد الدين-حوى)، وتنظيم دمشق (العطار)، ففرقوا في الشهداء بين أتباع تنظيمهم، وبين أتباع مروان حديد،

وحصروا العمل العسكري بحلب وحماة، وتجاهلوا دمشق، وقد أرسل لهم أيمن شربجي: "إن العصبية البغيضة تظهر في كل تصرفاتكم، ومن يسمع إذاعتكم، تتكون لديه فكرة أن الثورة والعمل المسلح لم تكن إلا في حماة وحلب، وكأن دمشق لم يحدث فيها شيء... مع العلم أن عمليات دمشق هي التي أعطت للعمل هيبته في الداخل والخارج" .

وفي مرحلة تالية عام 1980 روجت أجهزة الإخوان الإعلامية أن هناك ثورة بقيادتهم، ستنشب يوم 8 آذار في ذكرى انقلاب البعث، ودخلت جماعة عصام العطار في دمشق على الخط، وروّج أتباعها أن لهم تنظيماً عسكرياً على وشك التحرك، ودخلوا في عملية تنسيق مع الطليعة في دمشق، وكانت الطليعة في دمشق على وعي بألاعيب الإخوان ومحاولات التسلق؛ لذا أوقفت في هذا التاريخ كل عملياتها العسكرية، وجاء الثامن من آذار، ومضى ولم يحدث شيء، مما كان الإخوان يروجون له... ويعلق الشربجي على ذلك: فبان وقتها أن لا أحد يملك تنظيماً عسكرياً غير الطليعة .

وبحسب ما يذكر أيمن شربجي بتهكم، فإن الإخوان في دمشق نفذوا في عام 1980 أولى عملياتهم ضد نظام الأسد، وكانت العملية عبارة عن توزيع قصاصات ورقية، تهاجم نظام الأسد، بعد أن أصدر القانون 49 القاضي بإعدام من ينتسب لجماعة الإخوان .

لم يكتفِ الإخوان بمحاولات التسلق على جهود الطليعة، وسرقة إنجازاتها لنفسها، بل استثمر قادة الإخوان وكوادرها في الخارج الوهج الإعلامي الذي حققه العمل العسكري داخل سوريا وخارجها، فراحوا يجمعون التبرعات والمساعدات باسم العمل العسكري في الداخل، وفي واقع الأمر لم يصل الطليعة شيء من هذه الأموال، وإلى هذا أشار شربجي في إحدى رسائله لهم: "إنكم تقومون بجمع الأموال للمجاهدين، فهل أصبحت هذه الأموال ملكاً لكم؟ ولو أنكم أعلنتم أن لا علاقة لكم بالمجاهدين، فهل سيصلكم من الناس دينار واحد ؟! إن كل ما حققتموه من أمجاد ومكاسب على دماء شهدائنا... ولتدعيم مراكزكم في الخارج، ولعمري ماذا أفاد المجاهدون ذلك!" .

لم يكتفِ الإخوان بمحاولات التسلق على جهود الطليعة، وسرقة إنجازاتها لنفسها، بل راح قادتهم في الخارج يجمعون التبرعات والمساعدات باسم العمل العسكري

قال لهم عبد الستار الزعيم: إن لم تجتمعوا في الدنيا أسأل الله أن يجمعكم في الآخرة في جهنم

الشيخ مروان حديد مؤسس تنظيم الطليعة المقاتلة

محاولات الإخوان الاستيلاء على الطليعة أو تحييدها

يقول عدنان عقلة: حاول الإخوان في الخارج السيطرة على العمل المسلح، فأرسلوا علي صدر الدين البيانوني، وكان نائباً للمراقب العام، فاجتمع بقيادات حماة وحلب، ولم يأتِ دمشق، فرفضت هذه القيادات إعطاء الولاء لهم، حتى يتحدوا في جماعة واحدة، وقال لهم عبد الستار الزعيم، فيما ينقل عنه: إن لم تجتمعوا في الدنيا أسأل الله أن يجمعكم في الآخرة في جهنم... وغادر البيانوني سوريا، ولم يعد بعدها، لتبدأ مرحلة سحب البساط من تحت أقدامنا، كما أسماها عدنان عقلة، فقاموا بقطع أي نوع من المساعدة المالية للعمل المسلح، وأوعزوا لأمين يكن بفتح باب المفاوضات مع حافظ الأسد . وشرعوا في إقامة نوع من الاتصال بينهم وبين أيمن شربجي، مدعين أنهم يريدون علاقة مباشرة مع تنظيم دمشق، لتأمين احتياجات التنظيم، ونقلت رسالتهم إلى القائد العام في حماة هشام جنباز، وجاء الرد حرفياً من قيادة التنظيم: "لا مانع لدينا من إقامة علاقة مساعدة بينكم وبين الإخوة خارج سوريا، ولكن من الناحية التنظيمية لا علاقة لنا بهم نهائياً..." . وعلى هذا الأساس تم اللقاء بين مراسل الإخوان سالم الحامد، وقائد تنظيم دمشق أيمن شربجي، قدم فيه مراسل الإخوان مبلغاً ضخماً -لم يذكر شربجي مقداره- كان ثلثه لتنظيم دمشق، وثلثاه لشراء ثلاثة بيوت (أحدها قيمته 5 مليون ليرة= أكثر من مليون دولار)، لتكون قواعد لإيواء عناصر التنظيم الجديد من الإخوان، الذين سيدخلون دمشق للاشتراك بالعمل العسكري مع الطليعة، ورفض أيمن شربجي إدخال أي عناصر جديدة إلى دمشق؛ لأنها ستكون عبئاً على الطليعة،

أصبح في دمشق تنظيمان عسكريان: الطليعة المقاتلة، والتنظيم العسكري الجديد للإخوان، وابتدأت مرحلة أسماها شربجي "التنظيم الجديد وبدء الكارثة"

كانت الكارثة أن عمل الإخوان إلى استقطاب كل من هب ودب في التنظيم العسكري الجديد، بغض النظر عن أي إجراءات أمنية

فكان رد الإخوان: "إن قرار الإخوة في الخارج بإنزال مجموعات إلى دمشق نهائي لا رجوع عنه" ، ولم يكتفوا بهذا، بل أخذوا بالضغط على أيمن شربجي، ليقوم بعمليات عسكرية داخل دمشق، وهو ما كان يرفضه؛ بسبب أوضاع التنظيم واعتقال قائده يوسف عبيد... كان رد الإخوان: "نفذوا ولو بأهداف بسيطة: عامل، موظف صغير، عمليات تفجير" ، ويبدو في تقديرنا أن الإخوان أرادوا استعراض القوة في دمشق، لدعم مفاوضاتهم الجارية مع الأسد ، ولما لم تفلح ضغوضهم على الطليعة في افتعال معركة مع النظام، زجوا بمجموعات من أتباعهم من خارج الحدود إلى دمشق للقيام بمعركة مع النظام، وكانت تلك المجموعات مندفعة وحماسية، وغير مدربة، ولا تعرف طبيعة الحرب في دمشق، وحدثت اتصالات بين أيمن شربجي وقيادات الإخوان في الخارج، لثنيهم عما يقومون به، فجاءه الرد يطلبون منه تسليمهم قيادة العمل العسكري في دمشق ومبايعة الإخوان، وكان رد الشربجي متوافقاً مع الموقف العام للطليعة في قضية الولاء للإخوان: إنا لن نعطي ولاءنا إلا لقيادة موحدة، وقال شربجي: "لن نسعى لانشقاق في صفوق الطليعة المقاتلة في سوريا، ولن نعطي ولاءنا إلا لقيادة ميدانية واحدة في الوقت الحالي، وهي قيادة الأخ هشام جنباز وإخوانه" ، فاقترح الإخوان قيادة عمل مشتركة، تتألف من اثنين من الطليعة، واثنين من مجموعات الإخوان بقيادة مسؤول الإخوان بدمشق، فرفض أيمن شربجي، وانتهت تلك المفاوضات بأن أصبح في دمشق تنظيمان عسكريان: الطليعة المقاتلة، والتنظيم العسكري الجديد للإخوان، وابتدأت مرحلة أسماها أيمن شربجي "التنظيم الجديد وبدء الكارثة"، وكانت الكارثة أن عمل الإخوان إلى استقطاب كل من هب ودب في التنظيم العسكري الجديد، بغض النظر عن أي إجراءات أمنية، أو تخطيط، أو إدارة أو إعداد وتدريب، وظهرت آثار هذه الكارثة في أحداث ما بين العيدين عام 1980 أو مجزرة ما بين العيدين، كما يسميها أيمن شربجي، بدأت بسقوط ثلاث قواعد للتنظيم الجديد داخل دمشق بيد النظام، ، ومقتل كل من كان فيها، فرد التنظيم الجديد بتصعيد عام في دمشق، اعتمد على اغتيال الأفراد لا العمليات النوعية، كما كانت تفعل الطليعة، فاستنفر النظام بكل قواته. وخلال فترة الشهرين التاليين خسر التنظيم الجديد معظم كوادره بين قتيل ومعتقل، وغادر من يستطيع المغادرة خارج سوريا، وكان من نتيجة أعمال التنظيم الجديد على الطليعة المقاتلة التي كانت أوقفت عملياتها بين العيدين: خسرت الطليعة نحو 20 من كوادرها، وعدد من قواعدها نتيجة المداهمات، واعتُقلت أعداد غير معروفة من المتعاطفين، وصارت الكفة مائلة لمصلحة النظام. ورغم أن الطليعة استعادت نشاطها، وأعادت ترتيب أوضاعها ، إلا أن عملية استنزافها، وانكشاف قواعدها، واعتقال وقتل الفاعلين فيها استمر طوال عام 1981، والتي شهدت في الوقت نفسه تنفيذ أهم عمليات الطليعة في دمشق: تفجير مجلس الوزراء، تفجير آمرية الطيران، ضرب مبنى الخبراء الروس، عملية الأزبكية... وخلال هذه الفترة بعد انتهاء أمر التنظيم الجديد، لا يوجد في مذكرات أيمن شربجي شيء عن الإخوان، باستثناء طلب الإخوان في الخارج التباحث مع التنظيم العام للطليعة، فانتدبت الطليعة لتمثيلها عدنان عقلة قائد طليعة حلب، وقد سجل عدنان صوتياً كل ما دار بينه وبينهم من مفاوضات، خلال ثلاثة أشهر قبيل وأثناء مجزرة حماة، ووصل عدنان عقلة إلى النتيجة التالية: "إن القوم (الإخوان) لا خير منهم إطلاقاً، ولا يمكن أن نرجو منهم فعل أي شيء نهائياً؛ لأننا عرفنا وخبرنا نواياهم السيئة، وعرفنا مكرهم، وعرفنا خياناتهم، وعرفنا كذبهم".

أما أيمن شربجي، فلم يتح له تسجيل شهادته عما جرى في هذه الفترة خاصة أحداث حماة، كما كان ينوي، فقد قُتل بعد محاولة اعتقاله في مساكن برزة عام 1988، ولم يتح له استكمال ما كان ينوي كتابته عن أحداث حماة.

الإخوان المسلمون، وحافظ الأسد:

في نهاية السبعينات، ومع تصاعد وتيرة العمل المسلح للطليعة، دخل الإخوان في مفاوضات مع نظام الأسد، عُرفت باسم مفاوضات (يكن-الأسد)، نسبة لأمين يكن مراقب عام الجماعة حتى عام 1975، في الوقت الذي كانت قياداتهم في الخارج تسعى للسيطرة على الطليعة وتحويلها إلى تابع لها، ومعلوم ظاهرياً أن هذه المفاوضات فشلت، كما فشلت محاولة السيطرة على الطليعة. ونلاحظ فرقاً في طريقة سرد العلاقات بين الأسد والإخوان بين عدنان عقلة، وأيمن شربجي، فعدنان عقلة يتهمهم صراحة بالعمالة بالأسماء والوقائع، فينقل عن عدنان سعد الدين قوله: "إن اتصالاتنا لم تنقطع يوماً مع النظام"، ويقول عقلة نقلاً عن حسن هويدي: إن عبد الله الطنطاوي (قيادي إخواني)، هو من سرّب للمخابرات السورية وقائع اجتماع لجنة الوفاق، وكتب في رسالة للأسد: هناك تيار متعصب طائفي (الطليعة)، نحاول تطويقه، وصولاً للمصالحة الوطنية بضمانة السيد الرئيس حافظ الأسد.

أما أيمن شربجي، فيستعمل صيغ المواربة، وعدم الاتهام المباشر، فيؤكد على وجود المفاوضات بين الإخوان والأسد، وكان من ظلالها عام 1980 قيام النقابات بأمر من قيادات الإخوان المسلمين، أو من ذاتها، كما يقول شربجي بفتح حوار مع السلطة التي أبدت تجاوبها الظاهر، وأنها تريد الديمقراطية، وإطلاق الحريات، وقام بالفعل بإطلاق بعض السجناء، حتى إذا انكشف له موقف النقابات والقائمون عليها اعتقلهم وأودعهم السجون.

وفي الواقع، فإن الإخوان دخلوا مفاوضات مع الأسد أكثر من مرة: عام 1980. وعام 1982 بعد مذبحة حماة، وعام 1984 بعد صراع الأخوين حافظ-رفعت... ففي عام 1984 أو بعدها، والتي كان منها أن نظام الأسد، أراد تخفيف الأزمة الداخلية التي يعيشها على إثر المحاولة الانقلابية لرفعت الأسد، فأراد تخفيف الضغط عليه، ففتح قنوات المفاوضات مع الإخوان في الخارج، فكان الإخوان بعد سنتين من هذه المفاوضات بحاجة لإظهار قوة لهم في الداخل، ولو بشكل مصطنع، فطلبوا من أيمن شربجي

استفتى شربجي الإخوان في موقفهم من إيران والخميني الذي بارك مجزرة حماة، فقال له الإخوان وقتها: إن مواقف الإيرانيين من نظام أسد مؤقتة!

تفجير عبوة ناسفة في حاوية قمامة في ساحة المرجة مقابل 10 آلاف ليرة، وهو ما أثار حنق شربجي عليهم، وقال: نحن مجاهدون، ولسنا مرتزقة، ورفض أيمن شربجي بشكل قاطع تنفيذ ما أرادوا، ويقول شربجي عن هذه المفاوضات، فيما أرسله للإخوان: "لقد فاوضتم السلطات السورية مدة سنتين ونصف، دون أن نعلم شيئاً عن هذه المفاوضات، ثم سمعنا فشل المفاوضات، وعودة وفد النظام مهزوماً أمام جحافل المفاوضين، فهل كانت المفاوضات حول إعادة الحياة إلى عشرات الآلاف من شهداء حماة، أم كانت حول إسقاط الأجنة من بطون آلاف المسلمات اللواتي اغتصبهنّ علوج الكفر النصيري؟"، "ذكرتم في بيانكم أنكم أعددتم العدة لجولة نهائية مع النظام، وهل هذه الجولة هي وضع عبوة ناسفة مقابل 10 آلاف ليرة؟ فمتى تراجعون أنفسكم وتحاسبونها بصدق مع الله، وتتركون الهذرمة الإعلامية التي لا تقتل ذبابة".

ومن بين كل قضايا التنسيق بين الأسد والإخوان، التي اتهموا فيها، فإن قضية كشف قواعد الطليعة في حماة عام 1982، قبيل مذبحة حماة، وكشف تنظيم الضباط الأحرار التي راح فيها 400 ضابط سني، أشار فيها عدنان عقلة، وعمر جواد قائد طليعة حماة إلى تسريب حدث من الخارج للمخابرات السورية، وكان هناك سؤال طرحه عدنان عقلة على عمر جواد: "أتُقدّرون أن يكون السبب وراء هذه الأمور تخريب خارجي؟ كان جواب عمر: نحن لا نجزم، ولكن كل ما بأيدينا يؤكد هذا"... وقد حدث الإيقاع بالضباط، بعد لقاء جمع أحد هؤلاء الضباط بقيادات الإخوان حسن هويدي، وعدنان سعد الدين، وفي هذا اللقاء أخبر مندوب الضباط، إن تنظيم الضباط سيقوم بانقلاب عسكري، فإن لم يكن لديكم إمكانات للدعم، فسنتحرك بالتنسيق مع الطليعة.

وكانت ساعة الصفر يوم 28 /1/ 1982، لكن ما حدث أنه تم الإيقاع بالجميع يوم 8 / 1، من خلال رسالة أرسلها علي صدر الدين البيانوني إلى درعا، ضمّنها اسم أحد الضباط في التنظيم، وتم الإيقاع بالساعي، وانفضح أمر الضباط، ثم أمر التنظيم بحسب رواية عدنان عقلة، أما أيمن شربجي فيرى أن الإيقاع بتنظيم الضباط في الجيش؛ جاء بسبب اعترافات نبيل حبش، وهو شخصية قلقة مريب، كان عضواً في طليعة دمشق، ثم هرب من دمشق، دون إعلام قيادة الطليعة والتجأ إلى الإخوان في الخارج، فاستقبلوه بحفاوة، ورفعوه إلى أعلى المناصب القيادية التي كانت كما قال الشربجي أكبر من عقله وإمكانياته، واستخدموه كمراسل لهم، حيث ألقي القبض عليه في قبرص، وسُلّم إلى سوريا، فاعترف على تنظيم الضباط الذي أعدم منه 400 ضابط سني، أما عدنان عقلة، فيقول: إن ما حدث كان مخططاً له لذبح كل شيء على الساحة. واستكمالاً لموقف الطليعة في دمشق من قيادات الإخوان في الخارج، هناك ثلاثة من قادة الإخوان في الخارج، أثنى عليهم شربجي، هم: عدنان سعد الدين الذي قال إنه كان يتعاون معنا بكل دقة وإخلاص، وسعيد حوى الذي قال إنه يثق به، وحسن هويدي الذي لا نشك في إخلاصه وتفانيه.. ويعقب شربجي: إن هؤلاء تم إبعادهم وتجميدهم وعزلهم، ويتساءل: "هل هناك قرار بضرب المجاهدين في الداخل، وإبعاد كل من يتعاون معهم في الخارج؟"، ورأي الشربجي فيهم، هو على عكس رأي عدنان عقلة الذي يعتبرهم، وكل قيادات الإخوان في الخارج في السوء واحداً.

الإخوان المسلمون، وإيران الخميني

يتطرق شربجي إلى موقف الإخوان المحابي للخميني، وكان شربجي قد استفتى الإخوان في موقفهم من إيران وثورة الخميني، والعلاقة بين حافظ الأسد والخميني الذي بارك مجزرة حماة... فقال له الإخوان وقتها: "إن مواقف الإيرانيين من نظام أسد مؤقتة، نظراً لضرورة ظروفهم الدولية الصعبة"، ويجيبهم شربجي: عندما دققنا في عقيدة الشيعة الاثني عشرية، وجدنا أنهم مجوس، كفرة، حاقدون على الإسلام أكثر من اليهود، ويتقربون إلى الله بقتل المسلمين"، فهل خلافاتكم البينية لم تسمح لكم بدراسة عقيدة الخميني؟

كيف شوَّه فاروق اسليم مذكَّرات الشَّيخ يوسف السَّعدون؟

د. مهنا بلال الرشيد

صدر كتاب (مذكّراتي عن الثّورة والقتال) عن اتحاد الكتّاب العرب في دمشق سنة 2020، ويقع الكتاب في 345 صفحة من القطع المتوسّط، وله غلاف خارجيّ من جهتيه: اليمنى واليسرى، وله غلاف داخليّ من الجهة اليمنى....

وقد اختلف عنوان الكتاب الخارجيّ من جهته اليمنى: (مذكّراتي عن الثّورة والقتال)، تحقيق وتحرير وتقديم: فاروق اسليم عن عنوانه الدّاخليّ من جهته اليمنى أيضًا، فكان العنوان الدّاخليّ أكثر تفصيلًا: (مذكّراتي عن الثّورة والقتال في أعوام: 1919 و1920 و1921 و 1926 و1937 و1938 و1945، الشّيخ يوسف السّعدون قائد المنطقة الأولى في ثورة الشّمال 1892-1980)، تحقيق وتحرير، وتقديم: الدُّكتور فاروق اسليم، وقد صمّمت غلاف هذا الكتاب، أو أخرجته فنّيًا: وفاء السّاطي، ووضعت مصمّمة غلاف المذكّرات مع محقّقها صورة كبيرة للشّيخ يوسف السّعدون صاحب المذكّرات على غلاف الكتاب، وأغفلا اسم الشّيخ السّعدون بوصفه مؤلّف المذكّرات وصاحبها، ولم يذكرا اسمه على الغلاف الخارجيّ إطلاقًا؛ فبدا الكتاب كأنّه مذكّرات فاروق اسليم، لا مذكّرات يوسف السّعدون!

وفي هذه الطّريقة من طُرق العَنونة تدليس لا يرضاه ذو علمٍ، برغم ادّعاء المحقّق اعتماده نهجَ المحقّقين، واستعانته بزميله حفيد السّعدون المهندس البعثّي محمّد فادي السّعدون للتّقديم لهذا الكتاب، وقد عيّن حزب البعث هذا المهندس محافظًا على مدينة إدلب بعد خروجها عن سيطرة النظام خلال الثّورة السّوريّة الّتي انطلقت ضدّ بشّار الأسد في آذار 2011.

بداية الاهتمام بمذكّرات الشّيخ السّعدون

قدّم الحفيد محمّد فادي السّعدون لهذا الكتاب بمقدّمة، جاءت في ثلاث صفحات، وروى محمّد فادي السّعدون أنّ أسرة السّعدون في ختام دورة الشّيخ يوسف السّعدون -وهي الدّورة الثّانية من مهرجان إبراهيم هنانو- "توجّهت إلى السّادة الدُّكتور فاروق اسليم، والدُّكتورة الباحثة في معهد دراسات الشّرق الأدنى في بيروت نادين المعوشيّ، وهي أكاديميّة فرنسيّة من أصول لبنانيّة، والدُّكتور عمّار السّمر الباحث في مركز الوثائق التّاريخيّة بدمشق، ومعاون مدير المركز للقيام بتحقيق هذه المذكّرات وتحريرها، والتّقديم لها بما يرونه مناسبًا من الدّراسات حولها، غير أنّ ظروفًا مختلفة حالت دون مشاركة الدُّكتورة نادين المعوشيّ، والدُّكتور عمّار السّمر في إنجاز هذا العمل، الّذي أضحى جاهزًا للنّشر بعد تحقيقه، وتحريره، والتّقديم له بأكثر من دراسة من قبل الدُّكتور فاروق اسليم، فله شكرنا مع رجائنا بأن يُحقّق نشرُ هذا الكتاب الغايات المرجوّة منه..."، فهل كان لفاروق اسليم منهجيّة علميّة في تحقيق هذا الكتاب وتحريره؟ هل وضع فاروق اسليم اسم الشّيخ يوسف السّعدون صاحب المذكّرات وكاتبها على غلاف الكتاب؟ هل حذف شيئًا منها؟ وهل حقّق غاياته المرجوّة من نشر هذه المذكّرات؟ ستجيبنا منهجيّة فاروق اسليم عن هذه الأسئلة!

من هو فاروق اسليم؟

يُعرِّف الموقع الرّسميّ لاتّحاد الكتّاب العرب فاروق اسليم، بأنّه من مواليد مدينة إدلب سنة 1953، وحاصل على الدُّكتوراه في الأدب العربيّ، عندما كان في الثّانية والأربعين من عمره سنة 1995، وكانت أطروحته بعنوان: "الانتماء في الشّعر الجاهليّ"، ويذكر الموقع الرّسميّ لجامعة حلب أنّ فاروق اسليم عُيّن فيها سنة 1996؛ أي بعد حصوله على الدُّكتوراه مباشرة، عندما كان اسليم في الثّالثة والأربعين من عمره. وقد شغل منصب مدير جامعة حلب (فرع إدلب، الّذي صار جامعة مستقلّة فيما بعد) بين (2012-2014)؛ أي خلال اندلاع الثّورة ضدّ حزب البعث والمجرم بشّار الأسد، ثمّ احتجز ثوّار محافظة إدلب فاروق اسليم وأفرجوا عنه بعد ذلك؛ ليرجع إلى مدينة حلب، ويبدأ بالمجاهرة بتأييد الأسد، من خلال نشاطه التّنظيميّ في حزب البعث، وينتقد دعم الغرب (الإمبرياليّ بحسب توصيفه) للثّوّار ضدّ المجرم بشّار الأسد، ويدعو شباب سوريا للعودة إلى (تحت سقف الوطن) مع أنّ أبناء فاروق اسليم ذاتهم يتابعون دراستهم في أمريكا وبريطانيا.

من هو الشّيخ يوسف السّعدون؟

وُلد الشّيخ يوسف بن محمّد بن يوسف السّعدون سنة 1892 في قرية تليل الشّرقي الواقعة على الضّفّة الغربيّة لنهر العاصي، بين قريتي التّلول، وجسر الحديد شمال إدلب في مدينة سلقين على

الحدود السُّوريَّة التُّركيَّة. حارب في البصرة جنوب العراق ضدَّ القوَّات الإنكليزيَّة، خلال الحرب العالميَّة الأولى بين 1914-1918، واستقرَّ في قريته تليل الشَّرقي، بعد انتهاء الحرب العالميَّة الأولى مدَّة وجيزة، ثمَّ تسلَّم قيادة المنطقة الشَّماليَّة الأولى في ثورة إبراهيم هنانو، وشارك وقاد كثيرًا من المعارك ضدَّ الفرنسيِّين شمال سوريا في كُلٍّ من حارم، وسلقين، وكفرتخاريم، وجبل الزَّاوية، وريف حلب الغربيّ والجنوبيّ، وتنقَّل بين عينتاب، وأنطاكية، ثمَّ فرض عليه الفرنسيُّون الإقامة الجبريَّة في مدينة حلب، وظلَّ فيها حتَّى نهاية الحرب العالميَّة الثَّانية سنة 1945، حيث انتقل بعد ذلك إلى إدلب، وقاد ثورة الاستقلال ضدَّ الفرنسيِّين في كُلٍّ من إدلب، وكفرتخاريم، وجسر الشُّغور، ورجع إلى سلقين بعد جلاء الفرنسيِّين عن سوريا في 17 نيسان 1946، ومكث فيها حتَّى وفاته سنة 1980.

كيف استطاع فاروق اسليم نشرَ مذكَّراتِ السَّعدون بعد إهمالها؟

لم يهتمَّ حافظ الأسد (الأمين العامّ لحزب البعث) بيوسف السَّعدون أو بمذكَّراته، برغم أهمِّيَّة السَّعدون بين قادة الثَّورة من المحاربين القدماء من ناحية أولى، وبرغم أهمِّيَّة مذكَّراته ذاتها من ناحية ثانية، وبرغم وصول حافظ الأسد إلى السُّلطة قبل عشر سنوات من وفاة السَّعدون من ناحية ثالثة، بل على العكس من ذلك، فقد همَّش حافظ الأسد السَّعدون ومذكَّراته معًا؛ بسبب ارتيابه من وجود الأخوان المسلمين في بيئة السَّعدون، وبين أحفاده من أفراد عائلته الثَّائرة أيضًا، وعلاوة على ذلك فقد زجَّ حافظ الأسد باثنين من أحفاد يوسف السَّعدون في سجن تدمر، بتهمة الانتماء إلى الأخوان المسلمين، وفي الوقت نفسه رفع من قيمة علي العلي (حفيد الشَّيخ صالح العليّ من قرية الشَّيخ بدر في طرطوس)، وجعله نائبًا لعمَّار ساعاتيّ رئيس الاتِّحاد الوطنيّ لطلبة سوريا، وراح جنود البعث -مثل فاروق اسليم وغيره- من أساتذة الجامعات السُّوريَّة في (دمشق، وحلب، وحمص، واللَّاذقيَّة) يستقدمون علي العليّ في كُلِّ مناسبة؛ للإشراف مع الأساتذة البعثيِّين، وفرع حزب البعث على انتخاب أعضاء الهيئات

همَّش حافظ الأسد السَّعدون ومذكَّراته معًا؛ بسبب ارتيابه من وجود الأخوان المسلمين في بيئة السَّعدون، وبين أحفاده من أفراد عائلته الثَّائرة !

الإداريَّة من طلَّاب الجامعة مطلع كُلِّ عام، أو للحديث مع الأساتذة البعثيِّين عن الهويَّة والانتماء، وبعض القضايا المرحليَّة المهمَّة، وأدَّى فاروق اسليم (الأستاذ البعثيّ في مثل هذا الدَّور، فقد أشرف على تنظيم الفرق الحزبيَّة في جامعة حلب، في ذروة تقدُّم الثُّوَّار ضدَّ حكم حزب البعث والأسد سنة 2015، وأغرى بعض الطُّلَّاب باستلام رئاسة الفرق، والشُّعب الحزبيَّة مقابل تسجيلهم بين طُلَّاب الدِّراسات العليا، وتأمين المشرفين الأكاديميِّين لهم، وتعيينهم كمحاضرين في الجامعة، وبهذه الطَّريقة استطاع فاروق اسليم أن يرسل أبناءه للدِّراسة في أمريكا وبريطانيا، وهم في بلدان دراستهم حتَّى وقتنا الرَّاهن، برغم أحاديث فاروق اسليم البعثيَّة المستهلكة عن دور إمبرياليَّة أمريكا، وليبراليَّة الغرب الحديثة في دعم الثَّورة السُّوريَّة ضدَّ المجرم بشَّار الأسد، ونظرًا لجهود فاروق اسليم البعثيَّة الفريدة، (أنتخب) في لجنة اتِّحاد الكتَّاب العرب المركزيَّة في دمشق، وتسلَّم رئاسة مجلَّة التُّراث العربيّ فيها، وأشرف -بعد تنحية نضال الصَّالح، الَّذي حاربه ظاهريًا- وما زال يشرف على تنظيم أنشطة الثَّقافة البعثيَّة في فروع اتِّحاد الكتَّاب العرب، لاسيَّما حلب وحماة وحمص ودمشق، وحافظ على تمديد عمله أستاذًا جامعيًا بعثيًا في جامعة حلب، برغم تجاوزه سنَّ السَّبعين، مع أنَّ بلوغ هذا السِّنِّ يُحيل كُلَّ أستاذ جامعيّ إلى التَّقاعد القانونيّ، إلَّا إنْ كان من المرضيِّين عنهم بعثيًا، فإنَّه سيتمكَّن من مواظبة عمله الرَّسميّ أو الحصول على عمل في موقع آخر.

قصَّة مذكَّرات الشَّيخ السَّعدون وأصلها

كان الشَّيخ المجاهد يوسف السَّعدون قائدًا لثُوَّار المنطقة الشَّماليَّة الأولى ضدَّ (الاحتلال/الانتداب) الفرنسيّ في سوريا، وشارك في المعارك ضدَّ الفرنسيِّين شمال غرب سوريا، على مدى سبعة وعشرين عامًا من 1919 حتَّى 1946، وكان يكتب مذكَّراته عن الثَّورة والقتال منذ احتلال الفرنسِّيين لسوريا، حتَّى جلائهم عنها في السَّابع عشر بالإضافة إلى أسماء الشُّهداء وأسماء بلداتهم؛ ليستعين بالملاحظات في تسجيل المذكَّرات، وقد فُقد دفتر ملاحظات السَّعدون، ووصلتنا مذكَّراته، وفي سلامة هذه المذكَّرات شيءٌ ممَّا يعزِّي القارئ بعد فَقْدِ دفتر الملاحظات. وبعد جلاء الفرنسيِّين راح الشَّيخ يوسف السَّعدون يراجع مذكَّراته، ويكتب ما لم تسعفه ظروف المعارك على توثيقه، خلال مرحلة (الاحتلال أو الانتداب)، حتَّى كتب بخطِّ يده ما أسعفته ذاكرته، ودفتر ملاحظاته على استرجاعه من ذكريات أيَّام القتال أو مذكَّراتها، وبعد انتهائه من كتابة مذكَّراته بخطِّ يده في شهر آب/ أغسطس سنة 1953، كُتبت هذه المذكَّرات على الآلة الكاتبة، وأودعت نسخ أخرى منها في المتحف الحربيّ، ومركز الوثائق التَّاريخيَّة، بالإضافة إلى النُّسخة الأصليَّة، الَّتي ظلَّت عند الشَّيخ المجاهد يوسف السَّعدون، واحتفظ بها أبناؤه وأحفاده من بعده.

وجدت الباحثة في تاريخ بلاد الشَّام الحديث الأكاديميَّة الفرنسيَّة-اللُّبنانيَّة نادين المعوشّي في مذكَّرات يوسف السَّعدون أهمِّيَّة خاصَّة (1)، من حيث توثيق أجواء المعارك، وقيادة الثَّورة ضدَّ الفرنسيِّين خلال وجودهم في سوريا، فبدأت في مشروع تحقيق مذكَّرات السَّعدون سنة 2008، وزارت عائلته في سلقين، وحصلت على نسخة من مذكَّراته مع جملة من الوثائق الأخرى؛ لتشرع في دراسة هذه المذكَّرات وتحقيقها، وتوثيق أحداثها، ونشرها بالتَّعاون مع عمَّار السَّمر نتيجة لعمله الأكاديميّ، بوصفه نائبًا لمدير مركز الوثائق التَّاريخيَّة في سوريا، وبعد سنة من جهد المعوشّي والسَّمر، انضمَّ فاروق اسليم إلى أعضاء الفريق، بعد لقائه بهم على هامش الدَّورة الثَّانية من مهرجان إبراهيم هنانو، الَّذي نُظِّم في مدينة إدلب يومي 22 و23 تشرين الثَّاني/ نوفمبر سنة 2009، وحملت دورته الثَّانية اسم يوسف السَّعدون عنوانًا لها، ونظَّمتها وزارة الثَّقافة السُّوريَّة بالتَّعاون مع محافظة إدلب، واللَّجنة الوطنيَّة لذاكرة الشَّمال السُّوريّ، وفرع نقابة الأطبَّاء في

يستفيد من فاروق اسليم في تقديم مراجعة لغويَّة لمذكَّرات السَّعدون، وتوثيق الشَّواهد الشِّعريَّة، وآيات القرآن الكريم المستخدمة في المذكَّرات، مع إدراك الفريق أنَّ أيَّ مدقِّق لغويٍّ يمكن أن يقوم بمثل هذا النَّوع من التَّحرير، الَّذي لا يمكن أن يكون تحقيقًا، ولا يُغني عنه أبدًا، ولا تعدُّ دور النَّشر المدقِّقَ اللُّغويَّ شريكًا في التَّأليف، برغم إسهامه في ضبط لغة الكتاب، وشرح معاني بعض المفردات.

ثُمَّ اشتعلت الثَّورة السُّوريَّة ضدَّ حكم حزب البعث، وقائده المجرم بشَّار الأسد في آذار 2011، فأجَّلت المعوشيّ مع السَّمر إنجاز البحث، وتابع فاروق اسليم منهجيَّة حزبه؛ أي منهجيَّة حزب البعث في تدليس الحقائق، وسطا على جهود زميليه بدل الالتزام بواجبه الأخلاقيّ، تجاه شريكيه صاحبي المشروع الأساسيَّين، من حيث انتظار تحسُّن ظروفهم، وفي الحقيقة بسبب انتماء فاروق اسليم لحزب البعث، وانحيازه لقائده المجرم بشَّار الأسد لم يكن يستطيع الانتظار، فقد تُسفر الثَّورة عن الإطاحة بالمجرمين كلِّهم؛ لذلك انتهز الفرصة بطريقة مكيافيليَّة، بعدما أفرج عنه ثوَّار الشَّمال السُّوريِّ في إدلب، وبعد عودة اسليم إلى مكان عمله في جامعة حلب، وخلال تنقُّله بين حلب ودمشق، اتَّصل بالمهندس محمَّد فادي السَّعدون حفيد الشَّيخ يوسف السَّعدون، وجنَّده-كما جنَّد غيره-في حزب البعث، وتقاسم على الورق معه حُكَم محافظة إدلب، فعيَّنَ حزب البعث محمَّد فادي السَّعدون محافظًا لمدينة إدلب، مع أنَّ هذه المدينة محرَّرة، وليس لحزب البعث فيها أيُّ سلطة أو نفوذ، ثُمَّ أعمل فاروق اسليم مبضَعه، ومخيِّلته البعثيَّة في مذكَّرات الشَّيخ يوسف السَّعدون ووثائقه، وأخرجها مشوَّهة دون أن يعلِّق عليها، أو يقارن رواية أحداثها وأخبارها بروايات أخرى، لدى معاصريها من أصحاب المذكَّرات، الَّذين أرَّخوا لهذه الأحداث، أو كتبوا رواياتهم عنها، ودون أن يقارنها بما جاء في الكتاب الذَّهبيّ الفرنسيّ؛ حتَّى تغدو هذه المذكَّرات مرجعًا مهمًّا في كتابة تاريخ سوريا الحديث في مرحلة ما بين الحربين العالميَّتين: الأولى والثَّانية، ومن المضحك أن يعتمد فاروق اسليم على كتاب آصف شوكت: (الثَّورات

أعمل فاروق اسليم مبضَعه، ومخيِّلته البعثيَّة في مذكَّرات السَّعدون ووثائقه، وأخرجها مشوَّهة دون أن يعلِّق عليها، أو يقارن رواية أحداثها وأخبارها

السُّوريَّة بين 1918-1921 في المنطقتين السَّاحليَّة والشَّماليَّة الغربيَّة) في تحقيقه المزعوم، وآصف شوكت هو زوج بشرى بنت حافظ الأسد، ويعرف الجميع أنَّ حافظ الأسد، وصهره آصف شوكت ناقمان أساسًا على آل السَّعدون!

ويبدو لي أنَّ فائدة كتاب آصف شوكت، كانت في التَّعبير عن انتماء فاروق اسليم لحزب البعث، وولائه لقائده المجرم بشَّار الأسد أكثر منها في تحقيق المذكَّرات ذاتها، إلَّا من ناحية إنشاء الكلام حول هذه المذكَّرات من ناحية أولى، ولَيِّ عنُقها أو تقويلها ما لم تقله من ناحية ثانية، حيث اقتبس فاروق اسليم في مقدِّمته على مذكَّرات الشَّيخ يوسف السَّعدون من كتاب آصف شوكت، فقال: [وممَّا يشير إلى ذلك محاولة] (ثورة الشَّيخ صالح العليّ، وثورة هنانو الحصول على الدَّعم من تركيا، بدعوى إحياء التَّضامن الدِّينيّ بين الأتراك والعرب ضدَّ العدوِّ المشترك) (2). ونحن نعلم من خلال مقارنة مذكَّرات الشَّيخ يوسف السَّعدون بكتاب (ثورة الشَّيخ صالح العليّ) لعبد اللَّطيف اليونس، أنَّ الشَّيخ يوسف السَّعدون اشتكى من تقصير الملك فيصل، وأخيه الأمير زيد في دعم ثورة الشَّيخ يوسف السَّعدون، بينما أكَّد عبد اللَّطيف اليونس إغداق الملك فيصل أمواله على الشَّيخ صالح العليّ (3).

توصيف أصل المذكَّرات، ومصادر الشَّيخ يوسف السَّعدون

تحوَّلت مذكَّرات الشَّيخ يوسف السَّعدون المكتوبة بخطِّ يده إلى مسوَّدة أو نسخة أصليَّة، يُستفاد منها بمقارنتها بنسخة المذكَّرات المكتوبة، بوساطة الآلة الكاتبة في 85 صفحة، تحوي كُل واحدة منها 46 سطرًا، ويحوي السَّطر الواحد حوالي 19 كلمة؛ أي تضمَّ الصَّفحة الواحدة من صفحات المذكَّرات الأصليَّة حوالي أربع صفحات من صفحات الكتب المنشورة بأبعاد القطع المتوسِّط في وقتنا الرَّاهن، وقد سبق هذه المذكَّرات ثلاث صفحات، أشار الشَّيخ يوسف السَّعدون في الصَّفحة الأولى منها إلى انتهائه من تدوين مذكَّراته في الثَّاني من آب/أغسطس 1955، بعد تدقيقه مسوَّدة النُّسخة الأولى الَّتي أنجزها في آب 1953، وكتب فيها ترجمة له، أو تعريفًا عنه في حدود ستَّة أسطر، وكتب في الصَّفحتين بعد النَّبذة التَّعريفة فهرسًا تضمَّن عناوين تلك المذكَّرات.

جمع الشَّيخ يوسف السَّعدون مادَّة مذكَّراته من مشاهداته في المعارك الَّتي خاضها، ومن روايات أصدقائه الَّذين رووا له بعض الأحداث المهمَّة، الَّتي دارت في أماكن لم يكن حاضرًا فيها؛ بسبب انشغاله بالمعارك أو التَّحضير لها، بالإضافة إلى اقتباس السَّعدون، أو نقله من كتابات منير الرَّيِّس، ومذكَّرات نجيب عويِّد، وهي مذكَّرات مهمَّة ما تزال مفقودة حتَّى وقتنا الرَّاهن.

منهجيَّة فاروق اسليم في التَّدليس وتشويه المذكَّرات

أشار فاروق اسليم في تقديمه للمذكَّرات، بعد كلمة المهندس محمَّد فادي السَّعدون بوصفه حفيد الشَّيخ، وممثِّل أسرة السَّعدون، وتحدَّث تحت عنوان ما قبل هذا العمل قائلًا: إنَّه أرسل إلى كُل من الدُّكتور السَّمر، والدُّكتورة المعوشيّ نسخة إلكترونيَّة من عمله المنجز، في ما يخصُّ تحقيق النَّصّ، وتحريره بعد أن زوَّده الدُّكتور السَّمر بمسوَّدة مذكَّرات السَّعدون، وزوَّدته الدُّكتورة المعوشيّ بنسخة إلكترونيَّة من المذكَّرات، سقط منها سهوًا، أو أُسقطت منها عمدًا الصَّفحتان (55-56)، مقارنة بالنُّسخة المعتمدة لدى فاروق اسليم، ويقول اسليم: (فاستكملت به العمل، وجعلت ما كتبه الشَّيخ بيده لسدِّ هذا النَّقص في ملحق خاصّ) (4).

اعترف فاروق اسليم في تقديمه لمذكَّرات يوسف السَّعدون، بإهمال حزب البعث الحاكم هذه المذكَّرات، وأشار إلى عدم اهتمامه بها إلَّا (ببحوث يسيرة قدَّمها المشاركون في مهرجانَي الزَّعيم إبراهيم هنانو بإدلب عامي 2008 و2009).

أشاد فاروق اسليم بجهود (الباحث، وعضو خليَّة الأزمة المكلَّفة بقمع ثورة السُّوريّين ضدَّ حزب البعث، والمجرم بشَّار الأسد) آصف شوكت، واهتمامه الكبير بمذكَّرات يوسف السَّعدون في كتابه (الثَّورات السُّوريَّة 1918-1921 في المنطقتين السَّاحليَّة والشَّماليَّة الغربيَّة: دراسة تحليليَّة سياسيَّة وعسكريَّة)، مع أنَّ آصف شوكت لم يحقّق هذه المذكَّرات ولم ينشرها، بل لم تسلك هذه المذكَّرات طريقها إلى النُّور والنَّشر إلَّا بعد أن أعمل فاروق اسليم مبضعه البعثيّ فيها.

اعترف فاروق اسليم خلال تقديمه لمذكَّرات الشَّيخ يوسف السَّعدون، وحديثه عن منهجه فيها ضِمنًا بدوره في ترويج أيديولوجيا حزب البعث المدمِّرة، من خلال دوره في التَّدليس والتَّجنيد لصالح حزب البعث، والتَّرويج لبعض مصطلحاته، مثل: (الأزمة السُّوريَّة بدلًا من الثَّورة السُّوريَّة)، ومصطلح: (تحت سقف الوطن)، وقال في مقدِّمة المذكَّرات: (في مطلع عام 2018 أقام مركز دمشق للأبحاث والدِّراسات- مداد مؤتمرًا بعنوان: (الهويَّة الوطنيَّة: قراءات ومراجعات في ضوء الأزمة السُّوريَّة)، وكان لي شرف المشاركة بورقة بحثيَّة بعنوان: (الهويَّة الوطنيَّة السُّوريَّة: تحدِّيات التَّكوين والمآل شعبيًا)، تضمَّنت وعي الزَّعامات الوطنيَّة الشَّعبيَّة، الَّتي حاربت الانتداب الفرنسيَّ (الشَّيخ صالح العلي-الشَّيخ يوسف السَّعدون-سلطان باشا الأطرش-حسن الخرَّاط...)، لتكوين الهويَّة الوطنيَّة، فكان أن عدتُ من جديد إلى مذكَّرات الشَّيخ السَّعدون، ورأيتُ فيها مرجعًا رئيسًا لفهم الهويَّة الوطنيَّة، ودفعني ذلك إلى كتابة قراءة خاصَّة بوعي الهويَّة عند الشَّيخ السَّعدون، أضفتها إلى قراءتي القديمة عن ثقافته وأدبيَّة سيرته في المذكَّرات، مع توصيف لعملي في تحقيق هذه المذكَّرات وتحريرها) (5).

ونلحظ ههنا من عنوان محاضرة البعثيّ فاروق اسليم تقديم اسم الشَّيخ صالح العلي على كلّ من أسماء: يوسف السَّعدون، وسلطان باشا الأطرش، وحسن الخرَّاط، مع أنَّ فاروق اسليم انطلق في هذا النَّوع من العمل من مذكَّرات السَّعدون نفسه، وبفضل مذكَّراته ذاتها أيضًا.

الولاء للبعث عند فاروق اسليم مقدَّم على الأمانة العلميَّة، وعلى الولاء التَّاريخيّ والجغرافي والمذهبيّ

ويبدو لنا في مثل هذا النَّوع من العنونة انحياز لعائلة المجرم بشَّار الأسد العَلَويَّة القريبة مذهبيًا وطائفيًا من الشَّيخ صالح العلي - الَّذي نقدِّر ثورته- بالإضافة إلى الانحياز الأيديولوجيّ لشخص الشَّيخ صالح العلي، وحفيده علي العلي المقرَّب من قيادة حزب البعث، على حساب الإخلاص ليوسف السَّعدون (القريب-البعيد) من فاروق اسليم تاريخيًا وجغرافيًا ومذهبيًا، وقد تكشف مثل هذه العنونة-إذا استثنينا فرضيَّة خوف اسليم من عائلة الأسد المجرمة، أو رغبته بالتَّعاون معها-أنَّ الولاء للبعث عند فاروق اسليم مقدَّم على الأمانة العلميَّة، وعلى الولاء التَّاريخيّ والجغرافيّ والمذهبيّ، ونحن نعلم أنَّ الهويَّة تتشكَّل من هذه العوامل مجتمعة (الجغرافية المشتركة، الدِّين المشترك، التَّاريخ المشترك، العرق المشترك)، مع اختلاف ترتيب هذه العوامل، وأهمِّيَّتها من باحث إلى آخر بين المنظِّرين في الهويَّة والولاء والانتماء.

وقد رجعتُ إلى كتاب (ثورة صالح العلي) الصَّادر عن وزارة الثَّقافة والإرشاد القوميّ، ودار اليقظة العربيَّة سنة 1960 لمؤلِّفه: عبد اللَّطيف اليونس، ووقفتُ على آراء مهمَّة لمؤلِّف الكتاب، يسمِّي فيها ثورة الشَّيخ صالح العلي -دون حَرَج- بالثَّورة العَلَويَّة في موطن، ويشكو من عدم وجود المستندات الَّتي توثِّق ثورته في موطن آخر، ويتحدَّث عن ثورة الشَّيخ صالح العلي ضدَّ العثمانيِّين، ثمَّ انكفائه عن الثَّورة ضدَّ الفرنسيِّين بعد مدَّة من القتال المدعوم من الملك فيصل إلى ما بعد 1930؛ أي أنَّ ثورة الشَّيخ صالح العلي كانت مدعومة من الملك فيصل ثمَّ انطفأت، أو أخمدت بعد تنحية الملك فيصل عن حُكم سوريا، وبهذا تأخَّرت بعد ثورة الشَّيخ صالح العلي عن ثورة الشَّيخ يوسف السَّعدون أكثر من عشر سنوات، وأنَّ الشَّيخ صالح العلي كان إقطاعيًا، ولم يكتب مذكَّراته؛ ولذلك -من وجهة نظري- لا يوجد أيُّ تبرير منطقيّ لدى فاروق اسليم-غير خوفه من آل الأسد، أو تعاونه معهم، أو انحيازه إلى الأيديولوجيا البعثيَّة، أو كلّ هذه الأشياء مجتمعة-لتقديم اسم الشَّيخ صالح العلي في عنوان محاضرته، أو حشر كتاب آصف شوكت - صهر بشَّار الأسد الَّذي قُتل في حادثة خليَّة الأزمة - بين مصادر فاروق اسليم الَّتي اعتمدها في تحقيق مذكَّرات يوسف السَّعدون، فقال عبد اللَّطيف اليونس مؤلِّف كتاب ثورة الشَّيخ صالح العلي: (وممَّا يؤسف له حقًا ألَّا يكون في متناول اليد مستندات يوثق بصحَّتها، لتلك الثَّورة الكبرى [أي ثورة الشَّيخ صالح العلي ضدَّ الفرنسيِّين] في الوقت الَّذي توجد فيه مستندات كثيرة لثورات -ولا نقول لحركات- قليلة الأهمِّيَّة) (6).

ملاحظات عبد اللَّطيف اليونس، وعناوينه هذه نُشرت في كتابه عن ثورة الشَّيخ صالح العلي سنة 1960، وهذا يدلُّ أنَّ هذا الكتاب منشور قبل وصول حزب البعث إلى الحكم في سوريا، بعد انقلابه ضدَّ ناظم القدسيّ في الثَّامن من آذار سنة 1963، وفي هذا الكتاب أكثر من إشارة تكشف عن دور فاروق اسليم في تشويه مذكَّرات الشَّيخ يوسف السَّعدون، فصاحب كتاب ثورة الشَّيخ صالح العلي-بخلاف البعثيّ المؤدلج فاروق اسليم-لا يتحرَّج من تسمية ثورة الشَّيخ صالح العلي بأنَّها ثورة عَلَويَّة، ولم يُنكر أحدٌ أنَّ العلويِّين مكوِّن طائفيّ مهمّ من مكوِّنات سوريا، فلماذا أعمل فاروق اسليم مبضعه وأيديولوجيَّته البعثيَّة في مذكَّرات (يوسف السَّعدون)، وحذف منها إشارات الشَّيخ يوسف السَّعدون إلى العَلَويَّة أو النُّصيريَّة؟! ووفقًا لقراءة الأستاذ حسام جزماتي في مذكَّرات يوسف السَّعدون المنشورة (بتحقيق) فاروق اسليم، ومقارنته إيَّاها بأصلها وجد الأستاذ جزماتي أنَّ فاروق اسليم حذف في كتابه المطبوع أجزاء من مذكَّرات يوسف السَّعدون في خمسة مواضع، في الصَّفحات ذوات الأرقام: (53، 62، 195، 263، 321)، وقال جزماتي في نقد منهجيَّة فاروق اسليم:

"هكذا. دون إشارة واضحة إلى الحذف في أماكنه، ولا إلى حجمه، ولا إلى طبيعة الأحكام المتسرِّعة الَّتي دفعته إلى مخالفة المعايير العلميَّة المعتمدة في نشر أيّ مخطوط" (7)

وقفة أخيرة

تحدَّث فاروق اسليم عن "منهجيَّته" في "تحقيق" مذكَّرات الشَّيخ يوسف السَّعدون في اثنتي عشرة نقطة، قال فيها: إنَّه حافظ على عناوين المؤلِّف، وقسَّم كلامه الطَّويل إلى مقاطع، واستخدم علامات التَّرقيم، ووثَّق الآيات القرآنيَّة الكريمة، والأحاديث النَّبويَّة الشَّريفة، والأشعار والأخبار التَّاريخيَّة (عدا المشهور منها)، وشرح بعض عبارات الشَّيخ السَّعدون وأمثاله، وصحَّح أخطاءه النَّحويَّة والإملائيَّة، وحذف نُقول الشَّيخ يوسف السَّعدون الطَّويلة من كُتب الجهاد لعدم فائدتها بحسب رأيه، كما أغفل فاروق اسليم (في موضعين أو ثلاثة من المذكَّرات أحكام الشَّيخ يوسف السَّعدون المتسرِّعة والمتعصِّبة، ورأى أنَّ إغفالها أفضل من ذكرها مع الإشارة إلى موضعها بما يُشير إلى الحذف)، وأثبت اقتباسات الشَّيخ يوسف السَّعدون من منير الرَّيِّس حول الزَّعيم إبراهيم هنانو.

يبدو لنا دور فاروق اسليم القياديِّ الواضح في الدِّفاع عن أيديولوجيا حزب البعث والتَّرويج لها، برغم تناقض هذه الأيديولوجيا مع أمانة التَّحقيق والبحث العلميّ، من خلال حذفه "أحكام الشَّيخ يوسف السَّعدون المتسرِّعة والمتعصِّبة"، وههنا تخلَّى عن دور المحقِّق، وصار خصمًا للشَّيخ سعدون وحكمًا عليه، وعلى شهادته ومذكَّراته في آن واحد معًا، وإن تجاوزنا عن هذه الخصومة، لا يبقى لفاروق اسليم شيء من التَّحقيق إلَّا ما يمكن توصيفه (بالتَّدقيق اللُّغويِّ) الَّذي تستعين عليه دور النَّشر المعاصرة بخبراء لغويِّين، أو مراجعين يراجعون مخطوطات كُتبها قبل نشرها. والتَّدقيق اللُّغويُّ شيء مختلف تمامًا عن أمانة التَّحقيق، والبحث العلميّ الرَّصين، فكم نشر المحقِّقون الشُّرفاء والباحثون الأذكياء، آراء لا يؤمنون بها لكثير من خصومهم الَّذين يختلفون معهم، بخلاف ما فعله فاروق اسليم، الَّذي تخلَّى عن أساسيَّات كثيرة في أبجديَّات التَّحقيق الرَّصين، والبحث العلميّ الرَّزين، فلم يذكر -على سبيل المثال- اسم البحر العروضيّ لأبيات الشِّعر في هذه المذكَّرات، ولم يصنع في نهاية المذكَّرات أيَّ فهرس من فهارس التَّحقيق، فكتاب المذكَّرات بصورته الرَّاهنة

كم نشر المحقِّقون والباحثون الشرفاء، آراء لا يؤمنون بها لكثير من خصومهم الَّذين يختلفون معهم

الَّتي نشرها اتِّحاد الكتَّاب العرب في دمشق سنة 2020 تخلو من فهرس مرتَّب أبجديًا، أو ألفبائيًا للأشعار والقوافي، وليس فيها أيُّ فهرس آخر للأعلام والأحداث والأمكنة، ولم يعرِّف القارئ الكريم بآصف شوكت، وعمله بوصفه شخصيَّة مشهورة، وقائد خليَّة الأزمة، ولم يتحدَّث لنا عن موته أو شهادته، بل اكتفى بتوصيفه باحثًا، واعتمد على كتابه عن الثَّورات في تحقيق مذكَّرات الشَّيخ يوسف السَّعدون، إلَّا أنَّ فاروق اسليم استسهل التَّحقيق، وحوَّله إلى شرح هزيل لبعض معاني المفردات، وتدقيق لغة البحث، فملأ هوامش الصَّفحات بمثل هذا الجهد الهزيل والمشوَّه معًا، وخلا تحقيقه من مقارنة رواية الشَّيخ يوسف السَّعدون بأيِّ رواية أخرى، لدى غيره ممَّن شهدوا واقعة من وقائع المذكَّرات، أو كتبوا عنها باب المذكَّرات، أو فنّ التَّوثيق المشهور، لدى كثير من السُّوريِّين والفرنسيِّين الَّذين وثَّقوا جانبًا مهمًا من هذه الأحداث في الكتاب الذَّهبيِّ الفرنسيّ.

الهوامش:

(1) قد تساعد هذه المذكَّرات على مقارنة رواية الثُّوَّار المكتوبة وملاحظاتهم بملاحظات جنرالات الجيش الفرنسيّ وقاداته المدوَّنة في الكتاب الذَّهبيِّ الفرنسيّ.

(2) مذكَّراتي عن الثَّورة والقتال، الشَّيخ يوسف السَّعدون، تحقيق وتحرير وتقديم: فاروق اسليم، دمشق 2020، ص32. وقد نقل فاروق اسليم من كتاب: آصف شوكت: الثَّورات السُّوريَّة 1918-1921 في المنطقتين السَّاحليَّة والشَّماليَّة الغربيَّة، ص178، وكان النَّقل للتَّقديم للمذكَّرات وتقويلها لا لتحقيقها أو مقارنة أشياء مشتركه بين الكتابين.

(3) نلحظ ازدواجيَّة المعايير عند الملك فيصل في دعم ثوَّار سوريا، وعلى سبيل المثال يعتب الشَّيخ يوسف السَّعدون على الملك فيصل وأخيه الأمير زيد من ناحية تقاعسهما في مساعدة ثورة الشَّيخ يوسف السَّعدون، يقول الشَّيخ يوسف السَّعدون: عن الأمير زيد: (أيفعل كما فعل سلفه ليفاوض العدوَّ للحصول على منصب يتسلَّمه أو على مادَّة تدرُّ على جيبه؟!)، يُنظر: مذكَّراتي عن الثَّورة والقتال، ص 32 .

وفي الوقت نفسه يتحدَّث عبد اللَّطيف اليونس صاحب كتاب (ثورة الشَّيخ صالح العليّ) عن دعم الملك فيصل الكبير لثورة الشَّيخ صالح العليّ بعد أن أوفد في منتصف تشرين الأوَّل 1919 ابن عمِّه الشَّريف عبد مصحوبًا ببعض السِّلاح والذَّخيرة، ويحمل رسالة خاصَّة إلى الشَّيخ صالح، (وعاد الشَّريف إلى دمشق بعد أن مكث في منطقة الثَّورة قرابة أسبوعين، ومن ذلك الحين بدأت الإعانات والإمدادات تصل إلى الشَّيخ باستمرار. ولم يغفل فيصل حتَّى عن إرسال القهوة والسُّكَّر والملابس والماشية للمجاهدين)، يُنظر: (ثورة الشَّيخ صالح العليّ، عبد اللَّطيف اليونس، ص124.

(4) مذكَّراتي عن الثَّورة والقتال، الشَّيخ يوسف السَّعدون، تحقيق وتحرير وتقديم: فاروق اسليم، دمشق 2020، ص11.

(5) مذكَّراتي عن الثَّورة والقتال، الشَّيخ يوسف السَّعدون، تحقيق وتحرير وتقديم: فاروق اسليم، دمشق 2020، ص12.

(6) ثورة الشَّيخ صالح العليّ، عبد اللَّطيف اليونس، منشورات دار اليقظة العربيَّة ووزارة الثَّقافة والإرشاد القوميّ (مديريَّة التَّأليف والتَّرجمة)، ص11، دمشق 1960. وانظر الإشارة إلى (دور العلويِّين) في الثَّورة وتسميتهم بهذا الاسم في تقديم جميل ماميش للكتاب بعنوان (الشَّيخ صالح العليّ قائد الثَّورة العلويَّة)، ص 4، وفي مقدِّمة الكتاب الأولى الَّتي كتبها إحسان الجابريّ، وزعم فيها أنَّ صالح العليّ أطلق الرَّصاصة الأولى ضدَّ الفرنسيِّين قبل ثورة الدُّروز بقيادة سلطان باشا الأطرش وثوَّار غوطة دمشق وثوَّار جبل الزَّاوية بقيادة إبراهيم هنانو، ص1-3. وكذلك يشكو مؤلِّف الكتاب عبد اللَّطيف اليونس من تخصيص سطور قليلة في مناهج التَّاريخ في المدارس السُّوريَّة للحديث عن الشَّيخ صالح العليّ، ويترجم فصلًا من (الكتاب الذَّهبيّ الفرنسيّ) عن ثورة السَّاحل، ويبدو الشَّيخ صالح العليّ في هذه التَّرجمة عن الكتاب الذَّهبيّ الفرنسيّ إقطاعيًا يملك النُّقود الذَّهبيَّة، ويمارس نفوذه في اختيار عقداء الثَّورة أكثر من كونه قائدًا لها، ويبدو أنَّ المقاومة كانت مناوشات متفرِّقة في أعالي الجبال بسبب انتساب الكثير من شبَّان الجبل إلى جيش المشرق الفرنسيّ بالإضافة إلى حديث المؤلِّف عن تعاون الإسماعيليَّة مع الفرنسيِّين؛ وفي المحصِّلة أخمدت هذه (الثَّورة/المناوشات) في 12 تمُّوز 1921، واقتاد الفرنسيُّون الشَّيخ صالح العليّ، ثمَّ عفوا عنه دون محاكمة مثل محاكمة إبراهيم هنانو بحسب ما نقله المؤلِّف عن الكتاب الذَّهبيّ الفرنسيّ؛ وبعد هذا نحن ههنا ندعو بدورنا إلى ضرورة إنصاف الشَّيخ يوسف السَّعدون وقادة الثُّوَّار في سوريا كلِّها للحديث عنهم في المناهج التَّعليميَّة.

(7) مذكَّرات الشَّيخ يوسف السَّعدون ضحيَّة التَّسييس، حسام جزماتي، مقال منشور بتاريخ 10-05-2021 على الرَّابط: https://www.syria.tv/%D9%85%D8%B0%D9%83%D8%B1%D8%A7%D8%AA-%D8%B4%D9%8A%D8%AE-%D9%8A%D9%84%D8%B4%D9%88%D8%AE%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%B9%D8%AF%D9%88%D9%86-%D8%B6%D8%AD%D9%8A%D8%A9-%D8%AA%D8%B3%D9%8A%D8%B3

مذكرات

عيسى الماغوط

نشأة وصراع الأحزاب في السلمية

مأمون البني

يوم حضر حافظ الأسد التحقيق مع الأسير الإسرائيلي

حسيبة عبد الرحمن

اعتقال على الهامش

من الذاكرة السياسية:

نشأة وصراع الأحزاب في السلمية

بقلم: عيسى الماغوط

تمتاز مدينة السلمية، الواقعة في محافظة حماة السورية، بتنوعها الاجتماعي والديني والثقافي، مما جعلها بيئة خصبة لنشوء العديد من الأحزاب السياسية التي تركت بصمات واضحة في التاريخ السوري.

الأحزاب وروادها في السلمية

تشكل تاريخ الأحزاب في مدينة سلمية جزءًا لا يتجزأ من تاريخ سوريا السياسي. من الانتداب الفرنسي إلى الفترة الحالية، كانت الأحزاب السياسية دائمًا جزءًا من نسيج الحياة في سلمية، تلعب دورًا في تشكيل الوعي الوطني والتفاعل مع التحديات السياسية والاجتماعية المختلفة.

فترة الانتداب الفرنسي (1920-1946)

خلال فترة الانتداب الفرنسي، شهدت مدينة سلمية نشاطًا سياسيًا مكثفًا. تأسست الأحزاب الوطنية التي سعت إلى إنهاء الانتداب وتحقيق الاستقلال. كانت هذه الأحزاب تضم نخبة من المثقفين والقادة المحليين الذين لعبوا دورًا هامًا في تشكيل الوعي السياسي لدى السكان.

فترة الاستقلال (1946-1963)

بعد حصول سوريا على استقلالها في عام 1946، استمرت الأحزاب السياسية في الازدهار في سلمية. برزت أحزاب، مثل حزب البعث العربي الاشتراكي، والحزب الشيوعي السوري، والحزب القومي السوري، وكان لها حضور قوي في المدينة. ساهمت هذه الأحزاب في النقاشات السياسية والوطنية، وسعت لتحقيق الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية.فترة حكم البعث (منذ 1963)

مع استيلاء حزب البعث على السلطة في عام 1963، بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الأحزاب في سلمية. أصبح الحزب هو القوة السياسية المهيمنة، وأدى ذلك إلى تقييد نشاط الأحزاب الأخرى بشكل كبير. بالرغم من ذلك، ظلت بعض التيارات السياسية تنشط بشكل غير رسمي، وتواصل العمل على تحقيق أهدافها من خلال قنوات غير تقليدية.

حزب البعث العربي الاشتراكي

تأسس حزب البعث العربي الاشتراكي في عام 1947 على يد ميشيل عفلق، وصلاح الدين البيطار، وزكي الأرسوزي. قام الحزب على أفكار قومية عربية واشتراكية، ودعا إلى الوحدة العربية والتحرر من الاستعمار. هذه الأفكار وجدت صدى كبيرًا بين أبناء الطبقة المتعلمة والمثقفة في سلمية، مما ساعد على انتشاره السريع، وخاصة بعد اندماجه مع الحزب العربي الاشتراكي، شهد انتشاراً واسعاً. استفاد الحزب من المدّ القومي، وكذلك التبعية للاتحاد السوفييتي. بعد ملاحقة أفراد الحزب القومي السوري، أصبح حزب البعث القوة الضاربة والمنتشرة، ليس فقط بين المتعلمين والنخب، بل في الأرياف والقرى أيضاً.

في سلمية، استقطب حزب البعث العديد من أبناء الطبقة السنية الميسورة والمتعلمة. كان لهذه الطبقة تأثير كبير على توجهات الحزب، حيث شجعوا أبناءهم على التعليم العالي، والانخراط في الجيش، مما عزز نفوذ الحزب بشكل كبير. ومن أبرز الشخصيات التي أثرت في هذا السياق كان أكرم الحوراني، الذي تخلى عن ثروته، وانضم

إلى البعث، مستقطباً الفلاحين والشباب من الأصول الفلاحية، ومؤكدًا على أهمية التعليم والانخراط في الجيش.

بدأ حزب البعث العربي الاشتراكي في الانتشار في مدينة السلمية في أواخر الأربعينيات من القرن الماضي. لعب الدكتور سامي الجندي وأخوته دورًا رئيسيًا في نشر أفكار الحزب، وتعزيز وجوده في المدينة. وكان من أوائل الحزبيين الذين ساهموا في نشر أفكار البعث في المجتمع المحلي إنعام الجندي مدير جريدة الثورة، وخالد الجندي رئيس اتحاد العمال، وعلي الجندي من كبار الشعراء، وعاصم الجندي من مناصري الحركة الفلسطينية، وكان هناك قاسم ناصر، ومحمد حيدر. هؤلاء الأفراد لعبوا دوراً حاسماً في تجنيد الأعضاء الجدد، وتعزيز القاعدة الشعبية للحزب.

والطبقة السنية في السلمية التي تكونت ممن كانوا إسماعيليين، ولكنهم رفضوا سيطرة الأمراء، فأصبحوا سنيين، وكونوا طبقة في سلمية ميسورة من حيث العقارات والوعي الاجتماعي والثقافي، ودرس أبناؤهم حتى الثانوية، ومنهم بعد الثانوية أصبحوا ضباطاً بتشجيع من أكرم الحوراني، الذي أصبح مع حزب البعث؛ لأن أكرم الحوراني الذي كان يقول إن كل بعثي يأخذ بكالوريا، ومن أصل فلاحي سأدخله في الجيش، ويصبح الجيش للبعثيين، ورغم أصوله شبه الإقطاعية، تخلى أكرم الحوراني عن ثروته، وانضم إلى حزب البعث. كانت رؤيته تقوم على استقطاب الفلاحين والشباب من الأصول الفلاحية، مع التأكيد على أهمية التعليم والانخراط في الجيش ليصبحوا جزءًا من الحزب. هذه الإستراتيجية ساعدت في توسيع قاعدة الحزب بين الطبقات الشعبية، وتعزيز نفوذه في الأرياف، بالرغم من أنه كان قوميًا سوريًا، ثم أسس حزب الشباب، ثم حزب الاشتراكيين العرب، ثم اندمج مع حزب البعث مع ميشيل عفلق، وصلاح البيطار، وسامي الجندي.

سامي الجندي أسس نادي الصحراء كواجهة تربوية وثقافية في مدينة سلمية، وسعى

أكرم الحوراني كان يقول: كل بعثي من أصل فلاحي يأخذ بكالوريا، سأدخله في الجيش ويصبح الجيش للبعثيين

سامي الجندي وأخوته لم يكونوا مهتمين باللعب على الوتر الطائفي

النادي إلى نشر الأفكار القومية والعروبية، دون الإعلان بشكل مباشر عن نفسه كحزب سياسي. كان للنادي دور مهم في جذب الشباب، وتوعيتهم بالأفكار القومية. وعند انعقاد المؤتمر التأسيسي للحزب في دمشق في 1947 لم يشهد حضور سامي الجندي، حيث أرسل شقيقه إنعام لتمثيله، وكان ذلك بسبب تعقيدات علاقاته مع زكي الأرسوزي، أحد المؤسسين الرئيسيين للحزب. كان لأكرم الحوراني وجود ضعيف في سلمية، بينما كان تأثيره الأكبر في منطقة الغاب وحماة المدينة. كانت لديه علاقات جيدة مع الأحزاب الأخرى، مما ساعده في بناء تحالفات سياسية واسعة.

حزب البعث في بداياته كان يتميز بتنوع طائفي أكثر من الأحزاب الأخرى. سامي الجندي وأخوته لم يكونوا مهتمين باللعب على الوتر الطائفي، وكانوا يرون أنفسهم بعيدين عن هذه اللعبة. الدعم الذي حصل عليه سامي الجندي جاء من أقربائه الإسماعيليين، مثل آل درويش الجندي، وآل زهرة، بدلاً من السنة.

ومن المواقف المشرفة التي تُحسب للدكتور سامي الجندي، أنه كان يصر على التثقيف أكثر من الأمور التنظيمية. كان يحدد ساعة من كل أسبوع لسماع الموسيقى (بيتهوفن أو غيره)، عدا عن القراءة الملزمة للجميع. ومن أهم تلامذة سامي البعثيين، كان المرحوم عبد الكريم الضحاك، ومصطفى رستم طبعاً إضافة لعبد الكريم الجندي من العسكريين .

يُعتبر عجيب الجرف أول شهيد لحزب البعث حيث أصيب بطلقة رصاص من الدرك، أثناء حمايته للدكتور سامي الجندي في إحدى المظاهرات. عانى من إصابته لمدة عام وتوفي نتيجة لها.

في ما يتعلق بحزب الكتلة الوطنية، كانت هناك شخصيات بارزة، مثل محمد الجندي، وأحمد ناصر، ومحمد الدبيات من مؤسسيه في محافظة حماة. حزب الكتلة الوطنية لعب دورًا كبيرًا في الحركة الوطنية السورية، وفي مقاومة الاستعمار الفرنسي.

أهم العوائل السنية البعثية في سلمية: آل الجندي بالدرجة الأولى، وعائلة الجرعتلي، وآل الضحاك، آل رسلان، وتوجد عائلات بعضها بقي إسماعيلياً وبعضها الآخر سنياً، ومنهم آل الجرف، آل الماغوط، آل الشيخ حسن عواد، بيت رزوق، ناصر الشيحاوي.

الحزب الشيوعي السوري

تأسس الحزب الشيوعي السوري في عام 1928، وهو من أقدم الأحزاب الشيوعية في العالم العربي. تأثر بنشاطات الحزب الشيوعي السوفييتي، وسعى لنشر الفكر الماركسي في سوريا. انطلاقاً من هذه الأفكار، حاول الحزب الشيوعي السوري تجنيد الأعضاء من الطبقات العاملة والفلاحين الذين كانوا يعانون من تهميش اقتصادي واجتماعي.

بدأ الحزب الشيوعي بالانتشار بخطا بطيئة في البداية، ولكنه حظي بدعم واضح من الاتحاد السوفييتي، مما ساهم في نموه. انضمت للحزب نخب مهمة من المثقفين والمزارعين والعمال، وبعض العائلات تأثرت بأحد أبنائها الذي انضم للحزب. الدعم السوفييتي كان له تأثير كبير على سياسات الحزب وتوجهاته. ظهر بعض الشباب الشيوعيين في سلمية، وهم قلة من العائلات الذين يعملون بالمهن، ولا يملكون الأراضي، بل أصبحوا يصلحون مضخات المياه اللازمة لسقاية القطن، وكانت العائلات التي ينتمي إليها الشيوعيون أقل مستوى اجتماعي من العائلات التي ينتمي إليها البعثيون.

زاد نشاط الشيوعيين مع تزايد اعتماد المزارعين على محركات المياه لسقاية القطن، حيث عمل الشيوعيون على إصلاح

المحركات وتقديم الدعم الفني، ومع زيادة عدد المحركات النارية لسحب المياه الجوفية، جفت المياه نهائياً، وأصبحت المحركات أكواماً من الخردة، ومن الشخصيات البارزة في هذا الحزب في سلمية: طالب الكردي، نايف حمودي، محمد الجرف، ورسلان وصدران، الذين ساهموا في تعزيز حضور الحزب في المجتمع المحلي.

الشيوعيون في سلمية لم يكونوا مرتبطين بطائفة دينية معينة، بل كانوا منفتحين على مختلف الطوائف، مما جعلهم يجذبون أفراداً من خلفيات متنوعة. هذا الانفتاح ساعد في نشر الأفكار الشيوعية بين شرائح واسعة من المجتمع.

أثناء فترة الجمهورية العربية المتحدة، كان هناك توتر كبير بين عبد الناصر والحركات الشيوعية. عبد الناصر، على الرغم من تأييده لبعض السياسات الاشتراكية، كان معاديًا للشيوعية بشكل عام، ورأى في الحركات الشيوعية تهديدًا لنظامه وسيطرته. أدى ذلك إلى حملة ملاحقة وقمع واسعة، ضد الشيوعيين في كل من مصر وسوريا.

في بداية عام 1959، أصدر جمال عبد الناصر أوامره لأجهزة الأمن بملاحقة الشيوعيين داخل الجيش، ونقل العاملين الشيوعيين في الوظائف المدنية من وزارة التربية إلى وظائف في وزارة العدل. وكان الحزب الشيوعي السوري يتوقع أن يتم الضغط على الحزب، عن طريق توقيف أعضائه البارزين، مثل المكتب السياسي واللجنة المركزية، ولم يكن يتوقع أن تصل الملاحقات إلى أعضاء الحزب العاديين.

ففي غمضة عين، اعتُقل العديد من الشيوعيين في وظائفهم، وبيوتهم، وأماكن أخرى. في الجيش تم توقيف أعضاء الحزب الشيوعي من المتطوعين، وتأجيل خدمة من يؤدون الخدمة الإلزامية، وكنت أنا من بين المعتقلين لمدة 45 يوماً بأمر من وزير الدفاع جمال فيصل، بعد إزاحة عفيف البزري قائد الجيش الأول. خلال هذه الفترة، استقال أكرم الحوراني رئيس المجلس النيابي

كنت من ضمن المعتقلين مع نصر الدين البحرة الذي ولدت ابنته عزة وهو في السجن، وكتب رسالة يقول فيها: "من أجلك يا عزّة... دخلنا المزة"

عدت إلى سلمية لأجد مكتبتي منهوبة تماماً !

وصبري العسلي رئيس مجلس الوزراء.

في تلك الفترة، تم سجن كبار الكتاب والشعراء والصحفيين من الحزب الشيوعي أو أنصاره داخل السجون السورية. وكنت من ضمن المعتقلين، مع نصر الدين البحرة الذي ولدت ابنته عزة وهو في السجن، وكتب لها رسالة يقول فيها: "من أجلك يا عزّة.. دخلنا المزة". كان معه الدكتور نايف بلوز، وشوقي بغدادي، الذي قرأت له بيتين من الشعر محفورين على الجدران:

عند المساء يقبل الحنين
يمسح في رفق على الجبين
يسأل في صمت عن الذين
ينتظرون وراء القضبان واجمين

وكان معهم رفيق رضا، عضو المكتب السياسي في الحزب، الذي سألته عن مستقبل الحزب القومي السوري، فأجابه بسرعة: "مستقبلهم.. في مؤخرة البعث".

وكان نصر الدين البحرة، وشوقي بغدادي يدعوانني للبقاء في دمشق؛ لأن من يريد أن يكتب يجب أن يكون في دمشق، ولكني لم أستطع البقاء في دمشق؛ لأن أهلي بحاجة لمن يعتني وينفق عليهما، فعدت إلى سلمية لأجد مكتبتي منهوبة تماماً من كتاباتي التي كنت أنشرها في ذلك الزمان من شعر، وقصة ورواية لم تُنجز بعد.

فرج الله الحلو كان زعيماً بارزاً في الحزب الشيوعي السوري. دخل سوريا باسم مستعار وتوجه إلى بيت سري، ولكن المباحث كانت بانتظاره واعتُقل فور وصوله، وتعرض للتعذيب الوحشي واستُشهد عند الفجر.

الروايات تشير إلى أن جثته قُطّعت وذُوّبت بالأسيد، ثم سُرّب الجسد المذوّب إلى مجاري نهر بردى.

عندما كان عبد الناصر في الهند برفقة نهرو، وتيتو، وسوكارنو، سُئل عن فرج الله الحلو، فأنكر أي معلومات عنه مازحاً بأن كل اللبنانيين والسوريين حلوين، ولا يمكنه تمييز أحد عن الآخر، لكنه أرسل لاحقًا رسالة رسمية لعبد الحميد السراج، يسأله عن الحلو، فأجابه السراج أن اسم فرج الله ليس ضمن الوافدين، ولم يدخل الأراضي السورية.

يعتبر تسليم سوريا لعبد الناصر هدية مجانية من جرائم التاريخ الكبرى، التي دمرت الديمقراطية في العالم كله على مدى السنوات.

الحزب القومي السوري الاجتماعي:

كان الحزب القومي السوري الاجتماعي هو الأكثر سرعة في الانتشار بين الأحزاب الثلاثة. استقطب بشعاراته وطقوسه حماس عدد كبير من الشباب الإسماعيليين، ويبدو أن الحزب تأثر بشكل واضح بالأيديولوجيات النازية والفاشية، مما جعله يجند مئات الشباب في صفوفه. هذا الحزب لم يكن فقط قوة بارزة في الحياة السياسية، بل امتد تأثيره إلى الحياة الاجتماعية أيضًا. حتى بعد تعرضه للحل والملاحقة، ظل بعض عناصره مؤمنًا به، وظهرت في المراحل اللاحقة. قتل عدنان المالكي على يد القوميين، وربما ليس بقرار من الحزب القومي، وكان يجب على القوميين المطالبة ببراءة الحزب من قتل المالكي إلى أن يحصلوا على اعتراف رسمي، قبل الدخول إلى الجبهة الوطنية التقدمية عام 1972

تشكل الحزب القومي السوري الاجتماعي في السلمية في أواخر الأربعينيات من القرن الماضي. دعا الحزب إلى قومية سورية شاملة بعيداً عن الانقسامات الطائفية والدينية، مما جذب العديد من الشباب الباحثين عن هوية سياسية تتجاوز الطائفية. أسس الحزب أنطون سعادة، الذي أصبح زعيمه الأيديولوجي حتى إعدامه في لبنان عام 1949

بعد فشل محاولة انقلابية.

في السلمية، كان لإسماعيل المير سليمان دور بارز كمنفذ أول للحزب، حيث ساهم في نشر أفكاره، إلى جانبه برز مصطفى غالب، حسن القطريب، تاج الدين سفر، وأحمد إدريس، الذين لعبوا أدواراً مؤثرة في تجنيد الأعضاء الجدد، وتعزيز وجود الحزب في المدينة.

إسماعيل المير، ومصطفى غالب كانا أولاد عم وأصدقاء، انتساب مصطفى غالب للحزب القومي وهو يخدم في الجيش، ولما جاء إسماعيل من بيروت، وقد انضم فيها للحزب، تعاونا على فتح مكتب للحزب والدعاية له لضم نخبة من الشباب المثقف ذلك الوقت، واستمر نشاطهما في الحزب إلى حين جاءت تعليمات من قيادة الحزب بتأييد أديب الشيشكلي، أثناء وقوف معظم الشعب ضده، وكان الحزب في سلمية قد أصدر عدة منشورات، تدين أديب الشيشكلي وحكومته، لهذا أعلنا(مصطفى غالب، وإسماعيل) الانسحاب من الحزب، وإدانة موقفه من الأحداث.

الحزب القومي السوري الاجتماعي كان له نفوذ بين الشباب الإسماعيليين الذين كانوا يبحثون عن هوية سياسية تتجاوز الانقسامات الطائفية. هذا الحزب دعا إلى قومية سورية تشمل جميع المناطق السورية بدون تفرقة دينية. ومن الأحداث البارزة التي أثرت على الحزب اغتيال عدنان المالكي في عام 1955 على يد أحد القوميين السوريين، مما أدى إلى أزمة كبيرة للحزب، أثرت على سمعته حتى عام 1972 عندما دخل الجبهة الوطنية التقدمية.

التركيبة الطبقية والطائفية لمدينة السلمية

الانتماءات الاجتماعية والدينية لعبت دوراً مهماً في تشكيل المشهد السياسي في السلمية. كانت المدينة موطنًا للعديد من الطوائف الدينية، بما في ذلك الإسماعيليين السنة والعلويين، مما أثر على التوجهات السياسية للأحزاب المختلفة. هذا التنوع أوجد بيئة حوارية وتنافسية بين الأفكار والمعتقدات المختلفة، مما أغنى الحياة السياسية والفكرية في المدينة.

جاءت تعليمات من قيادة الحزب السوري القومي بتأييد أديب الشيشكلي، أثناء وقوف معظم الشعب ضده

دخل العلويون كفلاحين بؤساء يعملون بحقول مُلاك الأراضي، ولا يملكون مِهناً ولا سكناً.

الطائفة الإسماعيلية

الإسماعيليون في السلمية كانوا من كبار مُلاك الأراضي والمزارعين، وقسمت الأراضي حسب العائلات الواصلة، في البداية وزعت أراضي مدينة سلمية، وكلما زاد العدد توسعت دائرة الأراضي الموزعة، وكذلك القرى القريبة، وبعض أراضي مدينة سلمية كانت ملكيتها لبعض العائلات الحمصية، استطاع السلامنة شراء بعضها، مثل أراضي المفكر، وبري، وقسم من تلتوت، بعضها كان تحت أيدي البدو، مثل عقارب، والعلباوي..

ووفقاً لتعليمات الإمام الإسماعيلي، حيث كان الجميع يملك قطعة أرض، بغض النظر عن حجمها أو خصوبتها، ولكن بمرور الوقت، ظهرت الفروق الطبقية بسبب عوامل مختلفة، وكان هناك بعض الامتيازات الخاصة بالوجهاء الذين حصلوا على الأراضي الأكثر خصوبة وقربًا من المياه، أدى ذلك إلى فوارق طبقية، وأجبرت بعض العائلات على العمل في أراضي غيرهم، ما أدخلهم في دائرة الفقر

ومن أبرز العائلات، بالإضافة إلى الأمراء: آل عجوب، فاضل، خدوج، خضور، الحموي، زهرة، فطوم، عدرا، والشعار. هؤلاء كان لديهم نفوذ اقتصادي واجتماعي كبير، واستمروا في الحفاظ على هويتهم الدينية الخاصة.

وبعد الحرب العالمية الأولى، هاجر إلى السلمية أفراد من القدموس، مثل علي حيدر، الذي أصبح رئيس حركة التحرير أيام الشيشكلي، وأخيه محمد حيدر كاتب القصص الشهير، وعارف تامر المؤرخ المعروف. هؤلاء الأشخاص أصبحوا جزءًا من النخبة المثقفة، ولعبوا دورًا مهمًا في الحياة السياسية والثقافية للمدينة. بفضل جهودهم، زاد الوعي السياسي بين سكان السلمية، وازداد الاهتمام بالقضايا الوطنية والقومية.

الطائفة السنية

نشأت طبقة سنية ميسورة تتألف من أشخاص كانوا في الأصل إسماعيليين، لكنهم تحولوا إلى الإسلام السني. هذه الطبقة كانت تمتلك العقارات، ولديها وعي اجتماعي وثقافي عالٍ، من أبرز عائلات هذه الطبقة: الجندي، الجرعتلي، الضحاك، وآل رسلان. هذه العائلات لعبت دوراً محورياً في دعم حزب البعث العربي الاشتراكي، وفي توجيه الشباب نحو التعليم والانخراط في الجيش.

كما شهدت السلمية هجرة عائلات من حماة، مثل آل قلفا، الفاخوري، البرازي، أورفلي، وجعمور. هؤلاء المهاجرون استقروا في السلمية، واشتغلوا في مهن حرفية، مثل الحلاقة، اللحام، والبلاط، وكانوا جزءًا من النسيج الاجتماعي للمدينة وأسهموا في تنوعها الاقتصادي والثقافي. علاوة على ذلك، اندمج هؤلاء المهاجرون في المجتمع المحلي، وأسهموا في النشاطات الاجتماعية والسياسية، مما أثرى الحياة العامة في السلمية، وظلّ هؤلاء سنة، وكان السلامنة يرتاحون من وجودهم، ومن سلوكياتهم ومن مهنيتهم، وأصبحوا من أهل سلمية..

الطائفة العلوية

أدى الوضع الاقتصادي والاجتماعي إلى استقدام عمالة من قرى الساحل السوري، والريف الذي تسكنه الطائفة العلوية للعمل في أراضي الملاكين من أهل سلمية. كان الاتفاق يقضي بأن يقدم البستاني جهده، مقابل جزء من الإنتاج، ما أدى إلى تراكم بعض الثروات لدى هؤلاء العمال الذين تمكنوا من شراء أراضٍ صغيرة والعمل بها، وأدى إلى استقرار بعضهم في سلمية، وتشكيل مجموعة من القرى المحيطة بها. رغم قلة عددهم نسبياً، دخلوا كفلاحين بؤساء يعملون بحقول مُلاك الأراضي، ولا يملكون مِهناً ولا سكناً. وكان لهم تأثير ملموس على الحياة السياسية في المدينة. كانوا يتبنون الأفكار الاشتراكية والقومية، مما جعلهم يميلون إلى دعم الحزب الشيوعي السوري وحزب البعث.

كنت بين الفريق التلفزيوني وكنت متأكداً من النصر

هزيمة حزيران

يوم حضر حافظ الأسد التحقيق مع الأسير الإسرائيلي*

بقلم: مأمون البني

لقد بدأت معركة المصير، معركة حرب حزيران التي كنا ننتظرها بفارغ الصبر؛ للقضاء على الأقزام الصهاينة الذين اغتصبوا أرضنا، أرض فلسطين، والحرب عبارة عن ساعات، وتكون إسرائيل مرمية بالبحر؛ إذ سبق لأمين عام الجامعة العربية عبد الخالق حسونة أن صرّح بذلك، وأكدها الريس عبد الناصر، أنه سيتم القضاء على إسرائيل في ظرف أربع وعشرين ساعة، أو في ظرف ثلاث ساعات، وعلل الفرق: إما أن يقصف إسرائيل كاملاً، وهذا يحتاج لساعات، أو يقصف الأماكن الإستراتيجية والحساسة، وهذا سيحتاج ليوم أو ثلاثة أيام...!

* فصل جديد من مذكرات المخرج مأمون البني غير المنشورة، وكان قد خص (العربي القديم) بفصل سابق نشر في العدد الرابع، الصادر في تشرين الأول/ أكتوبر 2023

أكد ذلك الرفاق في سوريا، فهم ثوريون مناضلون قوميون وطنيون إلخ من جمل صفات النضال والمقاومة. كنت متأكداً أن النصر حليفنا، خاصة أن جبهتنا الجنوبية معززة بكامل الأسلحة والعتاد، فقد كنت من بين الفريق التلفزيوني الذي رافق رئيس الوزراء يوسف زعيّن، والقادة الأمراء من الجيش العربي السوري، وبصحبتهم ضيوف من الاتحاد السوفييتي إلى الجبهة الجنوبية بتاريخ 3 حزيران 1967، أي قبل يومين من الحرب. أجرت فصائل قوى الجيش بعض المناورات، وكنت فخوراً بما شاهدته لخط (ماجينو)، شاهدت عن قرب كيف أن الهضاب في جبل الشيخ ترتفع، من خلال طبقاتها الأرضية الخضراء بلحظة واحدة، ويخرج منها مركبات لأسلحة ثقيلة من كل الأنواع، وكانت حسب ما سمعت من الشرح، أن كل هذه المواقع محمية من نيران العدو، التي من المستحيل الوصول إليها. وكانت الجبهة محمية أيضاً بالملاجئ، ومنها ملاجئ تقي نسبياً من القصف الذري والكيماوي لرابع دور تحت الأرض.

أردت أن أُنفّذ الواجب، وألتحق بعملي في أول أيام الحرب، (كنت حينها أعمل مساعد مصور قبل دراستي في فرنسا). وصلت قريباً من المسرح العسكري في شارع القوتلي بطريقي إلى مبنى التلفزيون في ساحة الأمويين، عندما انطلقت أصوات القصف الإسرائيلي، وأصوات الدفاعات السورية عند الساعة 13,45، فاضطررت للزحف حيناً، وللركض حيناً آخر، حسب قوة قصف قاذفات العدو التي تهيّأ لي أنها كانت تستهدفني شخصياً.

وصلت أخيراً إلى مبنى التلفزيون، وإذ ببعض الموظفين البعثيين، قد استلموا حراسة المبنى عوضاً عن عناصر الجيش، لمغادرتهم بدورهم والتحاقهم بقطعاتهم. دخلت وشاهدت أحد البعثيين القوميين م. ص، وهو مصور سينمائي، كان يحمل كلاشينكوف بيد، وبندقية باليد الأخرى، وقطعة من دالية عنب على رأسه للتمويه، والعرق يصب من على جبينه؛ لأنه مشغول جداً، حاولت أن أعرف ماهية انشغاله، فهو لا يتوانى عن الركض بين الاستعلامات الخارجية والداخلية، ولا يتوقف عن البربرة، ولمّا شاهدني قال لي: "لازم تعرف من الآن ممنوع الخروج من المبنى إلاّ بمهمة رسمية"، وأكمل سرعته إلى الاستعلامات التي كان المسؤول عنها طارق حريب، الذي أصبح في ما بعد أحد أهم المحللين السياسيين في إذاعة الشعب.

وصلت الطابق الثالث، والتحقت بدائرتي، وجاء تحسين الجزائري رئيس الدائرة، يطلب من المصور محي الدين سكحل أن يتجهّز، ليذهب مع مصور آخر، يختاره هو للجبهة من أجل تغطية المعارك هناك. وافق محي الدين فوراً وبدأ يفكر بمن سيختار...! فقلت له عليك بالمصور م.ص (البعثي القومجي)، فوافق رئيس الدائرة مباشرة، وطلب مني أن أستدعيه من مهمته التي تبنّاها وحده على مدخل المبنى. ذهبت لإخباره بنفسي لرصد مدى مزاودته ونفاقه، لأقيّم مقدار مصداقيته ووطنيته.

فقد كان بعضهم يتستّر وراء أفكار القوميين، وكانوا لا ينفكون عن إعطاء دروس في الوطنية والنضال، وإنهم دون الآخرين يسهرون على راحة البلد وصمودها ضدّ أعداء الوطن، والبعثي هو الوحيد الذي يؤمن أن العرب أمة، حقها الطبيعي في أن تحيا كأمة واحدة، ويؤمن بأن القومية حقيقة حية

كنت من بين الفريق التلفزيوني الذي رافق رئيس الوزراء يوسف زعيّن، والقادة الأمراء من الجيش العربي السوري، وبصحبتهم ضيوف من الاتحاد السوفييتي إلى الجبهة الجنوبية بتاريخ 3 حزيران 1967، أي قبل يومين من اندلاع الحرب.

خالدة، وبأن الشعور القومي الواعي الذي يربط الفرد بأمته هو شعور نضالي مقاوم! الآن جاء دورك يا سيد م. ص أن تذهب، وتناضل من أجل الدفاع عن هذه المبادئ التي طالما ثقبت آذاننا بترددها. وصلت إليه، وأخبرته أن الأستاذ تحسين يريدك على الفور...! قال مستغرباً: "ألا يعرف هذا التحسين أني في مهمة وطنية، ولا يمكن أن أتركها!" قلت له: إن المهمة التي تنتظرك أهم بكثير من وقوفك حارساً على الباب، وليس لها بديل عنك. سأل بالطبع عن طبيعتها، فأخبرته بالتفصيل، جفّت شفاهه، واصفرّ وجهه، وبدأ بالتلعثم، وقال لي: أرجوك، قل له إني غير موجود...! قلت له إنه شاهدك من شبّاك المبنى، وقد استصدر لك، وللسيد محي الدين مهمة فورية.

اضطرّ للمثول على مضض، وسافرا للجبهة عند الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر، وفي الوقت نفسه وصلنا استدعاء فوري من وزارة الدفاع، لتنفيذ مهمة سرية في مكتب الأركان بالصوت والصورة. سارعت لوضع اسمي مع المصورَين أحمد أبو سعدة، وأحمد تركاوي، وكان رئيس المهمة مدير التلفزيون آنذاك (خضر الشعار).

كنا أربعة فقط، وصلنا الأركان بعد عشر دقائق، لقربها من مبنى التلفزيون، لنفاجأ أن أسيراً إسرائيلياً برتبة ملازم طيار، اسمه أبرهام أُسقطت طائرته، واقتيد للأركان للتحقيق معه، وطلبوا منا تسجيل التحقيق صوتاً وصورة. كان الأسير قد أُقتيد للتو، ويقوم أحد الضباط بالتحقيق معه بلغة إنكليزية ركيكة وغير مفهومة، ممّا أثار حفيظة مدير التلفزيون، واستلم التحقيق بدلاً عنه، ووافق الضابط بعد أخذ موافقة ضباط قادة، كانوا متخفين في غرفة مظلمة ملاصقة يراقبون التحقيق. لم أستطع التعرف على سحنتهم، فقد كانت وجوههم تبدو لي كوجوه القطط المختبئة للانقضاض على الفريسة. أثناء تثبيت الإضاءة في الغرفة، تعمدت أن أمرر البروجكتور بشكل سريع على شق الباب، لأكتشف الوجوه، كان أحدهم حافظ الأسد.

قال الطيار الإسرائيلي إنه شارك بقصف المطارات المعلنة والسرية صباحاً في مصر لأول يوم في المعركة، وبعد راحة لعدة ساعات أتى ليقصف سوريا، ولدى سؤاله عن رأيه في نتيجة الحرب؟ أجاب بسخرية: أي حرب...! أخبرتكم أن سلاحكم الجوي قد دُمّر بالكامل، والحرب انتهت، فقام الضابط بصفعه، وطلب منه أن يقول أمام الكاميرا إن العرب سوف يربحون الحرب. ابتسم الأسير، وردد الجملة ببغائية.

نعم، هذه المسرحية كانت أول تحوير إعلامي لحقيقة خطيرة، عكسها مسؤول عسكري أمام عيني، وتتالى بعدها سيل الأكاذيب حتى يومنا هذا.

كان الدكتور يوسف زعيّن رئيساً للوزراء، والدكتور إبراهيم ماخوس وزيراً للخارجية، ومحمد الزعبي وزيراً للإعلام، واللواء حافظ الأسد وزيراً للدفاع، بالإضافة لعمله كقائد للقوات الجوية. أما الإدارة العامة للتلفزيون، فكان عبد الله حوراني مديراً عاماً، وخضر الشعار مديراً للتلفزيون

البيانات التي أُذيعت في الأيام الستة للحرب، كان مضمونها على الشكل التالي:

إن "سوريا تلتحم مع العدو الآن، ولن تتراجع قبل إبادة الوجود الصهيوني إبادة كاملة". قواتنا المسلحة أسقطت أكثر من 150 طائرة إسرائيلية، في حين صرح العدو أن سورية خسرت نصف طائراتها المئة، وأنه دمّر 416 طائرة مقاتلة عربية، لتفقد الجيوش العربية غطاءها الجوي، ولتصبح وحداتها العسكرية البرية ودباباتها ومدرعاتها فريسة سهلة للطيران الإسرائيلي.

اتهم الدكتور إبراهيم ماخوس وزيري خارجية أميركا وإنكلترا باشتراك دولتيهما بقصف سوريا، وإنه شاهد ذلك بأم عينيه..!

أصبت شخصياً بحالة من الارتباك!

هل أصدّق الحقير الأسير الإسرائيلي القزم، أم أصدّق قادة وسياسيي بلدي الحبيب الذي يتعرض الآن لحرب شرسة، نخسر فيها أرواح شبابنا الأبطال في سبيل حرية واستقلال وسيادة الوطن.

النهار
أغلقت مصر قناة السويس
العراق والكويت يوقفان ضخ البترول
القاهرة وعمان تهمان اميركا وبريطانيا بمساندة اسرائيل
زحف شامل للقوات المصرية والسورية والاردنية والعراقية
معارك طاحنة قرب جنين يستبسل فيها الاردنيون

اليوم الثالث

بعد إذاعة أنباء، أن الأوامر قد صدرت لقواتنا الباسلة لتحرير لتحرير صفد، وطمأنونا أن التحرير قاب قوسين أو أدنى! أطل علينا الشاعر الفلسطيني البعثي والمدير العام السابق للإذاعة والتلفزيون يوسف الخطيب برسالة متلفزة، يؤكد فيها تحرير كامل الأراضي الفلسطينية، ويدعو الجماهير العربية لتناول كأس من العرق في مدينة حيفا على حسابه الخاص!

على فكرة كانت الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون في فترة الستينات كعكة يتقاسم حصصها رفاق ثوريون بعثيون من العراق وفلسطين ومن سوريا، فمنذ تأسيس التلفزيون في تموز 1960 إلى زمن حرب حزيران 1967، مرّ على إدارة التلفزيون تسعة مديرين عامين، آخرهم عبد الله حوراني الفلسطيني. وأربعة عشر وزير إعلام، آخرهم محمد الزعبي من منطقة حوران. منذ الاستقلال 1946 وحتى عام 1962 لم يكن للإعلام وزير، بل كان وزيراً للدولة تتبع له مديرية الدعاية والأنباء والإذاعة والتلفزيون، ليأتي رئيس الوزراء عزت النص عام 1962، ويغيّر التسمية والتخصص إلى وزير للإعلام.

وبالعودة إلى ساحة الوغى...!

بعد ما شربنا كأس شهوة الانتصار القادم لا محالة، وبعد إسقاط مئات الطيارات للعدو، وموت آلاف جنود للمعتدي الغاشم، بفضل بسالة جيوشنا العربية، حسب البلاغات الصادرة من المنطوق الإعلامي الرسمي للبلاد سوريا، والأردن، ومصر، والعراق، وحسب تبجّح الإذاعات العربية، من خلال أصوات المذيعين النجوم، أمثال البطل الإعلامي النجم حسنين هيكل، الذي كان يصوغ البلاغات، بصفته المستشار الإعلامي الأوحد للرئيس جمال عبد الناصر، أمّا في سوريا فقد كان هناك عدة مذيعين مشابهين له، منهم:(فؤاد شحادة، وعادل خياطة، ومهران يوسف، وخالد أبو خالد). لكن البلاغات الرسمية المتعلقة بمجريات المعركة، كانت

لدى سؤال الأسير الإسرائيلي عن رأيه في نتيجة الحرب؟ أجاب بسخرية: أي حرب"؟! أخبرتكم أن سلاحكم الجوي قد دُمّر بالكامل، والحرب انتهت، فقام الضابط بصفعه، وطلب منه أن يقول أمام الكاميرا إن العرب سوف يربحون الحرب!

تأتيهم من القيادة العامة للقوات المسلحة موقّعة من وزير الدفاع حافظ الأسد شخصياً. وهناك قصة طريفة رواها محمد الزعبي مؤخراً عن بلاغات ال 1967 وكيف كانت مليئة بالأخطاء النحوية، ممّا اضطرّ الزعبي أن يرسل لحافظ الأسد أحد الموظفين الشباب في الإعلام أحمد إسكندر أحمد للتصحيح اللغوي، وكان ذلك فاتحة حظ له، فقد استوزره حافظ الأسد في عام 1974، وبقي أحمد إسكندر أحمد وزيراً معتمداً، حتى مماته بتاريخ 29 كانون الأول 1983

كنا نتناوب أثناء الحرب في المبيت بمبنى التلفزيون، ويستمر دوام المناوب لمنتصف اليوم التالي، كما حصل معي عندما كادت مناوبتي أن تنتهي في اليوم الثالث للحرب، وعند انتظاري المصعد الذي فتح بابه للتو، لأرى المصور القومجي م.ص جالساً على أرضية المصعد لاهثاً مرهقاً، وقد تناثرت على الأفلام والكاميرا على الأرض، بينما كان المصور محي الدين سكحل واقفاً ينظر إليه باستغراب، من شدة تأثري بإرهاق السيد م.ص خاصة أنه عائد مع رفيقه من الجبهة، لم أبحث عن معنى نظرة سكحل له، ركضت وساعدته على الوقوف، وحملت عنه أغراضه، بينما سبقنا سكحل إلى دائرة الشؤون السينمائية.

طبعاً كنا جميعاً في الدائرة توّاقين لمشاهدة المواد الفيلمية التي من المفروض، أنهما صوّراها في الجبهة حديثاً؛ لأن ما كنا نشاهده على شاشة التلفزة في الأخبار تحديداً لا يتعدى بعض اللقطات القليلة، كانت مؤلفة ومنقحة بعناية، وآتية من قسم الإرشاد الإعلامي لوزارة الدفاع، جلّها غير صالحة للعرض، وبعض اللقطات كانت منسوخة من أفلام مصرية. مع الأسف كانت نكسة المصورَين محي الدين سكحل، والسيد م. ص شبيهه بنكسة حزيران، فحسب روايتهما الأولى أنهما باتا ليلتهما الأولى في ملجأ الجبهة، ولم يستطع أحد منهما رفع رأسه من شدة القصف المدفعي لقواتنا ضدّ طيارات العدو!

ثار المصور أحمد أبو سعدة، وغضب عند سماعه لفشلهما، فقد كان أكثر المصورين ثقافة وعصبية في الوقت نفسه...! فتناول كاميرته، وذهب لصديقه مدير التلفزيون خضر الشعار، ليساعده في الحصول على مهمة عسكرية فورية، يستطيع من خلالها الولوج داخل محراب المعركة، ويلتقط الصور المشتهاة التي عجز عن تصويرها سكحل، وم.ص.

حصل أبو سعدة على المَهمة، ووصل إلى الحاجز العسكري القريب جداً من الجبهة، وصرخ بأعلى صوته، حسب ما وصلتنا أخباره في ما بعد: وينهم، وينهم الكلاب؟ أسكته العسكر، وأدخلوه إلى قائد الجبهة أحمد المير شخصياً، ليطلب منه السماح بالولوج إلى خط الدفاع الأول، ومستعد إذا سمحت له الظروف أن يصل إلى الأراضي الفلسطينية، ليسجل بكاميرته احتفال الشعب الفلسطيني بالنصر...! سمعه قائد الجبهة، وقال له:

" أنا أحيّي شجاعتك ووطنيتك"، وأمر سائق السيارة العسكرية بإعادته لدمشق فوراً. وقال له: "نحن لا نستطيع أن نرفع رؤوسنا حتى تأتي أنت لترفع كاميرتك...! لا يمكن أن أتحمّل مسؤولية موتك، ارجع فوراً قبل أن يداهمنا الليل"، وعند خروجه من المكان الذي كان ملجأ لقائد الجبهة أحمد المير، قال له أحد الحراس: لا تزعل، فقد أمر القائد أيضاً بإعادة أصدقائك المصورَين

كانت نكسة مصوري التلفزيون شبيهه بنكسة حزيران، فحسب روايتهما أنهما باتا ليلتهما الأولى في ملجأ الجبهة، ولم يستطع أحد منهما رفع رأسه من شدة القصف المدفعي لقواتنا ضدّ طيارات العدو!

فور وصولهما. أنا أصدّق أحمد أبو سعدة، فهو بقدر ما هو عصبي المزاج، ويبغضه الكثيرون من الموظفين لذلك السبب، إلاّ أنه كان صادقاً مع نفسه وأفعاله، فقد كان لا يخفي أنه شيوعي، وكان يستحق منصباً حساساً في الحزب؛ لأنه حسب زعمه هو الوحيد الذي كان مناضلاً على الأرض، وليس منظراً كالآخرين، لكن الحزب لم يهتم به إطلاقاً؛ كونه لم يحمل شهادات دراسية، مع العلم أن درجة ثقافته كان جيدة، وقد كان مولعاً بقراءة الكتب السياسية، ومولعاً أيضاً بتصوير أفلام وثائقية عن حركات التحرر في العالم، سافر لتحقيقها إلى عدة بلاد، مثل إرتيريا، وتنزانيا، وجنوب السودان، وعاد بمواد فلمية مهمة، وبرأيي أنه كان عضواً فاعلاً أكثر من أي شيوعي منَظّر، أفعاله بقيت موثّقة بالصوت والصورة، ناضل سنوات طويلة في الحزب، وخاطر بحياته مرات عدة، أثناء تصوير مَهمات حزبية، لتحقيق أفلام عن حركات التحرر التي تقودها الأحزاب الشيوعية العالمية. مرّ الزمن وأبو سعدة لم يتبوّأ أيّ منصب في الحزب، ولم يسمع به أحد.

أعود لقصة المصورَين اللذين عادا من الجبهة في اليوم الثالث للحرب، أي سكحل، وصايغ، فقد افتضح أمرهما بعد أن عاد أبو سعدة في اليوم الثالث، وشرح ما جرى معه بالتفصيل، فاعتذر سكحل، وقال: أنا اضطررت أن أخفي جانباً من الحقيقة، صحيح أننا عدنا في اليوم نفسه الذي ذهبنا فيه، وكان الوقت ليلاً، فقمت باستضافة م.ص في بيتي؛ لأني كنت قد أرسلت زوجتي وأولادي إلى مدينتي حلب تحسباً لأي طارئ، وقد بقيت معه في منزلي يومين، وكنا مرتاحين جداً، ولذلك كنت مستغرباً من فعل زميلي، عندما قام بالجلوس على أرض المصعد، وكأنه عاد للتو من الجبهة...!

الأهرام
٤ صفحات
١٥ مليما
معارك ضارية على كل الجبهات مع العدو
بدأ العدو الإسرائيلي هجومه على الجبهة المصرية جوا وبرا إبتداء من الساعة ٩ صباح أمس
إستأنف أكثر من ١١٥ طائرة للعدو خلال هجماته الأولى وأسر وقتل عدد من طياريه
تحطيم ثلاث هجمات إسرائيلية بالمدرعات في مناطق الكونتيلا وأبو عجيلة وخان يونس
قواتنا توجه ضربات متلاحقة للعدو وتلحق به خسائر فادحة في البر والجو
جميع الجبهات العربية تبدأ القتال على الفور وفقا لخطة العمليات الموحدة
الطيران المصري والأردني والسوري والعراقي يعمل فوق أرض العدو طوال يوم أمس.
تساؤلات خطيرة عن الموقف المريب الذي تقفه الولايات المتحدة وحاملات طائراتها في البحر الأبيض
الملك فيصل يبرق بتأييده لعبد الناصر وعبد الناصر يرد عليه ووزير الدفاع السعودي ينسق جهد السعودية مع وزير الحربية المصري
اتصالات تليفونية بين عبد الناصر وحسين وعارف وبومدين والإتاسي وأمير الكويت وشارل حلو
مجلس الأمن يقدم موعد اجتماعه ليبحث الموقف الذي تفجر في الشرق الأوسط
تقرير من بيروت يؤكد أن إسرائيل هي التي بدأت بالطلقة الأولى وأن الطلقة التي أطلقها الفدائي من غزة
متحدث باسم چونسون يناشد الشعراء العرب في واشنطن أن تقبل دولهم قرار إيقاف إطلاق النار

اليوم الرابع

كان هناك استنفار للموظفين في الإذاعة والتلفزيون، وفي بقية الدوائر الإعلامية على أشده، وحماسنا وأحلامنا في استرجاع الأرض الفلسطينية كانت أكثر اتساعاً، لكن هذا لا يمنع من رواية بعض الطرائف عن بعضهم، مثل (حكمت الصبان) أحد مخرجي البرامج الذي وضع أوراق العنب على رأسه للتمويه، وجلس في غرفة المونتاج، ليعدّ برنامجه، وآخر من المذيعين (خالد أبو خالد) الذي يذيع نشرة الأخبار باللباس الكاكي، وعلى كتفه بندقية.

حوالي الساعة العاشرة، استلمنا أنا والمصور م.ص مَهمة تصوير في مطار المزة الذي كان المطار الوحيد في العاصمة دمشق، وكانت بالطبع أجواء سوريا مغلقة، وصلنا المطار لنستعلم عن طبيعة المهمة.

المطار كان فارغاً باستثناء عماله، وبضعة جنود بسلاحهم، دخلنا قاعة الشرف، وإذ بنادل البوفيه موجود وراء الكونتوار، وأبلغنا تبلغه من برج المراقبة، أن طائرة مساعدات روسية، ستصل وعلى متنها وزير الصحة، ووزير آخر بصحبة كميات من الأدوية، تلزم لجرحى الحرب. سألناه من سيستقبلهم؟ قال لا أعرف، وأعقب كلامه: ليش في حدا من المسؤولين بقي في دمشق الكل غادر...!

وصلت بعد نصف ساعة الطائرة، ولم يصل أحد لاستقبالها...! وبما أن المصور م.ص كان حزبياً، ويعتبر نفسه مسؤولاً، وكان يلبس كرافيته بشكل دائم، راودته نفسه أن يكون وزيراً لمرة واحدة...! أعطاني الكاميرا، وطلب مني تصويره، وهو يستقبل الوفد الروسي... وهذا ما حصل بالفعل...!

تكلم بضع كلمات فرنسية إلى جانب كم كلمة إنكليزية، واصطحبهم إلى قاعة الضيافة، وجلس معهم، وسامرهم بكلام غير مفهوم، فقال له الوزير الروسي تكلم بالعربي، فأنا أفهمها أكثر!

وهنا وقع المصور في فخ عدم توضيح الإفصاح عن هويته، فيما إذا تكلم بالعربية، فنادى على النادل عامل البوفيه تهرباً، وطلب منه عدة فناجين وكاسات إضافية من القهوة والعصائر، والتفت للوزير شاكراً دولة الاتحاد السوفييتي، لمبادرتها العظيمة بمساعدة الشعب السوري.

حاول الوزير أن يفهم منه عن طبيعة عمله، وهل هو وزير أم مدير، وأين وفد الاستقبال؟راوغ هو بلغته العربية، وحاول أن يقول إن سوريا اليوم جيشاً وشعباً تحارب العدو للدفاع عن أرضها

هدأت المدفعية السورية التي كنا نسمعها خامس أيام الحرب، وبدأنا نسمع بعض الحكايات المختلطة بين الحقيقة والإشاعة، مثل إشاعة عدم التمكن من احتلال صفد، وتدمير إسرائيل للجسر الذي أنشئ على نهر الأردن للعبور منه إلى صفد!

واستقلالها، وصاغ بعض الجمل التي حفظها عن ظهر قلب من دوراته الحزبية، فتململ الوزيران، وقاما عائدين إلى بلدهما، بعد أن أفرغت طائرتهم ما في جعبتها من صناديق الأدوية، وقبل صعود وزير الصحة السوفييتي سُلّم الطائرة، نطق بجملة الوداع:

"اشكر لنا الرفاق السوريين، وقل لهم إننا لا نتوانى أن نقدم أيّ مساعدة، متمنين أن تربحوا هذه الحرب القاسية عليكم".

تركت م.ص يلوّح بيديه منتظراً إقلاع الطائرة، وعدت إلى داخل القاعة للملمة عدّة الكاميرا، وعلب الأفلام، فجاء عامل البوفيه، وسألني عن اسم المصور. بعد شهرين من الحرب وصلت إلى استعلامات التلفزيون فاتورة باسم المصور م.ص، لدفع مئة ليرة ثمن (مشاريب) في مطار المزة أثناء استقباله للوفد الروسي...!

أقلعت الطائرة، وعدت وانضممت إلى م.ص للمغادرة، رأيته ما يزال ينظر إلى السماء، عسى أن تصل طائرة أخرى، في هذه الأثناء لمحت ضابطاً رتبته ملازم أول على ما أذكر، كان واقفاً في زاوية المستودعات، ويعطي تعليماته للعمال الذين بدؤوا بحمل صناديق الأدوية إلى الداخل.

الضابط كان رفعت الأسد المسؤول عن حماية مدينة دمشق.

اليوم الخامس

اليوم الخامس كان يوماً عسيراً؛ لأننا لم نعد نسمع بلاغات حماسية، وكنا ننتظر المصور محي الدين سكحل، الذي قرر أن يعود في اليوم الرابع إلى أرض المعركة، لكن هذه المرّة كان بصحبة محرر ومذيع، وقد أفلح في دخول الجبهة، وفق رواية سائق السيارة التابعة للتلفزيون الذي عاد في اليوم نفسه، بعد أن أوصلهم إلى مدينة القنيطرة، حيث صعدوا بسيارة عسكرية، واتجهوا إلى خط الدفاع الأول.

اليوم كان تاريخه 9 حزيران، أي الخامس من أيام الحرب، فقد هدأت أصوات المدفعية السورية التي كنا نسمعها طيلة الأيام الأربعة الأولى، وبدأنا نسمع بعض الحكايات المختلطة بين الحقيقة والإشاعة، مثل إشاعة عدم التمكن من احتلال صفد، وأن الجسر الذي أنشئ على نهر الأردن، للعبور منه إلى صفد للقاء الفلسطينيين مع إخوتهم من الجيش السوري القادمين من الجبهة الجنوبية لسوريا، قد قُصف من قبل العدو ودُمّر، وبعد أن صدقنا تكذيب الخبر، اتضح بعد ساعات، أنه كان صحيحاً، وأن قادة عسكريين في الجبهة السورية قد فروا عائدين لمدنهم السورية، بعد سماعهم خبر خسارة الحرب في مصر.

الإذاعة السورية، بالإضافة إلى التلفزيون السوري، بقيت ثابتة باستمرار الإعلان عن إسقاط طائرات جديدة للعدو، حتى بدأ الناس تسخر من هذه البلاغات التي اتضح للجميع أنها كاذبة وغير صحيحة، ممّا أثار الشكوك في صحة الانتصارات، وعلى الجبهات العربية كافة.

نتيجة ذلك بدأ فعلاً ما يسمّى بالطابور الخامس بنسج قصص عن المعارك، والأهم اختلاق أكاذيب التي أرهبت الدمشقيين، مثل: إن أحدهم شاهد القوات الإسرائيلية قد وصلت إلى منطقة القدم، والتي تبعد بضعة كيلومترات عن العاصمة، وتنتظر الليل للدخول لاحتلالها، فوضع قادة الحارات المتاريس وراء أبواب المنازل.

ومن الأقاويل أيضاً التي لم يتم تكذيبها، أن قائد الجبهة أحمد المير، قد هرب من المعركة على ظهر حمار، خوفاً من القصف الإسرائيلي على أيّ مركبة تغادر الجبهة!

اليوم السادس

للمعركة يوم الإعلان عن الهزيمة، والذي يصادف يوم 10 حزيران، كان يوماً مشؤوماً في عام 1967، لكن هذا التاريخ كان يوماً مفرحاً في عام 2000، فقد صادف موت رئيس الجمهورية السورية حافظ الأسد المسبب الأول لهزيمة ال 67 باحتلال الجولان، وتسليم القنيطرة للعدو.

ففي صباح اليوم السادس من الحرب في 10 حزيران 1967 حدثت الفاجعة، البلاء، أو بالأحرى حرب الدهاء والخيانة، أُذيع البلاغ رقم 66 على الساعة التاسعة والنصف صباحاً، البلاغ المشؤوم الذي لخّص كّل عهر، وأكاذيب وخيانات القادة العسكريين والسياسيين.

نص البلاغ 66:

إن القوات الإسرائيلية استولت على القنيطرة بعد قتال عنيف دار منذ

نازحة من الجولان ترفع الراية البيضاء حزيران 1967

منذ الصباح الباكر في منطقة القنيطرة، ضمن ظروف غير متكافئة، وكان العدو يغطي سماء المعركة بإمكانات لا تملكها غير دولة كبرى. وقد قذف العدو في المعركة بأعداد كبيرة من الدبابات، واستولى على مدينة القنيطرة على الرغم من صمود جنودنا البواسل. إن الجيش لا يزال يخوض معركة قاسية للدفاع عن كل شبر من أرض الوطن، كما أن وحدات لم تشترك في القتال بعد، قد أخذت مراكزها.

بدأت ردود الأفعال من الناس تتبلور، كل حسب مستوى تفكيره، بعضهم انهار بالبكاء، وآخرون انهالوا بالشتائم على النظام، فقد شعروا بخيبة الانكسار، واكتشفوا كذب الأنظمة العربية خاصة أن الحكومات ما فتئت تتبجح برمي إسرائيل في البحر، منذ خساراتها الأولى في حرب ال 48، فكان مكسب إسرائيل يومها كبيراً، وحافظت على احتلالها للمنطقة التي أقرتها الأمم المتحدة 1948، واستولت أيضاً على 60% من المساحة المخصصة للبلاد العربية حسب القرار الأممي، أي أنها ضمّت إلى أراضيها المحتلة الجليل، واللد، والرملة، واحتلت بهذه الحرب شبه جزيرة سيناء المصرية، ومرتفعات الجولان، ومدينة القنيطرة في سوريا، وكامل الضفة الغربية بما فيها مدينة القدس الشرقية.

أُذيع البلاغ رقم 66 على الساعة التاسعة والنصف صباحاً، البلاغ المشؤوم الذي لخّص كّل عهر، وأكاذيب وخيانات القادة العسكريين والسياسيين.

بعضهم انهار بالبكاء، وآخرون انهالوا بالشتائم على النظام!

اعتقال على الهامش*

بقلم: حسيبة عبد الرحمن

- التاريخ: 16آذار.
- العام: 2011.
- الساعة: الثانية عشرة ظهراً.

مجموعة من مثقفي وكتاب ونشطاء سياسيين وحقوقيين سوريين، اعتصموا أمام وزارة الداخلية في ساحة (المرجة)، حملوا صور بعض المعتقلين (دعوة عن طريق النت)، سبقتهم إلى المكان الأجهزة الأمنية لمراقبة الحشد وفض الاعتصام.

بعد أقل من عشر دقائق، اخترق جهاز أمن الدولة التجمع، اعتُقل بعضهم وحمّلوا إلى (البوكس)، مع شتائم وتهديدات للبقية.

اقترب مني العميد (المسؤول) في (أمن الدولة)، محاولاً إبعادي عن المكان، رفضت الانصياع له، هددني بالاعتقال، ووضعي بـ(البوكس)

ضحكت: عم تهددني شو ما بعرف (البوكس) جديد علي مثلاً!

* فصل خصت به الكاتبة (العربي القديم) من كتاب غير منشور لها، يحمل عنوان: (رباعية معتقلة)

أدار وجهه عني، وأكمل صراخه بوجه المعتصمين (لا قرار عنده باعتقالي)، وفي حركة التفافية وتشويشية قام ومن معه بالهتافات المؤيدة للنظام. غادرت المكان، أوقفني حراس وزارة الداخلية نتيجة مكالمة تلفونية، صرخت في وجوههم: ليكو ضابط الأمن، روح لعندو.

طريقة صراخي وجوابي دفعهم لتركي، ظناً منهم أنني مسؤولة أو مسنودة. مشيت ومع كل "دعسة" قدم تماوجت خيالات الاعتقالات، وتهافتت سلاسل الذكريات كأمواج بحر، لتتدحرج كحبات رمل، تقاذفتها الرياح العاتية، لتهوي في قاع لج، وفج عميق، وأنا أحاول الهروب منها، ومن ثقلها دون جدوى، فها هو الاعتقال الأول يمثل أمام عيني، وكأنه حصل للتو بساعاته وأيامه وشهوره، وإحساس غامض ملتبس تلبسني، تحول إلى شعور متناقض ما بين خوف وشجاعة، ذهول ويقظة، إنه الإحساس ذاته الذي قبض على روحي لحظة اعتقالي الأول؛ شريط ذلك الفيلم الطويل يأبى التوقف والانتهاء، (رغم اعتقالاتي المتكررة)، وكل ما ظننته تطاير في هواء ما يسمى "الحرية"! حضر وبالتفاصيل المرّة، وكأنه وقع بالأمس، وعادت الصور تلح علي، وتفجّر ذاكرة ثاوية، تعود إلى تاريخ بعيد لشهر تشريني من (1979).

الاعتقال الأول

أنا العنزة العنوزية ذات القرون الصغيرة الحدودية، المتكورة، حول نفسي خوفاً من الغولة، لكن نواجذها اقتربت مني، لاكتني، وابتلعتني في جوف مظلم. أنا مسوخ المواطنة (حسيبة عبد الرحمن) البالغة من العمر عشرين عاماً، وأنا العنزة _بطلة حكاية أمي_ أقف عند بوابة الحدود اللبنانية السورية، وإذ دورية أمن قرب السيارة، عناصرها يراقبون الركاب الأربعة، يفتح أحدهم باب السيارة، ويوجه الكلام إليّ، وكأنه على موعد مع عودتي! أو إنه فتح الرمل، ورآني أتصفح جريدة ممنوعة وسرية، توجه نحوي مباشرة: افتحي حقيبة اليد!

كنت أجلس في المقعد الخلفي، أنظر نحو العناصر الأمنية شاردة الذهن، لا أصدق ما

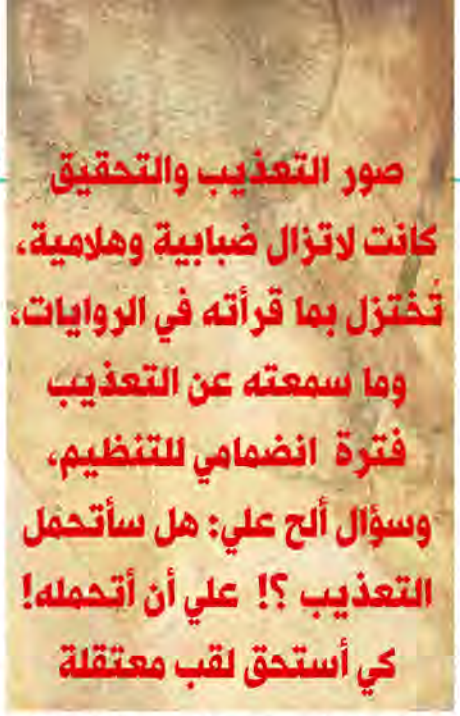

صور التعذيب والتحقيق كانت لاتزال ضبابية وهلامية، تُختزل بما قرأته في الروايات، وما سمعته عن التعذيب فترة انضمامي للتنظيم، وسؤال ألح علي: هل سأتحمل التعذيب ؟! علي أن أتحمله! كي أستحق لقب معتقلة

يجري، كأني أمام لقطة فيلم سينمائي غامض النهاية لبطل أو بطلة أخرى، وليس واقعاً يطوقني، يفرض علي، وأعيشه حالة استغراق.. وكأن ما يحدث يخص شخصاً آخر، وأنا أتفرج، وهذه الحالة ربما سيطرت علي، لتعوّدي السفر الأسبوعي (الجمعة) إلى لبنان كناقلة بريد لتنظيم (رابطة العمل الشيوعي) رسائل وأدبيات (الراية الحمراء النشرة الداخلية البروليتاري وسواها)، هي المهمة التي كلفت بها من قبل قيادة الحزب، منذ ما يقارب العام.

كثرة أسفاري وتكرارها طمأنتني زيادة عن اللزوم، لم أعد أشعر بالخوف عند تجاوز الحدود (ذهاباً، إياباً)، رغم امتلاء حقيبتي بالجرائد السرية الممنوعة، والضريبة التي سأدفعها حال انكشاف أمري اعتقالاً وتعذيباً، (نقلت البريد مرة واحدة إلى مدينة حلب)، ومع ذلك أضحت المهمة بالنسبة إليّ رحلة أسبوعية ترفيهية عن النفس إلى بيروت (الغربية) التي تعج بالمقاومة الفلسطينية، والقوى الثورية والمعارضة من أنحاء العالم العربي، قوى سياسية تطبع المجلات والكتب والنشرات السرية المربوطة بأشرطة غنائية لـ (الشيخ إمام)، أشعار (أحمد فؤاد نجم)، وإلى جانبها أشرطة مارسيل خليفة بصوته الحنون مرنماً أشعار (محمود درويش)، يضاف إليهما سخريات الفنان (زياد الرحباني)، ضمن برنامجه الإذاعي "بعدنا طيبين قولوا الله" في إذاعة "صوت الشعب"، ومعظم النقد الساخر لزياد موجه ضد النظام السوري والأمريكان والكتائب اللبنانية!

وعند نقطة التفتيش الحدودية، وقبل وصولي ببضعة أمتار، خبأت الرسائل الحزبية الصغيرة والرقيقة الملفوفة (أوراق صغيرة مغلفة بلزيق شفاف)، وجوازات سفر لبعض الرفاق بين البنطلون وثيابي الداخلية، كنوع من الاحتياط والحذر. اقترب الأمن وطلب فتح حقيبتي الشخصية وتفتيشها، وأخذت أكلم أحد رجال الأمن كي أنسيه الحقيبة، لكنه أصر على فتحها. فتحها، وهي حبلى بالجرائد السرية (القديمة)، يعني لا ضرورة لحملها!

أنزلوني من التاكسي، وقادوني إلى سيارة الأمن ومنها إلى مقر(أمن الدولة) في (كفرسوسة) الحي الذي أقطنه، وسط البساتين الباذخة بأشجار المشمش، والتوت الشامي، والجوز والتين.

صور التعذيب والتحقيق كانت لاتزال ضبابية وهلامية، تُختزل بما قرأته في الروايات، وما سمعته عن التعذيب فترة انضمامي للتنظيم، وسؤال ألح علي: هل سأتحمل التعذيب ؟! علي أن أتحمله! كي أستحق لقب معتقلة، ومن ثم مناضلة! كانت تلك الفكرة تستحوذ على تفكيري، وفي الوقت نفسه أرقب الطريق إلى دمشق، وإحساس غامض بغبّ الكثير من الهواء الحرّ، وإشباع نظري من الفضاءات السماوية ومفردات الحياة، ولعل الجو التشريني الغارق بوريقات شجره الصفراء أغدقني حزناً وترقباً وجملاً تتداخل عن التحقيق والتعذيب، وسؤال مكرر طوال الطريق نفسه: هل يمكنني التحمل؟! وهل سأصمد، أم أنهار ؟!

لم أحس بالوقت، ولا الدرب إلى أن وصلت مبنى أمن الدولة (الحديث النشأة)، طلبت مباشرة دخول (الحمام)، مزقت جوازات السفر والرسائل، وصببت الماء، وعلق (جلد) الجواز في جورة "التواليت"، ولا أدري لحظتها، ماذا فعلت ورائحة البراز تعمي أنفي، وتدفعني إلى التقيؤ؟! وكاد أن يغمى علي، وأنا أعاود الكرة لطمس ما بحوزتي في تلك الجورة اللعينة! وعليّ إنجاز العمل بسرعة دون ترك أثر، قبل أن يتنبه الضباط إليّ. أمضيت دقيقة، أو خمس دقائق، أكثر أو أقل لا أعلم! لكني أنجزت مهمتي، بعد أن خرجت من الحمام، قادوني إلى إلى(سجن الحلبوني)، والسجن هو بيت الشيخ

الإشكالي (تاج الدين الحسني) الرئيس السوري أيام الاحتلال الفرنسي. دخلت السجن، أو بيت (تاج الدين الحسني) مخفورة ليلاً، وبدأ التحقيق معي بعد أخذ الهوية الشخصية من قبل رئيس الفرع، وهو من بلدة (الزبداني) غرب دمشق، والسؤال الأول: ماذا كنتِ تفعلين في بيروت، ومن رأيتِ هناك؟ والأهم مواعيدك مع أعضاء التنظيم والقيادات، من تعرفين؟ أدخلني الدولاب، وبدأ جلدي بالخيزران حتى الصباح وأنا أصرخ ملء صوتي وفمي، أيقظت الحي الهادئ من نومه والجلد مستمر، والأدعية تخرج من فمي وكذلك الشتائم. كلما شتمني رئيس الفرع، كنت أنده بعلو صوتي يا (الله) يا (علي)، ظناً مني أن النداء سيرفق بحالي، بينما النداء تسبب بزيادة ضربي وجلدي، لا أدري إن كان انتقاماً من انتمائي السياسي أو غيره؛ لأن ابن أخته (الذي يخدم الإلزامي)، هرّب في ما بعد السجناء الإسلاميين من سجن (كفرسوسة) في حادثة هي الأولى وربما الأخيرة من نوعها، أثناء حكم (حافظ الأسد)، وضرب عليه النار، فأصيب بكتفه من قبل الجهاديين.

أخرجني من الدولاب، وطلب مني الركض كي لا تتورم قدمي، وكنت أقفز كالبهلوانات، أو القردة والخيزران ينزل على جسدي مرواحاً ومجيئاً، وذلك الركض عبارة عن فواصل بين الدولاب والدولاب، ثلاثة أيام وأنا أُجلد ليلاً حتى الصباح، وصراخي المبحوح يسرق الهواء والهدوء من حولي، ثلاثة أيام من الجلد بالخيزران، ويا لها من أداة تعذيب! (سوف تتحول إلى مزحة أمام وسائل التعذيب اللاحقة)، كانت أقدامي متورمة ومدماة، ولا أستطيع المشي عليها، رغم إجباري على الركض بعد كل دولاب، إذ يقف عنصران وبيدهما خيزران يلسعني، ويلاحق جسدي في الساحة الضيقة للجناح الأيمن من السجن، وكلما انقضى يوم تعذيب، سلم بانقضائه رفيق من رفاق لجنة العمل (مكتب سياسي)، ممن لدي مواعيد معهم، وهم (نهاد نحاس، زياد مشهور).

عرضوني على الطبيب ليضمد أقدامي، وأودعوني الزنزانة في القسم الموازي لمهجع (رفاقنا وقريبة) من باب الجناح (كما يسمى)، وأعطوني للمرة الثانية الورق الأبيض، لأكتب اعترافاتي، وكل صباح ومساء، أُهدى ورقة بيضاء، لأسجل اعترافاً جديداً دون جدوى! ورقة بيضاء أخرى، وأخريات كل صباح وظهر وليل . وكلما رأيت التفاح "الدوسير"، قذفت به، وخفت من الجلد، والمسكين التفاح تحول من فاكهة لذيذة إلى "أم أربعة وأربعين"، تنتظر أن تنقض علي نتيجة حالتي النفسية والجلد المتواصل، كرهت التفاح، وتوقفت عن أكله، حتى بعد انتهاء التحقيق، وذات مرة أعطاني السجان ثلاث تفاحات، رميتها: أكره التفاح، أتشاءم منه!

أجلس على العازل المرصوص بألم السجناء، وفوقه باقي البطانيات العسكرية، وأنتقل من قراءة لأخرى، وأصيخ السمع لأقل حركة، وأنا لا أستطيع النهوض من الكتل الزرقاء والورم بأقدامي، والتسلية الثانية: أصوات السجّانة (أغلبهم يخدم الإلزامية) تسليني، وتكسر الصمت القاتل، ومعظمهم تعاطف معي، ولم يروا مبرراً لضربي. بعد أيام فتحت كوة الفرح والفرج معاً، حين سمعت أصوات (صبايا) في الباحة، ما لبثن واقتربن مني، وكانت أجمل لحظات السجن، وعرفت أنهنّ الرفيقات اللواتي مازلن معتقلات منذ عام ونيف، وكن: (نجود اليوسف، روزيت عيسى، رنا سيور، سناء الكردي)، سبق وأفرج عن (فيروز خوري، راغدة عساف) بعد ستة أشهر، بينما أطلق سراح (نجود اليوسف، روزيت عيسى، رنا سيور، سناء الكردي) بعد سنة وأشهر، كانت المنفردة صغيرة، لكن جدرانها تشي ببشر أقاموا هنا، وها هي خُطا من رسموا أسماءهم، وتواقيعهم، وأشعار(محمود درويش)، وجمل وأقوال مأثورة لمعتقلين سمعت بهم من قبل، سجلوا اسمهم وتاريخ اعتقالهم، وكأنهم يخافون نسيانه، وبقيت كلمة محفورة بذاكرتي، كلمة شفافة، هي (القبرة)، وسجلت اسمي وتاريخ اعتقالي، شكلت قراءة التعليقات أولى التسليات، أغمض عيني، وألقي مقاطع الشعر مما أحفظه، أو أقرؤه عن الجدران، وكأنها تدريب للذاكرة.

قصر تاج الدين الحسيني في حي الحلبوني الدمشقي الذي حوله نظام الأسد إلى سجن

دخلت السجن، أو بيت (تاج الدين الحسني) مخفورة ليلاً، وبدأ التحقيق معي بعد أخذ الهوية الشخصية من قبل رئيس الفرع، أدخلني الدولاب، وبدأ جلدي بالخيزران حتى الصباح وأنا أصرخ ملء صوتي وفمي، أيقظت الحي الهادئ.

سراح (ليلى نحال) الأم لطفلة رضيعة بعد(تسعة أشهر)، في حين خرجت كل من (هالة، وخلود العبد الله، وصباح عبدلكي)، بعد عام من الاعتقال، وكانت تلك المجموعة من الصبايا، قد دشّنّ الاعتقالات الجماعية للنساء ببقائهنّ زمناً داخل السجون السورية، وجلّهنّ ينتمي إلى الطبقة الوسطى المتعلمة، بينما كنت أفقرهن اقتصادياً، وتليني مباشرة (سناء الكردي)، التي روت لنا عن سكنهم المشترك مع عائلات في بيت عربي واسع متعدد الغرف، يسمى (قصر شمعايا) بحارة اليهود (دمشق)، وهي مفارقة أخرى (فلسطينيون هُجروا من أرضهم بفلسطين على يد صهاينة، ليسكنوا في حارة من تسبب بهجرتهم، ولو نظرياً)، وسكنها يتشابه مع سكني كثيراً.

أرسلت (الرفيقات) الرائعات طعاماً وبعض الثياب مع أحد السجّانين، وحاولن الكلام معي، ومنحي القوة اللازمة لمواجهة التحقيق والاعتقال.

حكم علي مدير الفرع بالانفرادي عقوبة على كذبي، بقيت شهراً ونيف في المنفردة، ولأنها التجربة الأولى، فقد كانت قاسية جداً، رغم كسرها بالأصوات والكلام مع الرفيقات، عند خروجهن للتنفس في ساحة السجن (الدار).

دخلتْ دوامة الملل والإرهاق، بعد تماثل أقدامي للشفاء، وتوقف تعذيبي، فالتعذيب يشعل الجملة العصبية وقوداً، يُذكي حالة الاستنفار والاستفزاز حتى النهاية، ويستحوذ الخوف على السجين من جولة تعذيب وتحقيق قادمَين، ما يحرمه النوم إلا غصباً؛ ولأنني أواجه التحقيق لأول مرة، يمثل أمامي الأبطال الثوريون، ممن قرأت عنهم تلك المرحلة الزمنية، وضرورة التمثّل بهم، بينما الوجع والألم يدفعانني إلى هاوية الاعتراف التي تتوقف عند لحظة ما، أشعر فيها أني أخون! وهنا أتراجع مع صراخ يشق آذان السجناء، ويحرمهم غفوة مسروقة وسط عويلي!

بعد أسابيع قليلة ضقت ذرعاً من المنفردة، وأضحى وضعي النفسي سيئاً للغاية، إثر نقلي

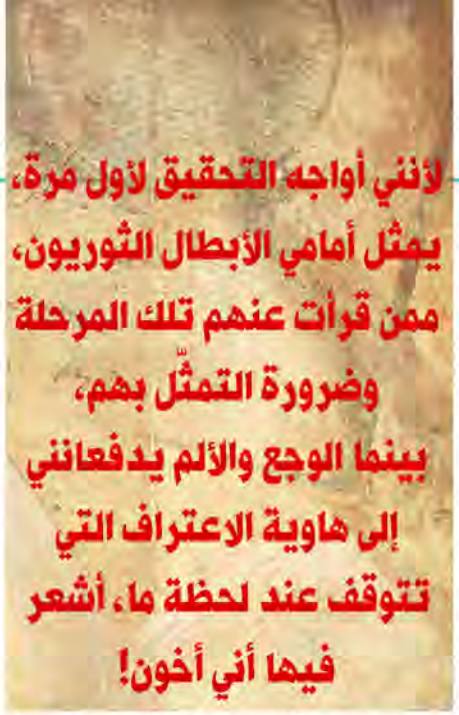

لأنني أواجه التحقيق لأول مرة، يمثل أمامي الأبطال الثوريون، ممن قرأت عنهم تلك المرحلة وضرورة التمثّل بهم، بينما الوجع والألم يدفعانني إلى هاوية الاعتراف التي تتوقف عند لحظة ما، أشعر فيها أني أخون!

إلى الطابق الثاني، لم أعد أسمع أصواتاً، سوى دقات الباب عند خروج الرفيقات للتنفس، أو فتح الباب من قبل السجانة، وغناء(وليد توفيق) القادم من البيت المجاور معلناً استيقاظ صبية البيت (أبوكي مين يا صبية وساكن فين يا عيني).

كنت ألعب بعيدان الكبريت، والمفاجأة الرائعة هي زيارة الرفيقات لدقيقة واحدة بعد سرقتهنّ المفاتيح من السجان، لحظات لن أنساها بحياتي، وهن يدخلن الغرفة علي، وكأنه عيد، أو عرس مضفور بزغاريد فرح ..حضور بهي لصبايا بهيات الطلعة والضحكة، وأحسست أنهن ملائكة نزلن من السماء، وبالسرعة نفسها التي دخلن بها غادرن، وتركوني للملل ثانية، قررت إجبار رئيس الفرع على نقلي، وضعت على رأسي قبعة، ولبست جوارب مع "شحاطة زنوبا" التي قدمت بها من بيروت وبيجاما قصيرة، وطلبت لقاءه، وعندما رآني استغرب المنظر، وسألني ما بك؟ أجبته: أرى كوابيس لا أنام! ضحك: الكوابيس تهرب منك

أصريت على ملاحقتي بالكوابيس.ظن أنني على وشك مرض نفسي، فنقلني إلى مهجع الرفيقات، (وبالأحرى غرفة في الطابق العلوي)، استقبلوني بفرحة كبيرة، أدخلوني الحمام، وألبسوني ثياباً من عندهم، سهرنا حتى الصباح، واستغربن ضربي بهذه الطريقة ووضعي هذه الفترة في المنفردة، فهنّ تعرضن للضرب ببعض الخيزرانات والكفوف عند اعتقالهنّ (1978 أخذت الأيام منحى جديداً معهن، كنا ننزل إلى باحة السجن أو(أرض الدار)، نركض، نشم رائحة النارنج والأزاهير في الباحة، نتبادل السير الذاتية، ولأن (الرفيقات)، مضى زمن على اعتقالهن، وحفظن تفاصيل بعضهن بعض، ولذا كلما روت إحداهنّ حادثة سرعان ما يُثار الضحك لدى البقية، ويرددن معاً (مئة أو مئة وواحد)، أي أُعيدت القصة وتكررت.

وبحكم وجودنا في الطابق الثاني، وشبابيك مهجعنا تطلّ على الباحة، كنا نلمح الرفاق عن بُعد في ممرات الجناح، ونؤشر لهم عبر أصابع اليد المرتبطة بالأحرف الأبجدية، لنوصل لهم خبراً، أو نطلب شيئاً منهم، وقد طلبت (هبول، تين يابس)، ونراهم بشكل واضح عندما يخرج أحدهم من أجل الزيارة أو رمي القمامة، عندئذ نرفع أصواتنا كي يسمعنا ويرانا، ومن ثّم يبتسم لنا . وإذا وجدنا الرفيق (باسل حوراني)، ندفع بسناء الكردي خطيبته، (تزوجا فور إطلاق سراحنا) إلى الواجهة، وكذلك نفعل مع نجود في حال كان زوجها (أمجد كلاس). سبق وقدّمت كل من (نجود، خلود) طلباً لزيارة زوجيهما في السجن، إثر نقلهما من (سجن المزة العسكري)، ووافق رئيس الفرع على طلبهما. كانتا تذهبان إلى الزيارة بأبهى حلّة، تصر (خلود) على ربط شعرها ربطتين، بحيث تهفوان سريعاً نحو (جورج ديب)، مذكرة لاعب كرة السلة زميلها في كلية الصيدلة بفترة تعارفهما، أثناء دراستهما الجامعية، تلك الربطتان اللتان أثارتا إعجابه منذ رآها أول مرة وأحبها، وكلما خرج لرمي الزبالة خارج الجناح، نظر إلى نافذتنا المطلة على الباحة باحثاً عن وجه (خلود)، وطيف جدائلها، بعد أن افتقد طلتها وزيارتها، وربطتي شعرها.

والمفاجأة زيارة والدي خلال فترة قصيرة، وهو دامع العين، حاولت في الزيارة إضحاكه، كي لا يستمر ببكائه عليّ. سألني رئيس الفرع بعد مغادرة والدي: من أين يعرف والدك رئيس الفرع (محمد ناصيف؟). ابتسمت: وما أدراني من هو؟ لم أكن أعرفه! وعندما أُطلق سراحي، سألت والدي عنه، ضحك، وهو يصف كيفية حصوله على الزيارة.

كان المقدم (محمد ناصيف) وراء مكتبه في

في الفرع الداخلي _ الفرع الأهم من فروع تحقيق أمن الدولة خصوصاً ما يتعلق بتنظيمنا، فقد استطاع وبجدارة تركي علم الدين فك شيفرة التنظيم(1978)_ ذهبتُ إليه لطلب الزيارة، وعرف أنك معتقلة، وقف وراء مكتبه، ورفع صوته: ابنتك رابطة عمل شيوعي؟

_لا أعلم!

ثم عاود الحركة مرة واثنتين وثلاثاً، حتى ضقت ذرعاً. نظرت إليه: هل تريد إعطائي ورقة الزيارة أم أذهب؟ رد: سأعطيك.. سأعطيك.

وعاد للازمته: ابنتك رابطة عمل شيوعي، وهو يضرب المكتب بيديه قائلاً: هاد الكان ناقصنا! ردة فعله الغريبة لم أفهمها إلا لاحقاً فالنساء من (منطقتنا)، لم يعتدن على وجودهنّ بالمعتقل حتى ذلك الحين، وهناك حالة واحدة اعتُقلت من (ريف اللاذقية) على يد(فرع التحقيق العسكري)؛ لذلك استغرب اعتقالي تلك الفترة! وسجلي البعثي، أضاف غرابة أخرى لم أكن أنتبه إليها! ففي إحدى جولات التحقيق هددني رئيس الفرع: ألا تعرفين أن ازدواجية التنظيم ممنوعة، وهناك قانون يجرم ذلك، ويحكم المتهمين بالمؤبد، أو الإعدام؟! أجبته: تركت حزب البعث.

_مازلت فيه؛ ولذا ينطبق عليك هذا القانون!

وهو القانون (الهدية) من التقارب البعثي (العراقي_ السوري)، فترة حكم الرئيس العراقي الراحل (محمد حسن البكر)، و(حافظ الأسد) المشروع الوحدوي الهلامي، الذي ظهر نتيجة أزمة نظامَي البعثين (لم يستمر طويلاً)، والحق يقال بقيت الوحدة والقانون (حبراً على ورق)، ولم يطبقا، وانتهى سريعاً شهر العسل، بينهما بانقلاب (صدام حسين) على رفيقه (حسن البكر).

الاعتقال الثاني

كانت فترة الاعتقال قصيرة، لا تعدو مزحة سمجة، لما سيأتي لاحقاً في كل شيء، عشنا والرفيقات شهرين ونيف (في غرفة وحمام طابق ثانٍ، يطل أيضاً على شارع وسط دمشق)، مع معتقلتين من حلب، بتهمة نقل رسائل من بعث العراق، احتُجزتا معنا، وكنا نخرج إلى باحة السجن (ساعة تنفس) نركض، وندور حول الحدائق الصغيرة الحبلى بالأشجار، ومن بينها شجر النارنج، إضافة إلى الورود، واعتبرتها فترة ذهبية، إذ تعرفت على رفيقات طالما سمعت عنهن القصص، والآن أعيش بينهن. ارتبطت بصداقة مع الجميع استمرت بعد خروجنا، وانقطعت نتيجة شرطي الشخصي من تخفّ وتنقل، وتخلصت من كابوس رافقني منذ نهاية طفولتي، وبداية شبابي حتى اعتقالي. صورة (حافظ أسد)، وهو وزير دفاع التي علّقت ذات مساء في بيتنا، واخترقت أحلامي محولة إياها لكابوس مخيف يطاردني في حارتي الضيقة، كنت أراه بتلك الهيئة العابسة، بيده رشاش يحاول رشّي، وأنا أركض وحيدة في الظلام.

احتدم الصراع بين النظام والجهاديين الإسلاميين، وهُدد النظام جدياً لأول مرة؛ لذا شُكّلت لجنة أمنية من ضباط استخبارات هم: (وهيب الفاضل، حسن خليل، كمال يوسف) للحوار مع (قياديي) الحزب، حول تراجع التنظيم عن اتهام النظام بـ(اللاوطنية)، والقبول بالحوار معه، ومقابل ذلك ينضم التنظيم إلى (الجبهة الوطنية التقدمية)، وبعد جلسات حوار طويلة التقينا جميعاً، وتمحورت أسئلتهم: ماذا سنفعل بعد خروجنا من السجن؟ أنعود إلى العمل السياسي أم لا؟

اخترقت صورة (حافظ أسد)، وهو وزير دفاع التي علّقت ذات مساء في بيتنا أحلامي محولة إياها لكابوس مخيف يطاردني في حارتي الضيقة، كنت أراه بتلك الهيئة العابسة، بيده رشاش يحاول رشّي، وأنا أركض وحيدة

حسيبة عبد الرحمن تحمل طفلة ولدت في سجن دوما للنساء عام 1990

وقبل ذلك بعام بدأ عرض التعهد السياسي، الذي رفضه بعضهم وقبله آخرون، مما فتح باب الصراع حوله، وهذا ما جرى أيضاً عند عرضه على الرفيقات اللواتي أشبعنه نقاشاً، وقورن بالتعهد في رواية (شرق المتوسط) لعبد الرحمن منيف، واختلفن حول تقييمه.

والفترة لم تطل، قرر النظام العفو عن اليسار السوري، عدا الضباط من التنظيم، وكانوا (خمسة)، وفي هذا السياق أعتقد أن وجود ضباط في التنظيم شكّل سبباً من أسباب تشدد النظام ضدنا لخرقنا خطوطه الحمراء، وهو النفاذ إلى الجيش.

جُمعنا صباح (الرابع) من شهر (شباط) عام (1980) في باحة (سجن المزة)، وأطلق سراحنا، وأحضروا لنا حافلات تقلنا إلى المدينة، وكان يوماً لا يشبه الأيام الأخرى، غنينا للشيخ إمام (كانت أغانيه سرية)، و(لفيروز)، و(مارسيل خليفة)، الذي دخل حلبة الغناء الثوري مع أغاني (زياد الرحباني) السياسية والاجتماعية والساخرة..الخ، وكأننا في رحلة. ذهبت مع (رنا سيور) إلى بيت أهلها في (القصاع)، تناولنا الغداء سوية، وعدت إلى منزلي، وخبر الإفراج عني سبق وصولي إلى البيت عن طريق جارنا(الحلبي) المساعد الأول في الشرطة العسكرية بسجن المزة.

وانتابني حزن عميق على والدتي، وهي تروي كيف انتظرتني مساءات وليالي، أمام موقف الباص باكية.. علني أعود! وفي الوقت نفسه تغني بصوتها الحنون (المواويل)؛ لأن أختي لم تخبر والديّ باعتقالي في الفترة الأولى، ولا أدري لذلك سبباً، والأقاويل الاجتماعية تطايرت خيالاً خصباً، وأهمها: أني هربت مع شاب فلسطيني إلى لبنان (لعلاقاتي مع الفلسطينيين سواء في الحارة أو غيرها)، وتداعيات ذلك الكلام على نفسية والدي المتدين، خصوصاً وأن ابنة عمي تزوجت عسكرياً من حوران، دون معرفة عمي فترة اعتقالي، وأختي تصيخ السمع، وتصمت مع أنها بُلّغت مباشرة باعتقالي، بعد انقطاعي عن المواعيد الحزبية ليومين متتاليين (الموعد الأساسي والاحتياطي)، مع عضوَي

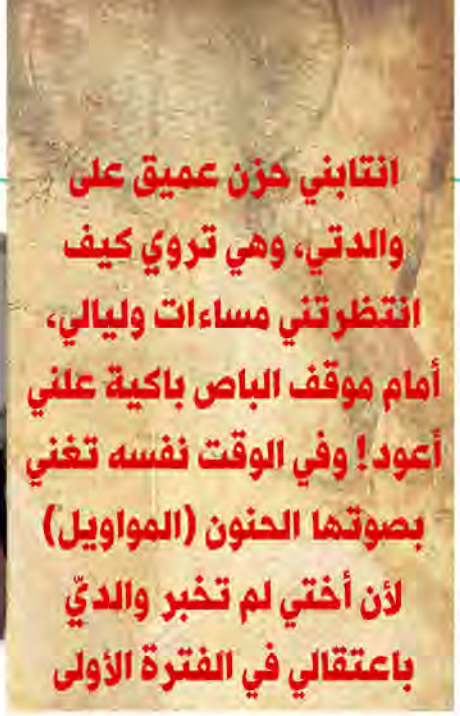

انتابني حزن عميق على والدتي، وهي تروي كيف انتظرتني مساءات وليالي، أمام موقف الباص باكية علني أعود! وفي الوقت نفسه تغني بصوتها الحنون (المواويل) لأن أختي لم تخبر والديّ باعتقالي في الفترة الأولى

لجنة العمل، أحدهما (نهاد نحاس)، عاتبني ساخراً بعد إطلاق سراحي: ضروري تعملي فيها مناضلة، كنتِ اعترفي علي وخلصيني، أسجن أشهراً فقط، وأخرج معكم ! أجبته: لم أكن أعلم! وإلا اعترفت عليك، وعلى غيرك المرة القادمة أعدك بالاعتراف!

أخبرني والدي، وابن عمي أنهم فتحوا حقيبتي المقفولة، ورموا محتوياتها (راية حمراء، الخط الإستراتيجي) في البئر، وجمعوا الكتب بحقائب، وأودعوها عند قريب لنا، فذهبت وأتيت بالكتب ثانية التي ستصادر لاحقاً!

احتفال الرفاق في حماة

وبحكم وجود عدد كبير من رفاقنا من مدينة حماة، والاستقبال الحافل الذي لاقوه في المدينة احتفاء بنيلهم الحرية، إذ حملوا على الأكتاف، وأطلق الرصاص والزغاريد معاً؛ لذا قرروا إقامة احتفال مركزي كبير بمناسبة خروجنا في المدينة، ودعوني إليه. رفض أهلي بداية سفري؛ بسبب الصراع الدائر بحماة (بين الجهاديين والنظام)، ولكني أقنعتهم، أو(هكذا خيّل إلي)، بعد أن غيّرت وجهة سفري إلى قرية (دير ماما)، فوافقوا على مضض، رغم الشكوك التي ساورتهم، لأرى ثانية، وعن قرب نواعير حماة المتبخترة بماء العاصي نزولاً وصعوداً، وهي تطلق صوت دورانها على وقع أغنية (سمعت عنين الناعورة) لمعن دندشي، التي تلف المكان ممزوجة بأصوات الرصاص، ومدينة حماة مركز تنظيم المرحوم (أكرم الحوراني) حامل قضية الفلاحين ومفجرها،

تحول أعضاء تنظيم (الاشتراكيين العرب) خصوصاً الشباب إلى الماركسية، إثر هزيمة حزيران، وشكلوا حلقات ثقافية وفكرية، كانت إحدى الحلقات الأساسية والمركزية قد ساهمت بتأسيس التنظيم (رابطة العمل الشيوعي) عام (1976).

احتفلنا ببيت أقرباء رفاقنا من عائلة (البني) العائلة التي اعتُقل منهم أربعة (إخوة)، وجاء توقيت احتفالنا في عيد الفصح، حيث دخلت الكنيسة التي ستخرق إيقوناتها بالرصاص الطائش، وستُنهب بعد عام ونيف، إبان الصراع المسلح بين النظام وتنظيم (الطليعة) الجهادي.

لم نفرح كثيراً، إذ قامت (الوحدات الخاصة) إحدى أهم الفرق العسكرية بحملة تفتيش شاملة بعد اقتحامها المدينة، وعندما وصلوا إلى البيت الذي نزلته، أخذوا هويتي، نظر الضابط إليّ، والشرر بعينيه متسائلاً: ماذا جاء بك إلى هنا؟ أجبته، وبمنتهى السذاجة: لنحتفل بخروجنا من المعتقل. - ماذا؟

- نحن رابطة عمل شيوعي!

رازني طويلاً، وغادر المنزل، بعد أن فتش البيت بحثاً عن أسلحة ومطلوبين، ولم يترك بيت مسلم، أو مسيحي إلا وفتش، فالجميع عرضة للشبهة، وكان تمركز العسكر على المرتفع بقلب المدينة، ليسهل عليهم المراقبة الفاشلة، فالفخاخ اليومية تزرع الموت بكل زقاق وحارة من المدينة، وتحصد أرواح الجيش الذي يضرم النار بالرشاشات وغيرها من الأسلحة الفتاكة.

أُغلقت المدينة ونحن هناك، لنحاصر في البيت، وأصوات الرصاص لا تغادر سماء وأحياء المدينة.

صدر قديماً

أشهر المذكرات السياسية السورية

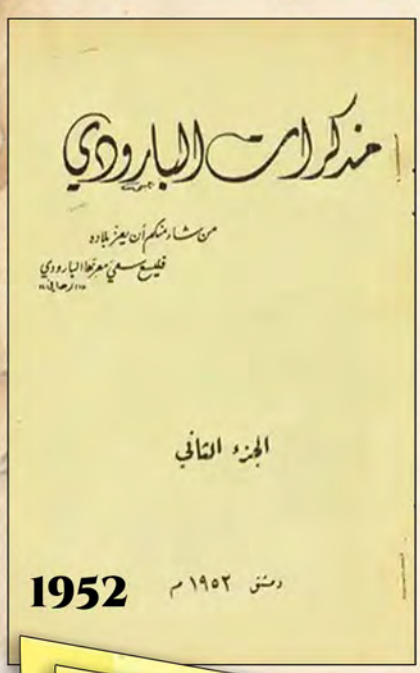

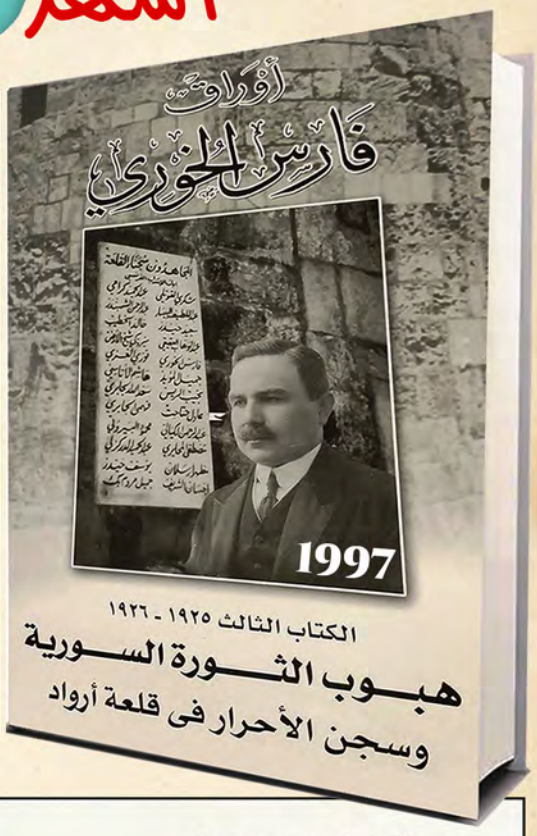

مذكرات
الدكتور معروف الدواليبي
إعداد
د/ عبد القدوس أبو صالح
تحرير
د/ محمد علي الهاشمي
مكتبة العبيكان
2005

أنجمد الجندي
لهو الأيام
مذكرات
سنوات المنعة والطرب والثقافة
1991

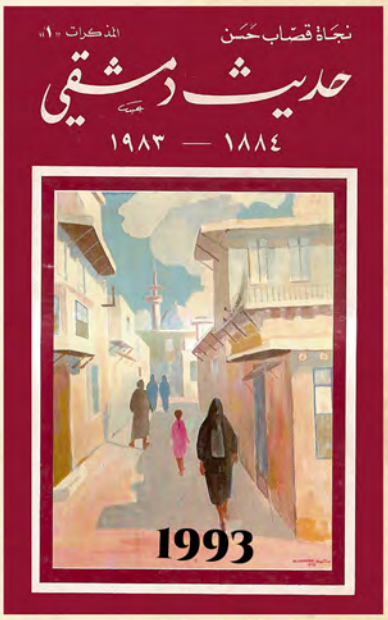
نجاة قصاب حسن
المذكرات «١»
حديث دمشقي
١٨٨٤ — ١٩٨٣
1993

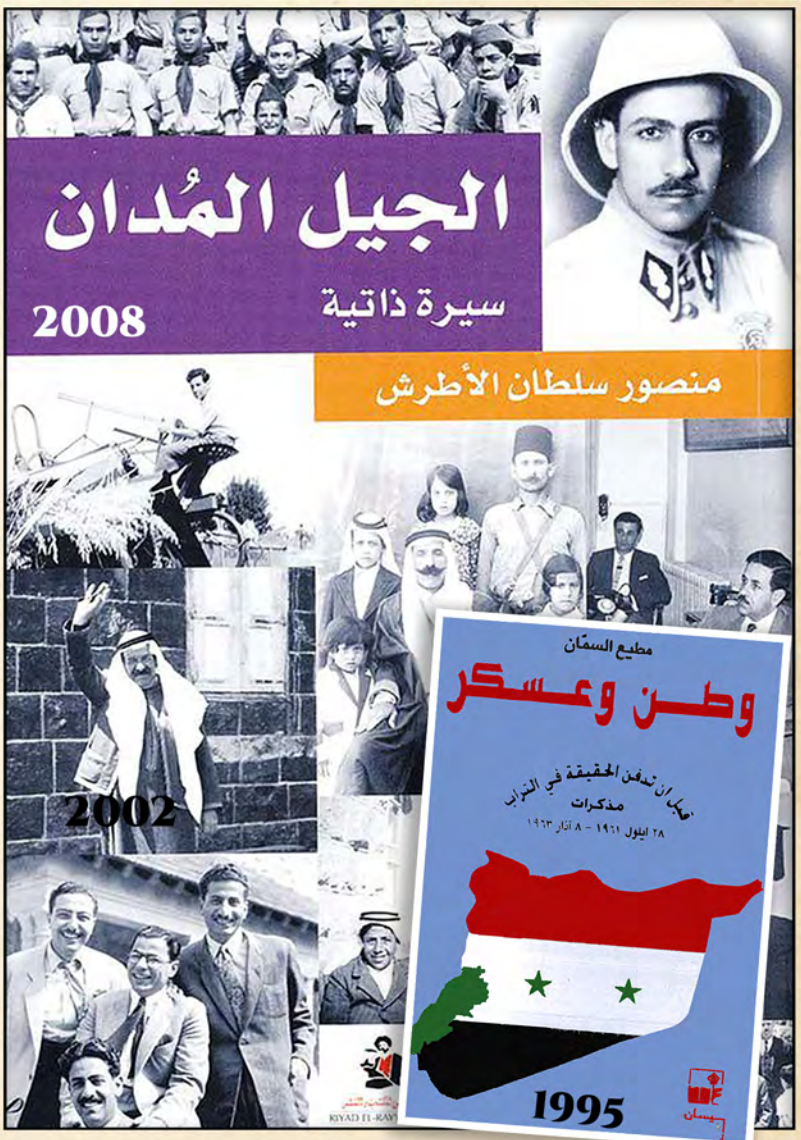
الجيل المُدان
سيرة ذاتية
2008
منصور سلطان الأطرش
2002
مطيع السمّان
وطن وعسكر
مذكرات
٢٨ أيلول ١٩٦١ - ٨ آذار ١٩٦٣
1995

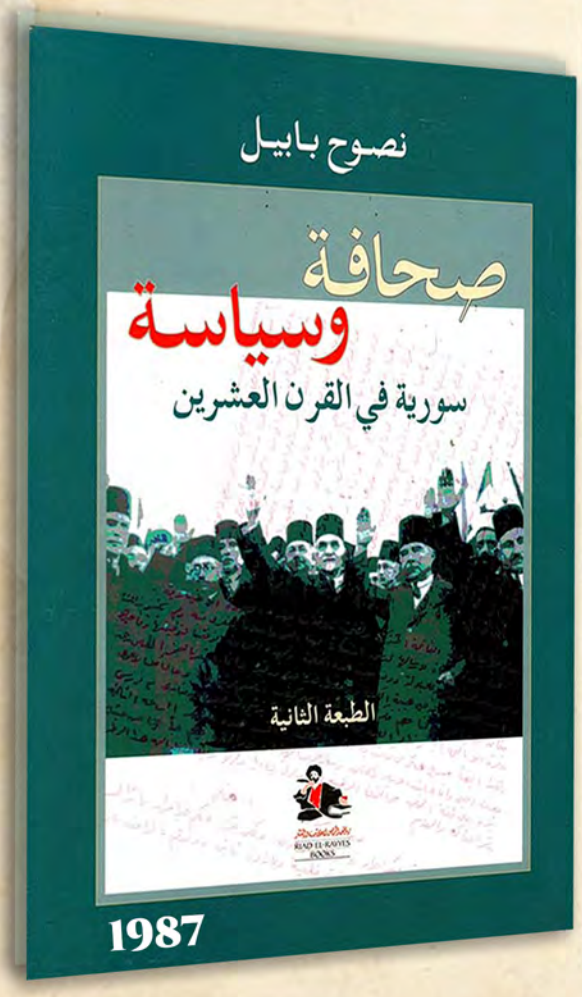
نصوح بابيل
صحافة وسياسة
سورية في القرن العشرين
الطبعة الثانية
1987

الأخيرة

هناك أنا.. لست هنا أيها "العربي القديم"!

إيمان الجابر

ثمة أيادٍ يهدينا إياها القدر، لتحررك من فكرة الانتظار، من فقدان الشغف في كل شيء، من تحقيق الذات والأحلام التي تجعلك تقهقه عالياً، كلما ترددت أمامك أو مرت في ذهنك، ثم تهطل دموعك بلا توقف، كمطر غاضب، يكاد أن يجرف ملامح وجهك، لتواجه نفسك بسؤال: من أنا، ولماذا أنا هنا؟!

أنت هنا، سجين الفكرة، (حرية سوريا، وما يسمى بالعودة إلى وطن حر). لا تفكر كثيراً، كل شيء سقط أمام الواقع شديد الوقاحة، وقد أغلقت عليك داخلك، وما عليك إلا الانتظار للغد.

أمي مازلت تتوقع مني لقاء جديداً في بيتها، يدوم أكثر من مجرد شهر كل سنتين أو أكثر، لقاءات مسروقة، تجمعنا في دول الجوار، ولشدة قربها من بلادك، تكاد تظن أن الهواء فيها، هو ذاته المحبوس هناك خلف الحدود، هكذا أراد الإنسان أن يجعل لكل شيء حدوداً، هذا الهواء الأردني كم يشبه هواء سوريا!

الوعد الذي قطعته أمام نفسي، ألا أتخلى عما آمنت به، وخرجت مرغمة من بيتي لأجله، هو أصعب الوعود، لا أحد غيرك إلا أنت، يعرف ما معنى التخلي والاستسلام للضعف الإنساني، لتعود إلى هناك.

معركتك مع نفسك أبدية، لا منتصر فيها، ولا خاسر غيرك، (أَنتَ الخَصمُ وَالحَكَم).

ويد تمتد نحوي كَيَدِ. من خلال الموج مُدَّت لغريق.

في لحظة يأس شديد يأتيني صوت أعرفه قائلاً:

- لا أريد أن يظهر العدد الأول من (العربي القديم)، ولا يكون اسمك فيه يا إيمان.

- لم أعد أكتب في الفن، منذ بداية الثورة، عن ماذا أكتب؟

- اكتبي عن أي شيء... نحن سنهتم بالتاريخ والذاكرة السورية!

- نسيت الكتابة منذ زمن طويل يا محمد، كل ما أنشره على موقع (فيسبوك) هو باللهجة السورية المحكية.

زعيق ماكينات الخياطة، وتنافر الأصوات مع الآلات المختلفة التي يحتاجها صناعة معطف محشوّ بريش الإوز) باهظ الثمن، لتقوم هذه الأصوات بما يشبه الاغتصاب، والانتهاك لحقوق أذنيك بقسوة، حتى وهي محشوة بسدادات الآذان، تظن أنها تنبع من داخلك. سأكلمك لاحقاً.

عن أي كتابة تتحدث يا محمد! أغلق سماعة الهاتف سريعاً، وأعود إلى مكاني خلف طاولة كبيرة، لأتابع عملي،

أتلفت حولي، لقد سرقت دقائق قليلة جداً، هدرتها في حديث مقتضب مع الصحفي (محمد منصور) الذي كان منشغلاً في مثل هذه الأيام قبل عام بإطلاق العدد الأول من مشروعنا السوري المستقل (العربي القديم)، هذا الوقت للعمل المباع مسبقاً ليس لي، إنهم يحسبون عليك حتى النفس الفائض عن الحاجة.

تقتلني هذه الإضاءة البيضاء الصارخة، تجبر عيني على الاتساع والتحديق المؤلم لساعات طويلة، ترتيب قطع قماشية صغيرة وفق مجموعات، هو ما يشغل بالي لمدة 8 ساعات يومياً، لا أفكر إلا كيف ستنتقل من يد ليد بلا أخطاء، تحملني مسؤولية تركيب قطعة في غير مكانها.

بشر امتزجت أجسادهم بالآلات، كل شيء يبدو آلياً، حتى الكلمات القليلة، الموسيقا حرام، قد تشغلك عن مهامك، أو تذهب بك في لحظة شرود عابر إلى هناك.

وقت المنازلة مع الوقت للتخلص من ساعات العمل، الذي هو عمرك، لا ينتهي أثره إلا عندما تصل إلى سريرك لتنام، وتعود لتكرر اليوم الذي يليه نفسه بلا زيادة ولا نقصان، هكذا يمكن أن تتخلص من سنوات عمرك، وأنت في حالة انتظار.

وفي كل صباح أفكر ماذا يفعلون بالإوز الذي ينزعون ثيابه عنه، لينجزوا كل هذه الأعداد الهائلة من المعاطف، وفي اعتقادي أنها كافية لسكان الكرة الأرضية لو وزعت بالتساوي. يا لجشع الإنسان، لا حدود له! وأقول في سري لن ألبس هذا النوع من المعاطف أبداً.

اكتبي يا إيمان عن العمل التطوعي.

(حاضر رح جرب) كتبت ومحوت، وأنا في المترو/الحافلة، هذا الوقت لي، لا أحد يدفع لي ثمنه، ساعة زمنية وأكثر، في كل ذهاب وإياب (العمل/البيت)، اعتذرت، تهربت ربما، لا أريد أن أكتب عن تجربة، لا يمكن المرور عليها بمقال واحد، بعد قليل كتبت المقال. وهكذا في كل مرة أحاول الهرب، وأقول له المقال السابق كان مجرد صدفة، مازلت عاجزة عن الكتابة.

يجب أن تعودي إلى الكتابة يا إيمان!

يمر عام، ولا ينتهي الكلام، والعدد رقم (1) يصبح العدد (13).

اكتبي لابد أن تكتبي، في داخلك كاتبة ناضجة، ولديها الكثير لا تقمعيها. وأنا أقول لنفسي، إنه يظن ذلك، وبعض الظن كثير من المحبة والاهتمام.

شكراً محمد منصور.

الأسر السياسية في التاريخ السوري

الأطرش
الأتاسي
الجزائري
الجندي
الخوري
البرازي
الجابري
الملاح
العظم
الشيشكلي

العرب القديم
أجمل التاريخ كان غداً

في العدد القادم

العربي القديم
The Old Arabian

الخطوط الجوية السورية

مواعيد رحلات الخطوط الجوية السورية ١٩٥٧

خطوط خارجية

دمشق القاهرة
الأحد - الأربعاء - الجمعة

دمشق الكويت
الأحد - الأربعاء - الجمعة

دمشق بغداد
الاثنين

دمشق جدة
الثلاثاء

حلب بيروت
الثلاثاء - الخميس

خطوط داخلية

دمشق حلب قامشلى
السبت
الاثنين
الثلاثاء
الأربعاء
الخميس

قامشلى حلب بيروت
الثلاثاء
الخميس

للوصول على كافة الاستعلامات : يرجى مراجعة مكاتب الخطوط الجوية السورية للمسافرات
دمشق - هاتف برقى هاتف ١٨٩٠٣ / ١٨٩٠٢ هاتف المديرية ٣٤٣٥ / ٣٤٣٤ - حلب : شارع البارون هاتف ١٨١١٢ - الكويت : سوسان الشرق العربي
ساحة الصفا - القاهرة : شركة الكرنك شارع الأوبرا رقم ٢٠ - بغداد : شركة الكرنك - جدة : مكتب السودان التجارى